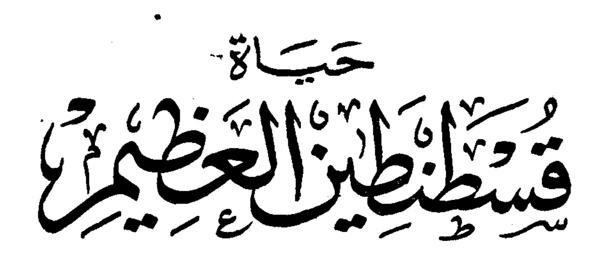


christianlib.com
حياة
قسطنطين العظيم
تأليف
يوسابيوس القيصري
تعريب
القمص مرقس داود
الناشر
مكتبة المحبة
coptic-books.blogspot.com





تعريب
القمص مرقس داود

الناشر
مكتبة المحبة بالقاهرة
٢٠ شارع الفجالة ت : ٩٠٣٨٢٥

مقدمة المعرب

في تاريخ المسيحية برزت شخصيات كثيرة لعبت أدوارا رئيسية مختلفة في الكنيسة • وهذه هي سيرة أحد هؤلاء الاشخاص • ويكفي القول هنا ان الكاتب هو نفس يوسابيوس مؤلف كتاب « تاريخ الكنيسة » والذى يعتبر فى نظر جميع المؤرخين انه هو أبو التاريخ الكنسى •

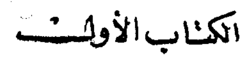
ومما يجعل لهذا الكتاب أيضا أهمية خاصة ان يوسابيوس كان معاصرا للملك قسطنطين • ولذلك فقد كان شاهد عيان لما كتبه •

ولست أريد أن أضيف شيئا عن تاريخ الملك قسطنطين فان يوسابيوس لم يترك صغيرة أو كبيرة دون أن يكتب عنها • ولذا جاء كتابه هذا تاريخا كاملا شاملا •

واننى اضع هذا الكتاب بين يدى القدير متوسلا الى جوده ومراحمه ان يجعله بركة لكل من يصل الى يده وبركة للكنيسة ، وليتمجد اسمه القدوس فى كل نواحى حياتنا حتى « آن اكلنا أو شربنا أو فعلنا أى شىء »

١٢ سبتمبر ١٩٧٥ م
أول توت ١٦٩٢ ش

القمص مرقس داود
راعى كنيسة مار مرقس القبطية الارثوذكسية
بشبرا
وخادم بجمعية اصدقاء الكتاب المقدس


الكتاب الأول

الفصل الاول

مقدمة : موت قسطنطين

منذ عهد قريب اتحد كل البشر فعلا فى اقامة الاحتفالات المبهجة لانقضاء عشرين وثلاثين سنة على ملك هذا الامبراطور العظيم · ولقد استقبلناه نحن أنفسنا فعلا كفاتح ظافر فى آجتماع خدام الله (١) ، وحييناه فى الذكرى العشرين لملكه بما هو خليق به من الهتاف والتهليل · وعلاوة على هذا فقد ضفرنا – منذ عهد أقرب – اكليلا من الكلمات ، وكللنا به هامته المقدسة فى قصره الملكى فى ذكراه الثلاثين ·

أما الآن ، وأنا أريد التعبير عن قليل من عواطف الجمهور ، فانني أقف متحيرا ، ولست أدرى أى طريق أتخذ ، بسبب الذهول الشديد الذى يتملكنى أمام المنظر العجيب الذى أمامى · لاننى أينما أدرت بصرى ، الى الشرق أو الغرب ، أو حول العالم كله ، أو نحو السماء نفسها ، ففى كل جهة ، وبصفة مستمرة ، أرى المغبوط لايزال يدير شئون الامبراطورية ذاتها على الارض ، أرى أبناءه ينعكس منهم ضياؤه ، ويذيعون فى كل مكان بهاء أخلاق أبيهم ، بل أراه هو نفسه لايزال حيا وقويا ، ويدير كل شئون البشر بتدقيق أكثر من قبل ، اذ تكاثر بخلافة أبنائه له ·

لقد سبق أن حملوا فعلا شرف لقب القياصرة (٢) · أما الآن وقد حلوا محله ، ونعموا بما أتمه من مشروعات جليلة ، فقد أطلقت عليهم ألقاب سلطان ، أوغسطس ، المبجل ، الامبراطور ·

الفصل الثانى

مقدمة (تابع)

والواقع اننى أتحير فعلا كلما فكرت كيف أن ذاك الذى كنا منذ عهد قريب نراه ، وكان حاضرا معنا بجسده الفانى ، لايزال ، حتى بعد موته ،

(١) الاشارة هنا الى اجتماع مجمع نيقية ·
(٢) حمل الاول لقب قيصر أكثر من عشرين عاما ، والثانى عشرة أعوام ، والثالث أقل من خمسة أعوام ·

يقترن اسمه بالاكرام والمهابة الملكية والتبجيل (١) ، كما كان سابقا ، بالرغم من أن العقل البشرى يمج كل مغالاة • والاكثر من هذا اننى حينما أرفع أفكارى الى قبة السماء ، وهنالك أتأمل فى نفسه المثلثة الطوبى ، التى تعاشر الله نفسه ، والتى تحررت من كل رداء أرضى يفنى ، وتتلألأ الآن بثوب بهى من النور ، وعندما أفكر كيف انها لم تعد متصلة بالازمنة العابرة ومهام هذه الحياة الفانية ، بل هى الان متوجة باكليل دائم الازدهار ، وخلود مبارك لا نهاية له ، أقف كأنى عاجز عن الكلام أو التفكير ، غير قادر على النطق بعبارة واحدة ، بل معترفا بضعفى ، وفارضا الصمت على نفسى ، ومستعفيا من مهمة التحدث بمديحه ، تاركا اياها لذاك القادر وحده على تأييد كلامه ، أى الله الخالد والكلمة الحق •

الفصل الثالث

كيف يكرم الله الملوك الاتقياء ، ولكنه يبيد الطغاة

لانه اذ أكد بان الذين يكرمونه ويمجدونه يلقون من يديه جزاء وفيرا ، أما من يقيمون أنفسهم كاعداء وخصوم فانهم سوف يتممون هلاك أنفسهم ، فانه دعم حق اعلاناته هذه ، وبين من الناحية الواحدة النهاية المروعة للطغاة الذين أنكروه وقاوموه ، وفى نفس الوقت بين أنه حتى موت عبده يستحق الاعجاب والمديح ، كحياته على السواء ، ويتطلب بعدل لا الذكريات الفانية بل النصب التذكارية الخالدة •

واذ دبر البشر بعض ما يعزيهم فى الحياة البشرية الواهية المزعزعة الاركان ، رأوا أن يقيموا النصب التذكارية لتمجيد ذكريات الاجداد بامجاد خالدة • استخدم البعض فن التصوير برسومه وألوانه الزاهية ، وعمل البعض تماثيل من قطع الخشب عديمة الحياة ، وحفر الاخرون كتاباتهم عميقة على الالواح والتذكارات ظانين أنهم بذلك ينقلون فضائل من يكرمونهم بتذكارات دائمة • والواقع ان كل هذه فانية ، تزول بمرور الزمن ، لانها تمثل الجسد الفانى ، ولا تعطى صورة للنفس الخالدة • ومع ذلك بدت

(١) اشارة الى الاكرام الخاص الذى قدم اليه بعد موته كما يرى فى الكتاب الرابع •

كافية فى نظر من لم يكن لهم رجاء وطيد فى السعادة بعد انتهاء هذه الحياة الزائلة ٠

أما الله ، مخلص الجميع فاذ ادخر عنده لمحبى التقوى بركات أعظم مما يتصوره العقل البشرى ، فانه يعطى حتى هنا عربون وباكورة امجاد المستقبل ، ويؤكد للأعين الفانية الامجاد الخالدة ٠ هـذا ما أعلنته لنا أقوال الانبياء القديمة ، المسلمة الينا فى الكتاب المقدس ، هذا ما تشهد به للانسال حياة الاتقياء الذين أضاءوا فى القديم بكل فضيلة ، وتؤيد الايام الحاضرة صدق شهادتهم ، لأن قسطنطين الذى كان وحده - من بين كل من تقلد سـلطة الامبراطورية الرومانية - حبيب الله المتسلط على كل شىء ، كان مثلا رائعا لكل البشرية فى حياة التقوى ٠

الفصل الرابع

لقد أكرم الله قسطنطين

أما الله نفسه ، الذى عبده قسطنطين ، فقد أيد هـذه الحقيقة باوضح الاعلانات ، اذ كان حاضرا لمعونته فى بداية ملكه وفى اثنائه وفى ختامه ، وأقامه لكل الجنس البشرى مثلا حيـا للتقوى ٠ ولهذا فانه ، بالبركات المضاعفة التى أغدقها عليه ، ميزه هو وحده من بين كل الملوك الذين سمعنا عنهم ، بان جعله كوكبا منيرا ، ورسولا للتقوى الحقيقية مذيعا رسالته بكل وضوح ٠

الفصل الخامس

وملك أكثر من ثلاثين سنة وعاش أكثر من ستين سنة

أما عن مدة ملكه فقد أكرمه الله بثلاث حقبات كاملة مدة كل منها عشر سنوات ، وعلاوة على هذا أطال حياته الارضية فجعلها ضعف هذا العدد من السنين ٠ واذ سر بان يقيمه ممثلا لسـلطانه المطلق جعله ظافرا على كل جنس الطغاة ، وملاشيا لكل جبابرة الارض الذين تحدوا الله ، والذين فى جنونهم أشهروا أسلحتهم الدنسة فى وجه الله ملك الكل ٠ هؤلاء ظهروا لحظة ثم اختفوا ٠

أما الله الحقيقى ، الواحد الوحيد ، فانه اذ عضد عبده ، وألبسه أسلحة كاملة سماوية ، ليقف وحيدا أمام اعداء كثيرين ، وبواسطته أنقذ البشرية من أشرار كثيرين ، فقد أقامه معلما لكل الشعوب ليعلمهم عبادته ، ويشهد بصوت عال فى أسماع الجميع أنه يعترف بالله الحق ، وأنه رجع بمقت شديد عن ضلالة تلك التى ليست آلهة ٠

الفصل السادس

وكان خادم الله والظافر على الشعوب

وهكذا رأيناه كالعبد الصـــالح الامين ، يتصرف ويشهد معلنا جهارا ومعترفا بانه خادم مطيع للملك الاعلى ٠ وللحال كافأه الله بان جعله حاكما وسلطانا وظافرا لدرجة أنه هو وحده دون ســائر الملوك تم له النصر على طول الخط ، ولم يخضع لاى انسان ، ولم يغلب أمام أى شخص ٠ وأصبح بانتصاراته أعظم حاكم عرفه التاريخ من قبل ٠ هكذا كان عزيزا فى عينى الله ومباركا ، كان تقيا وموفقا فى كل ما امتدت اليه يده ، حتى انه بمنتهى السهولة قهر أمما أكثر من أى واحد سبقه ، ومع ذلك احتفظ بقوته دون أن يتطرق اليها الوهن الى آخر نسمة من حياته ٠

الفصل السابع

مقارنة مع كورش ملك الفرس والاسكندر المقدونى

يتحدث التاريخ القديم عن كورش ملك الفرس بانه كان أبرز الملوك الذين ظهروا الى عصره ٠ ومع ذلك اذا تأملنـــا فى نهاية أيامه وجـدناها لاتتناسب مع نجاحه السابق ، اذ أنه لقى حتفه بكيفية مشينة مخزية على يدى امرأة (١)

---

(١) يقول ديودورس ان ملكة السكيثيين أسرته وصـــلبته ٠ ويقول هيرودوت انه قتل فى الحرب ولكن الملكة توميرس *Tomyris* التى قتل ابنها أخذت رأسه وغمرتها فى الدماء ٠

واليونانيون يعظمون الاسكندر المقدونى على أســـاس أنه قهر ممالك متعددة • ومع ذلك فقد مات فى سن مبكرة قبل أن يصل الى سن النضوج ، متأثرا بنتائج السكر والعربدة • (١) ولم تتعد حياته اثنتين وثلاثين سنة ،ولم يمتد ملكه الا الى ثلث هذه الفترة • كان يتقدم كالصاعقة بلا رحمة وسط أنهار من الدماء ، وأخضع ممالك كاملة ومدنا برمتها ، شيبا وشبانا ، فى عبودية كاملة • ولكنه لم يكد يصل سن النضوج – وكان يندب سوء حظه لحرمانه من التلذذ بالشهوات الشبابية – حتى انقض عليه الموت بكيفية مروعة ، وقضى عليه فى أرض غريبة معادية ، وكان بلا عقب ولا خلف ولا وطن لكى لا يزعج البشرية مرة أخرى • أما مملكته فانها أيضـــا سرعان ما انحلت أوصالها ، واقتطع كل واحـــد من قواده لنفسه جـــزءا منها • ومع ذلك فلايزال هذا الرجل يمجد من أجل مثل هذه الاعمال •

الفصل الثامن

انتصاره على كل العالم تقريبا

على أن امبراطورنا بدأ ملكه فى السن التى مات فيها المقدونى ، ومع ذلك عاش ضعف عمره وملك ثلاثة أضعاف مدة ملكه • واذ أعطى جيشه التعـــليمات ليكونوا لطفاء ورحماء فى حدود التقوى ســـار بجنوده حتى البريطانيين والامم التى تسكن على حدود المحيط الغربى • وأخضع كذلك كل مملكة السكيثيين ، بالرغم من آنها فى أقصى الشمال ، وبالرغم من أنها كانت مقسمة الى قبـــائل متوحشة لاعدد لها • وامتدت فتوحاته حتى الى البليميين (٢) والاثيوبيين فى أقصى حـــدود الجنـــوب • ولم يخطر بباله أن امتلاك الممالك الشرقية أمر لا يستحق عنايته • وبالايجاز ان ضـــياء نوره المقدس ذاع الى أقصاء كل العالم ، حتى الى حدود الهند البعيدة ، والشعوب المقيمة فى أبعد أطراف الارض المسكونة ، وبالتالى خضـــع له كل الولاة والحكام ورؤساء الامم المتوحشة ، الذين رحبوا به باغتباط ، مرسلين اليه سفارات وهدايا ، ومعتبرين أن أقصى أمنية لهم هى التعرف به وصداقته ، لدرجة أنهم كرموه باقامة الصور والتماثيل له فى بلادهم • وهكذا أصبح قسطنطين وحده ، دون سائر الاباطرة ، معترفا به من الجميع ومكرما من الكل • وبالرغم من هذا فانه حتى وسط هذه الامم البعيدة كان ينـــادى باسم الهه فى أوامره الملكية بكل جرأة •

---

(١) يقول بعض المؤرخين انه كان مصابا بحمى الملاريا التي قضت عليه اذ كان يسكر فى احدى الولائم •

(٢) *Blemmyans*

الفصل التاسع

لقد كان ابن امبراطور تقى وترك السلطة لابنائه

ثم انه لم يقدم هذه الشهادة بمجرد كلمات تتناقض مع تصرفاته ، بل سلك كل طريق للفضيلة ، وكان غنيا فى ثمار التقوى المختلفة • فقد ضمن محبة أصدقائه بادلة رائعة من روح السخاء • ولأنه حكم بمبادىء الانسانية فقد جعل حكمه خفيفا ومقبولا من كل الطبقات فى رعاياه • وأخيرا ، بعد سنوات طويلة ، وبعد أن أضناه التعب المتواصل فى خدمة الله ، كلله الله ، الذى أكرمه هو فى حياته ، بجزاء خالد ، ونقله من ملكوت عابر الى الحياة الابدية التى حفظها لنفوس قديسيه ، وذلك بعد أن أقام له ثلاثة أبنـــاء ليخلفوه فى سلطانه • وكما وصل اليه العرش الامبراطورى من أبيه هكذا حفظ بحكم ناموس الطبيعة لابنائه ونسلهم ، وظل الحال على هذا المنوال الى أجيال لا نهاية لها كميراث أبوى • والواقع ان الله نفسه – الذى ميز هذا الوالى المبـــارك بامجاد الهية لما كان حاضرا معنـــا ، وكلل موته ببركات ممتازة أغدقها عليه – هو الذى سجل أعماله ، لانه سجل أتعابه وانتصاراته على نصب تذكارية سماوية (١)

الفصل العاشر

الحاجة الى هذا التاريخ وأهميته للبنيان

وبالرغم من الصعوبة التى أجدها فى التحدث بما يليق بهذه الشخصية المبـــاركة ، ومع أن السكوت هو الطريق الآمن الاقل خطرا ، فاننى أرى الضرورة موضوعة على – ان أردت تفادى تهمة الاهمال أو التوانى – أن أتتبع آثار هذا الوالى التقى ، وأرسم له صورة تحليلية تخليدا لذكراه • لاننى أخجل من نفسى ان لم استخدم أفضل جهودى – مهما كانت ضعيفة وقليلة الاهمية – لمدح ذاك الذى أكرم الله بمثل تلك العبادة المنقطعة النظير •

وأعتقد أيضا أن مؤلفى سيكون من نواح أخرى نافعا وضروريا ، لانه سوف يتضمن وصفا لتلك التصرفات الملكية النبيلة التى ترضى الله ملك الكل • أفلا يكون مخجلا أن تلقى ذكرى نيرون وغيره من الطغاة الفجـــار

(١) « على أعمدة السماء » حسب بعض الترجمات •

المتوغلين فى الشر ، عناية من الكتاب فيسجلوا أعمالهم التـافهة وينمقوها بلغة فصيحة ، ويدونوها فى مجلدات ضخمة ، بينما أبقى أنا صامتا ، أنا الذى من الله نفسه على بامبراطور لم يشهد له التـاريخ نظيرا ، وسمح لى بمعاشرته والتمتع بالتعرف اليه ومخالطته ؟

لهذا فان كان الواجب يقضى على أحد باذاعة فضائله لكل الذين تبعث فيهم القدوة الصالحة محبة لله فان هذا الواجب هو بلا شك واجبى أنا • لان البعض ممن كتبوا عن سير بعض الشـخصيات التافهة ، وتاريخ بعض التصرفات التى قلما تؤدى الى سمو الاخلاق ، مدفوعين بعوامل شخصية ، اما عن محبة أو عداوة ، وفى بعض الاحيـان مدفوعين بالرغبة فى اظهار علمهم ، فانهم بالغـوا فى وصف بعض التصرفات المنحطة فى حد ذاتها ، باسلوب عال منمق • وهكذا أصبحوا للذين قد حفظتهم النعمة الالهية من الشر معلمين لا للصلاح بل لما كان ينبغى أن يدفن فى زوايا النسـيان والظلام •

أما روايتى فانها مهما كانت لاتتناسب مع عظمة الاعمال التى سوف تصفها لكنها سـوف تستمد بهاء من مجرد اتصـالها بالاعمال النبيلة • ويقينا أن تسجيل الاعمال التى أرضت الله سـوف يقدم دروسـا نافعة للاشخاص الذين انطبعت عقولهم على الخير •

الفصل الحادى عشر

وهدفه هو أن يسجل فقط أعمال قسطنطين الصالحة

ولذلك سوف أتجاوز عن معظم الاعمال الملكية التى أتاها هذا الوالى المثلث الطوبى ، كالمعارك مثلا التى اشتبك فيها ، وشجاعته الشخصية ، وغلبته للعدو وتفوقه عليه ، والانتصـارات العديدة التى أحـرزها ، واهتمامه بمصالح الافراد ، واجراءاته التشريعية لتقدم رعاياه اجتماعيا ، والكثير جدا من الجهود الاخرى التى بذلها ، والتى لا زالت ماثلة فى أذهان الجميع • أما هدفى من هذا المؤلف فسيكون قاصرا على التحـدث عن تلك الظروف التى تتصل بصفاته الدينية •

ونظرا لان هذه وحدها متشعبة النـواحى جدا فسـوف أنتخب من الحقائق التى وصلت الى علمى ما كان أنسبها ، وما هو خليق بالتدوين ، محاولا أن أرويها على قدر ما يمكن من الايجاز • والواقع ان الفرصة الآن

سانحة جدا للاشادة بمدح هذا الوالى المبـــارك ، الامر الذى لم يكن فى مقدورنا قبل الان ، لانه محظور علينا أن نحكم على أى واحد بالصلاح قبل موته (١) نظرا لتقلبات الحياة التى لا يمكن أن تضمن • لهذا ألتمس المعونه الالهية ، وليكن ارشاد الكلمة الســماوى حليفا لى حينما أبدأ ســفرى التاريخى هذا ببداية حياته •

الفصل الثانى عشر

لقد تربى فى قصور الملوك كموسى

يروى التاريخ القديم أن جماعة من الطغاة القســاة اضــطهدوا أمة العبرانيين ، وأن الله الذى افتقدهم برحمته فى ضيقتهم دبر أن يتربى موسى النبى ــ وكان وقتئذ طفلا ــ فى نفس قصور مضطهديهم وفى أحضانهم ، ويتهذب بكل حكمتهم • وعندما صار فى دور الرجولة بمرور الزمن ، وحان الوقت للعدل الالهى بأن ينتقم بسبب المظالم التى حلت بشعبه المنكوب ، عندئذ هجر نبى الله البيت الملكى اطاعة لارادة الرب القدير ، وهجر بالقول والفعل الطغاة الذين ربوه ، معترفا جهارا باخوته وبنى جنسه • بعد ذلك رفعه الله اذ جعله قائدا للأمة باكملها ، وأنقذ العبرانيين من عبودية أعدائهم ، وعلى يديه أنزل الانتقام الالهى على الجنس الباغى •

هذه الرواية القــديمة ــ بالرغم من رفض الكثيرين اياها لادعائهم بانها خرافة وصلت أسماع الجميع • أما الآن فان نفس الاله سمح لنا بأن نشــهد عجائب أعجب من الخرافات ، ولانها ظهرت حديثا فان صدقها أكثر يقينية من أية رواية • لان طغاة عصرنا تجاسروا على اشــهار الحرب فى وجه الله العلى ، واضطهاد كنيسته بعنف •

فى وسط هــذه كان قسطنطين يقيم فى نفس بيت الطغاة (٢) ــ كما فعل موسى قديما ــ وكان مقــدرا له بعــد قليل أن يبيدهم ، ولكنه كان وقتئذ صــبيا يافعا ، يستقبل أيام الشباب الاولى • ومع صغر سنه لم

---

(١) لعله يشير الى حكمة يشوع بن سيراخ ١١ : ٢٨ « لا تمدح أحدا قبل وفاته لان الرجل يعرف بابنائه » • أو الى رأى « سولون » المعروف ،وهو لا يخرج عن هذا المعنى • والرأى الاول هو الارجح•

(٢) لقد نشأ مع دقلديانوس وغالريوس •

يشترك في حياة الاشرار ، لانه منذ ذلك العهد المبكر دفعته طبيعته النبيلة ـ تحت ارشاد روح الله ـ للميل آلى التقوى والحياة التى ترضى الله ٠

وعلاوة على هذا فقد تملكته الرغبة فى الاقتداء بابيه ، وهذا دفع الابن الى السلوك فى طريق الفضيلة ٠ كان أبوه هو قسطنطيوس (وخليق بنا احياء ذكراه الآن) أبرز امبراطور فى عصرنا ، الذى نراه من الضرورى أن نروى عنه بايجاز قليلا من التفاصيل ، الامر الذى يضفى شيئا من المجد على ابنه ٠

الفصل الثالث عشر

قسطنطيوس أبوه الذى أبى الاقتداء بدقلديانوس ومكسيميانوس ومكسنتيوس فى اضطهاد المسيحيين

عندما كان أربعة اباطرة (١) يشتركون معا فى وقت واحد فى ادارة شئون الامبراطورية الرومانية سلك قسطنطيوس وحده طريقا يخالف الطريق الذى سلكه زملاؤه ، وأصبح محبا لله العلى ٠

لانهم عندما حاصروا كنائس الله وأتلفوها وهدموها حتى الاساس ، وأزالوا حتى أساسات بيوت العبادة ، حفظ هو يديه طاهرتين دون أن تتلوثا بفجورهم البغيض ، ولم يقتد بهم فى أية ناحية من النواحى ٠ لقد دنسوا أقطارهم بذبح النساء والرجال الاتقياء بكيفية شنيعة ، أما هو فحفظ نفسه طاهرا من هذه الجريمة ٠ لقد تورطوا فى العبادة الوثنية الماجنة ، ودفعوا أنفسهم أولا ، ثم كل الذين تحت سلطانهم ، فى عبودية ضلالات الارواح الشريرة ، أما هو فانه فى نفس الوقت بعث السلام التام فى سائر أرجاء أقطاره ، وضمن لرعاياه امتياز عبادة الله من دون عائق ٠ وبالايجاز انه بينما اضطهد زملاؤه كل الناس بابشع أنواع الاضطهاد ، وجعلوا حياتهم لاتطاق بل أشنع من الموت ، فان قسطنطيوس وحده حكم شعبه بالرقة واللطف ، وأظهر من نحوهم عناية أبوية حقيقية ورعاية ممتازة ٠

---

(١) هم دقلديانوس ومكسيميانوس وغالريوس وقسطنطيوس ٠

والواقع ان فضائل هذا الرجل الاخرى أكثر من أن تعد ، وقد أصبحت موضع اعجاب الجميع وساكتفى بذكر مثل أو اثنين كعينة لتلك الفضائل التى يجب أن أتجاوز عنها ، وبعد ذلك أبدأ بكتابى المقصود بالذات ٠

الفصل الرابع عشر

كيف أن قسطنطيوس أباه ، اذ عيره دقلديانوس بالفقر ، ملأ خزائنه ، وبعد ذلك أعاد الاموال لمن قدموها

ونتيجة للاشاعات الكثيرة التى تواترت عن هذا الملك ، المتضمنة وصفا للطفه ورقته وسمو تقواه ، والتى ذكرت أيضا أنه بسبب مغالاته فى رعاية رعيته ، خلت خزانته من الاموال ، أرسل اليه الامبرطور ، الذى كان يحتل السلطة العليا وقتئذ ، يلومه بسبب اهماله للصالح العام ، وفى نفس الوقت يعيره بسبب فقره ، مقدما البرهان على هذه التهمة أن خزانته فارغة ٠ وللحال طلب من رسل الامبراطور الانتظار معه قليلا ، واستدعى أغنى رعاياه فى كل الامم الخاضعة له ، وأفهمهم بانه فى حاجة الى المال ، وأن هذه هى الفرصة لاظهار دليل اختيارى على محبتهم لملكهم ٠

وحالما سمعوا هذا ملأوا الخزانة بالذهب والفضة والثروات الاخرى بمنتهى الغيرة والسرعة ، كأنهم كانوا ينتظرون الفرصة لاظهار اخلاصهم وولائهم ، وحاول كل واحد التفوق على الآخرين فى قيمة ما يقدمه ٠ وقد فعلوا هذا بارتياح عظيم وسرور متزايد ٠

بعد ذلك طلب قسطنطيوس من رسل الامبراطور العظيم أن يتطلعوا بانفسهم الى خزائنه ، وأمرهم بان يقدموا بامانة تقريرا عما رأوه ٠ وأضاف الى ذلك بأن هذه الاموال التى وصلت الى يديه الان كانت محفوظة تحت تصرفه فى حراسة أصحابها بمنتهى الامان كأنها فى عهدة صيارفة أمناء ٠ كاد الرسل يصعقون من الدهشة بسبب مارأوا ٠ ويقال انه لدى ارتحالهم استدعى الملك الكريم أصحاب الثروة ، وبعد أن شكرهم كثيرا من أجل طاعتهم وولائهم ، أعادها كلها اليهم ، وأمرهم بالعودة الى أوطانهم ٠

اذن فهذا المثل الواحد يقدم لنا برهانا على كرم ذاك الذى نحاول اظهار صفاته ٠ وسوف نقدم مثلا آخر يحمل أوضح برهان على تقواه ٠

الفصل الخامس عشر

الاضطهاد الذى أثاره زملاؤه

بأمر من سلطات الامبراطورية العليا أثار ولاة الاقطار المختلفة اضطهادا عاما على الاتقياء • والواقع انه من القصور الامبراطورية نفسها برز أوائل الشهداء الاطهار الذين واجهوا تلك المعارك من أجل الايمان ، وتحملوا ، بكل ثبات ، النار والسيف وأعماق البحار وكل أنواع الموت ، حتى انه فى وقت وجيز خلت جميع القصور الملكية من الاتقياء • وكانت النتيجة أن مدبرى هذا الشر حرموا كلية من رعاية الله وحمايته ، لانهم باضطهادهم لعابديه أخمدوا فى نفس الوقت تلك الصلوات التى كانت ترفع عادة من أجلهم •

الفصل السادس عشر

كيف أن قسطنطيوس ، وهو يتظاهر بالعبادة الوثنية ، ابعد كل من ارتضى تقديم الذبائح ، لكنه أبقى فى قصره كل من ارتضوا الاعتراف بالمسيح

ومن الناحية الاخرى فكر قسطنطيوس فى حيلة تفيض حكمة ، وفعل أمرا يبدو متناقضا مع مبادئه ، ولكنه كان فى الواقع رائعا وعجيبا •

فانه قدم اقتراحا لكل موظفى البلاط ، حتى الذين فى أرفع المناصب ، طالبا منهم أن يختاروا أحد أمرين : اما أن يقدموا الذبائح للارواح النجسة ، وبذلك يسمح لهم بالبقاء معه والتمتع بامتيازاتهم العادية ، أو — فى حالة الرفض — لا تكون لهم صلة به أو شركة معه • وعندما اختار كل واحد ما أراده ، فاختار البعض هذه الطريق ، واختار الآخرون تلك ، وتأكد مما اختاره كل واحد ، عندئذ كشف هذا الملك العجيب السر الذى قصده من حيلته ، وأعلن سخطه على جبن أحد الفريقين وأنانيتهم ، وامتدح الفريق الآخر من أجل أمانتهم لله • وأعلن أيضا بان من خانوا آلهتهم غير جديرين بثقة ملكهم ، اذ كيف كان ممكنا أن يحتفظوا بامانتهم وولائهم لمن فضح عدم أمانتهم الملك أعظم ؟ ولهذا عزم على ابعاد مثل هؤلاء الاشخاص من البلاط الملكى • أما الذين شهدوا للحق ، وبرهنوا على أنهم خدام أمناء لله فلا شك فى أنهم

يظهرون نفس الامانة لملكهم ، ولهـــذا ائتمنهـم على حراســـة شـــخصه وامبراطوريته ، قائلا انه مضطر لمعاملة مثل هؤلاء الاشخاص باحترام خاص كأقرب أصدقائه وأكثرهم قدراً ، وتقدير قيمتهم أعظم من أثمن الكنوز ٠

الفصل السابع عشر

حياته المسيحية

وهكذا يمكن القول ان والد قسطنطين كانت له تلك الصفات الطيبة التى وصفناها بالايجاز ٠ أما نوع الموت الذى أكرم به نتيجة تقواه هذه لله ، وكيف أن ذاك الذى أكرمه ميز نصيبه عن سائر زملائه فى الامبراطورية ، فهذا ما يمكن أن يعرفه كل من وجه التفاته لظروف الموضوع ٠ لانه بعد أن قدم البراهين الكثيرة زمنا طويلاً على فضائله السامية ، وبالاعتراف بالله العلى وحده ، وشجب عبادة الاشرار الوثنية المتعددة ، وحصن أهل بيته بصلوات القديسين ، قضى بقية حيـــاته فى راحة عجيبة وهدوء ، متمتعا بالبركات الغنية ، دون أن يكدر خاطر الاخرين ، أو يزعجنا نحن أيضا ٠

ونتيجة لهذا كرس كل أهل بيته ، أبنـاءه وزوجته وخـدمه ، لله العلى الواحد ، وذلك طيلة أيام ملكه الهادىء الممتلىء سلاما ٠ وهكذا كانت الجماعة التى تضمها جدران قصره لاتختلف عن الكنيسة فى أية ناحية من النواحى ٠ وفيها كان يوجد أيضا خدام الله يرفعون التضرعات بصفة مستمرة من أجل ملكهم ٠ كل هذا كان يحدث فى الوقت الذى كان الباقون لا يسمحون قط بالتعامل مع عبدة الله ، حتى ولا تبادل كلمة واحدة معهم ٠

الفصل الثامن عشر

بعد تنازل دقلديانوس ومكسيميانوس عن العرش أصبح قسطنطيوس أوغسطسا رئيسيا وباركه الله بذرية كثيرة

أما النتيجة المباشرة لهذا السلوك فكانت أنه نال مكافأة من يد الله حتى أصبح المتصرف الاعلى فى الامبراطورية ٠ لان الاباطرة المتقدمين فى الأيام أكثر منه تنازلوا عن الملك لسبب مجهول ٠ وقد حدث هذا التغيير بعـــد انقضاء سنة على اضطهادهم الكنائس (١) ٠

(١) حدث الاضطهاد سنة ٣٠٣ أو ٣٠٤ وحدث التنازل سنة ٣٠٥ ٠

من ذلك الوقت كان قسطنطيوس وحـدم هو المعتبر الاوغسطس الرئيسى ، اذ كان فيما سبق يتميز بتاج القياصرة الذين كان يحتل بينهم المكانة الاولى • ولكن بعـد أن تبينت قيمته وكفاءته منح أعظم اكرام فى الامبراطورية الرومانية ، اذ دعى أوغسطس الرئيسى بين الاربعة الذين اختيروا فيما بعد لهذا المنصب الرفيع •

وفوق ذلك فانه تفوق على معظم الاباطرة من جهة عدد أفراد عائلته ، اذ جمع حوله عددا وفيرا جدا من الابناء ، ذكوراً واناثا • وأخيرا ، عندما وصل الى شيخوخة سعيدة ، وأصبح على وشك أن يوفى دين الطبيعة العام ، ويستبدل بهذه الحياة أخرى ، أظهر الله مرة أخرى قدرته من نحوه بصـفة ممتازة ، اذ دبر أن يحضر ابنه الاكبر قسطنطين لحظاته الاخيرة ، ويتسلم السلطان الامبراطورى من يديه •

الفصل التاسع عشر

ابنه قسطنطين الذى ، فى أيام شبابه ، رافق دقلديانوس الى فلسطين

وكان هذا الاخير (١) مرافقا لزميلى أبيه (٢) ، يقضى حيـاته معهما ، كما قلنا ، كنبى الله القديم • وهذان حلما – حتى فى أيام شبابه الاولى – بانه مستحق كل اكرام • وقد رأينا نحن أنفسنا برهانا على هذا ، عندما كان يجتاز فلسطين مع الامبراطور المتقـدم (٣) ، الذى كان قسطنطين يجلس عن يمينه ، وينال اعجاب كل من يراه بسبب دلائل العظمة الملكية التى كان يظهرها حتى فى ذلك الوقت • لانه لم يصل أحد الى الدرجة التى وصل اليها هو فى سماحة الخلق وجمال الشخصية وطول القـامة • وقد تفوق جدا على أقرانه فى قوته الشخصية حتى انهم كانوا يرتعبون منه • وبرز حتى فى مواهبه العقلية أكثر من تفوقه فى قوته البـدنية ، اذ كان موهوبا بنعمة الحكم السليم ، حاصدا ثمار التعليم الواسع المدى • وتميز أيضا ، بدرجة فوق العادة ، فى الذكاء الطبيعى والحكمة الالهية •

(١) أى قسطنطين
(٢) دقلديانوس وغالريوس
(٣) أو الاكبر مركزا ، يعنى دقلديانوس ، وكان فى طريقه الى مصر فى حملته المشهورة على اكيلا سنة ٢٩٦ – ٢٩٧

الفصل العشرون

هرب قسطنطين الى أبيه بسبب المؤامرات التى دبرها له دقلديانوس

أما أباطرة ذلك الزمن فاذ لاحظوا رجولته ، وشخصيته القوية ، وعقله الجبار ، تحركوا بعواطف الحسد والخوف ، وبدأوا يتحينون الفرصة لاتهامه بتهمة أخلاقية شنيعة . ولكن الشاب أدرك قصدهم ، وعرف بارشاد آلهى تفاصيل مؤامراتهم أكثر من مرة ، ففكر فى الهرب لينجو بنفسه ، وفى هذه الناحية أيضا كان شبيها بالنبى العظيم موسى . والواقع ان الله كان معينا له فى كل ناحية . وقد سبق فدبر بان يكون حاضرا (وقت احتضار أبيه) ليخلف أباه .

الفصل الحادى والعشرون

موت قسطنطيوس الذى ترك ابنه قسطنطين امبراطورا

وحالما نجا من المؤامرات التى دبرت له بغدر اتجه نحو أبيه باقصى سرعة ، وأخيرا وصل فى نفس اللحظة التى كان فيها مشرفا على الموت . وحالما رأى قسطنطيوس ابنه ماثلا أمامه على غير انتظار قفز من مقعده وعانقه بحرارة ، وأعلن بان الهم الوحيد الذى أزعجه وهو على فراش الموت ـ أى المتسبب من غياب ابنه عنه ـ قد زال وقتئذ ، فقدم الشكر لله قائلا انه يفضل الموت الان عن أطول حياة ، وللحال أكمل ترتيب شئونه الخاصة . بعد ذلك ودع أبناءه وبناته المحيطين به فى قصره ، ثم تنازل عن الملك لابنه الاكبر ـ حسب ناموس الطبيعة ـ ولفظ النفس الأخير .

الفصل الثانى والعشرون

كيف نادى الجيش بقسطنطين أوغسطسا بعد دفن قسطنطيوس

ولم يبق العرش الامبراطورى شاغرا طويلا ، لان قسطنطين ارتدى حلة أبيه الارجوانية ، وبرز من قصر أبيه معلنا أنه قد جدد فى شخصه حياة أبيه وملكه . ثم تقدم الجنازة برفقة أصدقاء أبيه ، وكان البعض يتقدم

الموكب والاخرون فى مؤخرته ، وهكذا تمموا الاحتفالات الاخيرة من أجل الراحل التقى بكل مظاهر العظمة والفخامة ، واتحد الجميع فى اكرام هذا الوالى المثلث الطوبى بالهتاف والتسبيح · واذ مجدوا ـ بنفس واحدة وصوت واحد ـ حكم الابن كاتصال لحياة الراحل أسرعوا فى الحال للترحيب بالملك الجديد بهتاف الفرح والتهليل معطين اياه لقب أوغسطس الامبراطورى المعبود · وهكذا تمجدت ذكرى الامبراطور الراحل بسبب الهتافات التى وجهت لابنه ، كما تمجد الابن على أساس أنه خليفة أب كهذا · وعم الفرح الذى لا يعبر عنه كل الامم الخاضعة لسلطانه لعدم حرمانهم لحظة واحدة من بركات حكومة منظمة أحسن تنظيم ·

وفى حالة الامبراطور قسطنطيوس أعلن الله لجيلنا كيف تكون نهاية من أكرموه وأحبوه فى حياتهم ·

الفصل الثالث والعشرون

فذلكة وجيزة عن هلاك الطغاة

أما عن الحكام الآخرين الذين شنوا الحرب على كنائس الله فلم أره مناسبا فى مؤلفى هذا أن أقدم أى وصف لسقوطهم ، أو أدنس ذهن الاتقياء بالتحدث عن سيرتهم فى عرض الكلام عمن يخالفونهم فى صفاتهم · أما معرفة الحقائق نفسها فانها تكفى أن تكون تحذيرا نافعا لمن رأوا أو سمعوا بما حل من شرور بهم واحدا فواحدا ·

الفصل الرابع والعشرون

لقد كانت ارادة الله أن يعتلى قسطنطين عرش الامبراطورية

وهكذا رأينا أن اله الكل ، المتسلط الاعلى على كل المسكونة ، أقام بارادته قسطنطين ، سلالة هذا الوالد العظيم ، لكى يكون حاكما ومتسلطا ، حتى انه بينما ارتقى الآخرون هذا المنصب الرفيع باختيار زملائهم البشر ، كان هو الوحيد الذى لم يستطع أى بشر الافتخار بانه كانت له يد فى تنصيبه ·

الفصل الخامس والعشرون

انتصارات قسطنطين على البرابرة والبريطانيين

وحالما استقر على العرش بدأ يعنى بمصالح الميراث الذى ورثه عن أبيه ، وافتقد بمنتهى اللطف والرقة كل الاقطار التى كانت تحت سلطان أبيه • واذ تجاسرت بعض القبائل البربرية ـ المقيمة على شاطىء نهر الرين وعلى ساحل المحيط الغربى ـ على الثورة ، أخضعها كلها ونقلها من حالة البربرية الى حالة الرقة واللطف • واكتفى بصد غارات الآخرين ، وأبعد عن ملكه كل من رآهم غير جديرين بالحياة المنظمة كأنهم كانوا وحوشا مفترسة غير أليفة •

وبعد أن تصرف فى هذه الامور بما يرتاح اليه ضميره ، وجه عنايته الى نواح أخرى فى العالم ، واجتاز أولا الى الشعوب البريطانية القائمة فى حضن المحيط • هؤلاء أخضعهم ، وبعد ذلك بدأ يفكر فى حالة أجزاء الامبراطورية الاخرى ، لكى يتمكن من تقديم مساعدته الى الارجاء التى تتطلبها •

الفصل السادس والعشرون

كيف اعتزم انقاذ روما من مكسنتيوس

واذ اعتبر العالم كله جسما واحدا متسع الارجاء ، وأدرك أن رأسه ـ أى مدينة روما الملكية عاصمة الامبراطورية الرومانية ـ انحنت تحت ثقل اضطهاد عنيف ، فانه فى بداية الامر ترك مهمة تحريرها لمن حكموا القسم الاخر من الامبراطورية ، باعتبار أنهم أكبر منه سنا • ولكن لما برهنوا كلهم على عجزهم فى هذه المهمة ، ولما رأى أن الذين حاولوا هذه المحاولة (١) باءوا بالفشل الذريع ، قال ان الحياة عديمة البهجة من ناحيته طالما كان يرى المدينة العظيمة منكوبة بهذه الكيفية • فاعد عدته لتحطيم الظالم الغاشم •

---

(١) يقصد الحملة غير الموفقة التى قام بها ساويرس وغالريوس •

الفصل السابع والعشرون

وبعد أن تأمل فى سقوط عابدى الاصنام

اختار المسيحية ديانة له

ولما اقتنع بحاجته الى مساعدة أخرى ، أقوى مما تستطيع أن تقدمه اليه قواته الحربية ، بسبب حركات السحر والشعوذة الشريرة التى كان يستخدمها الظالم (١) ، طلب المعونة الالهية ، معتبرا أن وفرة الاسلحة والجنود أمر ثانوى ، ومعتقدا أن القوة الالهية لن تقهر ولن تتزعزع • لهذا فكر فى اختيار الاله الذى يلجأ اليه لطلب الحماية والمعونة •

وبينما كان منشغلا فى هذا التفكير خطرت بباله فكرة هى ان كل الاباطرة الذين سبقوه ، والذين ركزوا ثقتهم فى آلهة كثيرة ، وخدموها بالذبائح والتقدمات ، خدعوا بالتنبوءات المضللة والاقوال التى وعدتهم كل تقدم ونجاح ، وأخيرا انتهت حياتهم نهاية غير سعيدة ، بينما لم يقف بجانبهم أى واحد من آلهتهم لتحذيرهم من غضب السماء المحدق بهم •

أما الامبراطور الوحيد الذى سلك طريقا يختلف عن طريقهم كل الاختلاف ، وشجب ضلالتهم ، وأكرم الاله العلى الواحد طيلة أيام حياته ، فقد وجده مخلصا وحاميا لامبراطوريته ومانحا كل خير • ولما تأمل فى هذا ، ووزن هذه الحقيقة وهى ان الذين اتكلوا على الهة كثيرة ماتوا أيضا ميتات مختلفة ، دون أن يتركوا وراءهم ذرية أو عائلات ، أو أصلا ، أو اسما ، أو ذكريات بين البشر ، بينما أعطاه اله أبيه اعلانات وفيرة وعلامات عديدة عن قدرته ، واذ رأى أكثر من هذا أن الامبراطورين اللذين حاربا الظالم متقدمين الى ساحة القتال تحت حمى آلهة كثيرة قد لقيا نهاية مخزية ، فاحدهما (٢) انسحب من معمعة القتال بخزى مرير دون أن يضرب ضربة واحدة ، أما الآخر (٣) فاذ قتل فى وسط جنوده أحدق به الموت سريعا ، أقول انه اذ تأمل فى كل هذه الاعتبارات وجد أنه من الحماقة أن يزج بنفسه فى عبادة هذه التى ليست آلهة ، وأن ينحرف عن الحق بعد هذه الادلة المقنعة • ولذلك أحس أنه من الضرورى أن يكرم اله أبيه وحده •

---

(١) انظر ف ٣٦و٣٧

(٢) غالريوس •

(٣) ساويرس •

الفصل الثامن والعشرون

كيف أرسل له الله ـ وهو يصلى ـ
رؤية صليب من نور فى السماء فى منتصف النهار
وكتبت تحته عبارة تنصحه بانه بهذا يغلب

وبناء على هذا لجأ اليه بصلوات وتضرعات حارة لكى يعلن له عن شخصه ، ويمد يمينه لمعونته فى مشاكله الراهنة • وبينما هو يصلى بلجاجة وحرارة ظهرت له علامة عجيبة فى السماء يصعب جدا تصديقها لو أن شخصا آخر رواها • ولكن طالما كان الامبراطور الظافر نفسه هو الذى رواها لكاتب هذا السفر بعدها بمدة طويلة ، لما تشرف بمعرفته ومعاشرته ، وأكد روايته بقسم ، فمن ذا الذى يتردد فى تصديق الخبر سيما وقد أيدت الحوادث التالية صدقها ؟ قال انه حوالى الظهر رأى بعينيه صليبا من نور فى السماء ، فوق الشمس ، يحمل هذه الكتابة « **اغلب بهذا** » • أمام هذه الرؤيا ذهل هو نفسه ، وكذا كل جيشه الذى رافقه فى هذه الحملة ، وشهد هذه المعجزة •

الفصل التاسع والعشرون

كيف ظهر له فى نومه مسيح الله ، وأمره بان يستعمل فى حروبه علما مصنوعا على شكل صليب

وعلاوة على هذا قال انه خامرته الشكوك فى داخله فى معنى هذه الرؤيا • وبينما هو يتأمل ويفكر فى فحواها أقبل الليل فجأة ، ثم ظهر له فى نومه مسيح الله بنفس العلامة التى رآها فى السماء ، وأمره بان يصنع مثالا لهذه العلامة التى رآها فى السماء ، وأن يستعملها كوقاية له فى كل حروبه مع أعدائه •

الفصل الثلاثون

صنع راية الصليب

وفى الفجر استيقظ ، وأنبأ أصدقاءه بالامر العجيب الذى رآه ، ثم استدعى الصناع الذين يعملون فى الذهب والاحجار النفيسة ، وجلس فى وسطهم ، ووصف لهم هيئة العلامة التى رآها ، وأمرهم بان يصنعوها من ذهب وحجارة كريمة • وقد أتيحت لى الفرصة أنا شخصيا أن أرى هذه العلامة بعد صنعها •

الفصل الحادى والثلاثون

وصف لراية الصليب التى يدعوها الرومانيون الآن لابارم (١)

وقد صنعت بهذه الكيفية التالية : عمل الصليب من حربة طويلة مغشاة بالذهب يستعرضها قضيب • وفى قمة الكل ثبت اكليل من ذهب وحجارة كريمة • وفى وسط هذا ثبت رمز لاسم المخلص ، حرفان يعبران عن اسم المسيح بحروفه الاولى ، فالحرف P يستعرضه الحرف × فى وسطه (٢) • وفيما بعد كان الامبراطور يضع هذين الحرفين على قبعته •

تدلى من عصا حربة الصليب قماش ملكى مطرز تطريزا جميلا جدا بحجارة كريمة ، ومغشى أيضـا بالذهب ، حتى كان يبدو للنـــاظر آية فى الروعة والجمال •

كانت هذه الراية مربعة الشكل • أما العصا ، التى كان جزؤها السفلى طويلا جداً ، فقد ثبتت على جزئها العلوى صورة نصـــفية للامبراطور التقى وأولاده ، مصنوعة من الذهب ، نحت علامة الصليب ، وفوق الراية المطرزة مباشرة •

كان الامبراطور يستخدم دواما علامة الخلاص هذه كوقاية من كل القوات المعادية والمقاومة ، وأمر بان تعمل أخرى مثيلات لها لتوضع على رؤوس كل جيشه •

الفصل الثانى والثلاثون

كيف تلقى قسطنطين التعليم المسيحى وقرأ الاسفار المقدسة

هذا ما تم بعد ذلك بوقت وجيز • أما فى الوقت المشار اليه آنفا فانه اذ ذهل من الرؤيا العجيبة التى ظهرت له ، وعزم على أن لا يعبد الها آخر سوى ذلك الذى ظهر له ، استدعى بعضا من الخبيرين باسرار تعاليمه ، وسألهم عمن يكون هذا الاله ، وما هو المقصود بعلامة الرؤيا التى رآها •

---

(١) *Labarum* ومعناها كما ورد فى القاموس العصرى : لواء قسطنطين الكبير بعد تنصره •

(٢) بهذه الكيفية ☧ • وقد ظهر هـــذا الرمز فى بعض الآثار القديمة باشكال أخرى ☧ ☧ ☧

فاكدوا له بانه هو الله ، الابن الوحيد للاله الواحد الوحيد ، وأن العلامة التى رآها هى رمز الخلود ، وعلامة النصرة على الموت التى أحرزها فى الماضى لما كان على الارض • ثم علموه أيضا أسباب مجيئه ، وفسروا له السر الحقيقى لتجسده • وهكذا تلقى التعاليم اللازمة عن هذه الامور ، وتأثر جدا من الظهور الالهى الذى رآه بعينيه •

واذ قارن الرؤيا السماوية بالتفسير الذى أعطى له تثبت اعتقاده ولما اقتنع بان معرفة هذه الامور قد أعطيت له بتعليم الهى عزم من ذلك الوقت على تكريس نفسه لقراءة أقوال الوحى الالهى •

وعلاوة على ذلك جعل كهنة الله مستشارين له ، ورأى أنه من الضرورى أن يكرم الله ـ الذى ظهر له ـ بكل وقار • وبعد هذا ، اذ تحصن بالرجاء الاكيد فيه ، أسرع فى اطفاء نار الاضطهاد •

الفصل الثالث والثلاثون

تصرفات مكسنتيوس الماجنة فى روما

وذاك الذى استولى على المدينة الملكية بالاغتصاب بدأ يتصرف تصرفات ماجنة شريرة ، حتى انه تجاسر ـ دون أقل تردد ـ على ارتكاب كل انواع الرذيلة والنجاسة •

فمثلا كان يفصل النساء عن أزواجهن ثم يعيدهن اليهم بعد وقت ما • وهذه المخازى لم يرتكبها مع أناس وضيعين أو حقيرين ، بل مع من كانوا يحتلون المراكز الاولى فى مجلس الاعيان الرومانى • ومع أنه أفسد ـ بلا خجل أو حياء ـ عددا لا يحصى من النساء الشريفات فانه لم يتمكن من اشباع شهواته الجامحة العاهرة • لانه لما شرع فى افساد النساء المسيحيات أيضا لم تلق تدابيره أى نجاح ، اذ أنهن فضلن تسليم حياتهن للموت عن تسليم أشخاصهن اليه لافسادهن •

الفصل الرابع والثلاثون (١)

كيف انتحرت زوجة أحد الولاة من أجل العفة

واذ علمت زوجة أحد أعضاء مجلس الاعيان ـ وكان أيضا واليا ـ أن

(١) يكاد يكون هذا الفصل قد تكرر حرفيا فى « تاريخ الكنيسة » لنس المؤلف (٨ : ١٤)

الذين يستخدمهم الطاغية فى مثل هذه القبـائح واقفون ببابها ، وكانت مسيحية ، وفهمت أن زوجها بسبب الخوف أمرهم باخذها ، طلبت مهلة قصيرة حتى تهندم نفسها بملابسها العادية ، ثم دخلت غرفتها • واذ كانت وحدها هناك طعنت صدرها بسيف ، فماتت فى الحال تاركة جثتها لتلك الجماعة ، ومعلنة بالاحرى لكل البشرية فى الاجيال الحاضرة واللاحقة ـ بتصرف ينطق أقوى من الكلمات ـ أن العفة التى اشتهر بها المسـيحيون هى الامر الوحيد الذى لا يمكن أن يقهر أو يباد • هذا هو التصرف الذى آتخذته هذه المرأة •

الفصل الخامس والثلاثون

كيف ذبح مكسنتيوس الكثيرين من أهل روما

لذلك فزع كل الناس ، عامة الشعب والقادة ، رفيعين ووضيعين ، من ذلك الذى تمادى فى الشر كما وصفت ، وكابدوا الآلام المريرة بسبب بطشه وطغيانه • وبالرغم من خضوعهم بهدوء وتحملهم مرارة العبودية هذه فانه لم يكن هنالك أى أمل فى النجاة من قسوة هذا الظالم المروعة • لانه فى احدى المرات أمر حرسه بقتل الاهالى لاتفه الاسباب • وقد قتل عدد لا يحصى من أهل روما فى وسط المدينة ذاتها بالرماح والحراب ، لا بايدى السكيثيين أو البرابرة ، بل بايدى مواطنيهم • وعلاوة على هذا فانه من المستحيل احصاء الاعيان الذين سفكت دماؤهم رغبة فى الاستيلاء على ممتلكاتهم ، لانه كان يحكم بالموت على جماهير غفيرة منهم فى أوقات مختلفة وبسبب تهم كاذبة مختلقة

الفصل السادس والثلاثون

الاعمـال السحرية التى فعلها مكسنتيوس ضد قسطنطين ، والمجاعة التى حلت بروما

أما أشر ما وصل اليه هذا الطاغية فهو التجاؤه الى السحر والشعوذة • فى بعض الاحيان كان يشق بطون الحوامل اتماما لاعماله السـحرية ، وفى أحيان أخرى كان يشق بطون الاطفال حديثى الولادة ويفتش فى أحشائهم • كان يقتل السباع أيضا ، ويرتكب أعمالا مروعة لاستدعاء الشـياطين ، أو تجنب الحرب المقبلة ، ظانا أنه بهذه الوسائل يتم له النصر •

وبالاجمال انه من المستحيل وصف أعمال البطش العديدة التى بها استعبد طاغية روما هذا رعيته • حتى انهم فى ذلك الوقت وصلوا الى أقصى درجات الفقر ، وأعوزهم القوت الضرورى ، الامر الذى لا يتذكر معاصرونا أنهم شهدوه قط من قبل فى روما

الفصل السابع والثلاثون

هزيمة جيوش مكسنتيوس فى ايطاليا

واذ امتلأ قلب قسطنطين عطفا بسبب كل هذه النكبات بدأ يهيىء كل المعدات الحربية للهجوم على هذا الظالم • واذ اتخذ الله العلى نصيرا له ، وطلب من المسيح أن يكون له حافظا ومعينا ، ووضع راية النصر ، العلامة المحببة ، أمام جنوده وحرسه ، زحف بكل قواته محاولا أن يسترد للرومانيين تلك الحرية التى ورثوها عن أجدادهم •

ولان مكسنتيوس اتكل على أعماله السحرية أكثر من اتكاله على محبة رعاياه لم يجسر حتى على الخروج من أبواب المدينة (١) ، بل أقام جنودا كثيرين لحراسة كل مكان ومنطقة ومدينة خاضعة لظلمه ، أما الامبراطور الواثق فى معونة الله فانه تقدم مخترقا صفوف الطاغية الاولى والثانية والثالثة ، وهزمهم جميعا بسهولة لدى أول ضربة ، ودخل قلب ايطاليا •

الفصل الثامن والثلاثون

موت مكسنتيوس عند جسر التيبر

ولما اقترب من مدينة روما نفسها جذب الله الطاغية ـ كما بحبال خفية ـ خارج أبوابها بمسافة طويلة ، وذلك لكى يوفر عليه مشقة الحرب مع كل الجنود الرومانية • وتلك المعجزات المدونة فى الاسفار المقدسة التى صنعها الله فى القديم ضد الاشرار (التى يتوهم الكثيرون أنها خرافات ، ولكن المؤمنين يصدقونها) قد أيدها للجميع على السواء ، للمؤمنين وغير المؤمنين ، الذين شهدوا هذه الامور العجيبة الراهنة • لانه كما حدث أيام موسى وأمة العبرانيين الذين عبدوا الله « مركبات فرعون وجيشه القاهما فى البحر •

(١) لان المنجمين قالوا له أنه ان خرج من أبواب المدينة هلك •

فغرق أفضل جنوده المركبية فى بحر سوف » (١) ، هكذا حدث وقتئذ أن مكسنتيوس وجنوده وحرسه « هبطوا فى الأعماق كحجر » (٢) ، عندما هرب أمام قوات قسطنطين التى أعانها الله ، وحاول عبـــور النهر الذى يعترض الطريق ، والذى أقام فوقه جسرا قويا من السفن ، ونصب عليه آلة للهلاك ، كان يؤمل أن يقيم منه فخا لمن أحبه الله ، ولكنها فى الواقع كانت لهلاك نفسه • لان الهه وقف بجانبه ليحميه ، بينما برهن الآخر الشرير على أنه انما دبر هذه التدابير الخفية لهلاك نفسه •

وهكذا يستطيع المرء أن يقول « عمل جبا ، حفره ، فسقط فى الهوة التى صنع ، يرجع شره على رأسه • وعلى هامته يهبط ظلمه » (٣) • ذلك لان العناية الالهية دبرت فى الحادث الذى نحن بصدده أن الآلة التى أقامها فوق الجسر ، والكمين الذى خبأه فيها ، هبطا فجأة قبل الوقت المحدد ، وبدأ الجسر يهوى ، والسفن تغرق فى الاعماق بمن فيها من رجال • وأول الكل غرق التعس نفسه ، ثم خدمه وحرسه المسلحون ، وكما قالت الاقوال المقدسة « غاصوا كالرصاص فى المياه الغامرة » (٤) وبذلك استطاع من نالوا النصرة من قبل الله أن يرنموا ، أن لم يكن بنفس الكلمات فبنفس الروح التى بها رنم شعب عبده العظيم موسى ، وقالوا عن الطاغية الشرير فى القديم « فلنرنم للرب لانه قد تعظم جدا • الفرس وراكبه طرحهما فى البحر • قد صـــار معينى وحصنى للخلاص • » وأيضا « من مثلك بين الالهة يارب • من مثلك معتزا فى القداسة • عجيبا فى التسابيح • صانعا عجائب » (٥)

الفصل التاسع والثلاثون

دخول قسطنطين روما

واذ رنم قسطنطين هذه التسابيح وأمثالها وقتئذ لله ضابط الكل وصانع النصرة ، على مثال عبده العظيم موسى ، دخل المدينة الملكية ظافرا • وهنا استقبله بالتهليل والفرح كل مجلس الاعيان مع جميع ذوى المناصب الرفيعة والمقامات العالية فى المدينة ، وعامة الشعب ، كأنهم قد أطلق سراحهم من السجن ، وكانت وجوههم تعبـــر عن فرح قلوبهم • ورحب به الرجـــال والنساء والاطفال وجماهير الخدم الذين لا يحصى لهم عدد ، وحيوه بهتافات

(١) خر ١٥ : ٤
(٢) خر ١٥ : ٥
(٣) مز ٧ : ١٥و١٦
(٤) خر ١٥ : ١٠
(٥) خر ١٥ : ١و٢و١١ حسب الترجمة السبعينية •

لا تنقطع كمنقذهم ومحررهم والمحسن اليهم • أما هو فانه لم ينتفخ بهذه الهتافات ، ولاتكبر بسبب تلك التسابيح ، ذلك لان قلبه كان قد امتلأ بتقوى الله • لكنه قدم الشكر فى الحال لله صانع النصرة ، لاعتقـــاده بانه انما نال المعونة من الله •

الفصل الاربعون

تمثال قسطنطين ممسكا صليبا والكتابة التى نقشت عليه

وعلاوة على ذلك فانه عرف كل الناس بالعلامة المبـــاركة باذاعة قوية وكتابة خالدة ، اذ أقام علامة النصر على أعدائه هذه وسط المدينة الملكية ، ونقش تحتها كتابة بحروف لا تمحى تتضمن أن هذه العلامة المباركة هى الحامية للحكومة الرومانية ولكل الامبراطورية • بناء على ذلك أمر فى الحال باقامة حربة عالية على شكل صليب تحت يد تمثال يمثل شخصه فى أبرز مكان فى روما ، على أن تنقش عليه هذه العبارة باللغة اللاتينية : « **بفضل هذه العلامة المبـــاركة ، التى هى محك القـوة الحقيقى ، أنقــذت وحررت مدينتكم من نير البطش • وحررت كذلك مجلس الاعيان الرومانى والشعب الرومانى ، وأعدتهم الى مجدهم السابق ورفعتهم السالفة** »

الفصل الحادى والاربعون

الفرح الذى عم كل الاقطار وأعمال قسطنطين الرحيمة

وهكذا اذ افتخر الامبراطور التقى بالاعتراف بالصليب الظافر أعلن ابن الله للرومانيين بجسارة الشـــهادة • وأحس سكان المدينة باجمعهم الاعيان وعامة الشعب ، بانهم قد تنفسوا الصعداء من ضغط الظلم المرير وسيادته القاسية ، وأنهم قد أصبحوا يستمتعون باشعة النـــور النقية ، كأنهم قد ولدوا ثانية فى حياة جديدة • وأدركت كذلك كل الشعوب ، الى حدود المحيط الغـــربى ، أنهم قد نجوا من النكبات المحدقة بهم الى ذلك الوقت ، فاقاموا الافراح والحفلات والولائم ، ولم يكفوا عن مدحه والاشادة باسمه كظافر وتقى ومحسن للجميع • وأعلن الجميع بصوت واحد وفم واحد أن قسطنطين قد ظهر بنعمة الله كبركة عـــامة للبشرية • وأذيع أيضـــا المرسوم الملكى فى كل مكان قاضـــيا بان كل الذين سبق أن حرموا من

أملاكهم ظلما يجب أن تعاد اليهم ، وأن كل الذين أبعدوا ظلما وعدوانا عن أوطانهم يجب أن يعادوا اليها • وفضلا عن ذلك فقد أخرج من السجون وحرر من كل أنواع المخاطر والمخاوف كل الذين قاسوا هذه النكبات بسبب قسوة الطاغية •

الفصل الثاني والاربعون

تكريم الاساقفة وبناء الكنائس

كذلك استدعى الامبراطور اليه جماعة خدام الله ، وأظهر لهم أعظم مظاهر الاحترام والاكرام ، وعطف عليهم بالقول والفعل كأشخاص كرسوا لخدمة الهه • وبناء على هذا سمح لهم بالجلوس على مائدته بالرغم من حقارة ملبسهم ووضاعة مظهرهم • ولكنهم لم يكونوا كذلك فى عينيه ، لانه لم ينظر الى الواحد منهم بالعين المجردة ، بل كان يرى الله فى شخصه • وجعلهم كذلك رفقاءه في السفر ، معتقدا أن ذاك الذى يخدمونه لابد أن يساعده •

وعلاوة على ذلك فقد دفع من موارده الخاصة هبات كثيرة لكنائس الله ، لتوسيع هذه المبانى المقدسة وتعليتها ، وزخرفة هياكل الكنائس بتقدمات سخية •

الفصل الثالث والاربعون

سخاء قسطنطين على الفقراء

كذلك وزع أموالا وفيرة على المعوزين • وعلاوة على هذا أظهر نفسه بانه محب للبشرية ومحسن حتى الى الوثنيين الذين لم يكن ملتزما نحوهم باى التزام • بل ان الشحاذين أنفسهم ، الذين كانوا فى الساحة العظيمة فى روما ، البؤساء المعدمين ، لم يقدم لهم فقط الاموال والطعام الضرورى بل قدم لهم أيضا ملابس جميلة • أما من كانوا قبلا فى سعة ، ولكن تنكرت لهم الايام ، فقد سخا عليهم سخاء أوفر •

على مثل هؤلاء أغدق احسانات جزيلة مظهرا روحا ملكية ، فمنح الاراضى للبعض ، وأكرم الآخرين برتب متعددة • وعنى بايتام البؤساء كأب ، وساعد الارامل فى ضيقاتهن ، وأظهر نحوهن عطفا خاصا • بل انه

زوج العـــذارى ، المتروكات بلا حماية بعد موت آبائهن ، برجـال أثرياء يعرفهم شخصيا • وكان لا يفعل هذا الا بعد أن يمنح العروس نصـــيبا يؤهلها للزواج •

وبالايجاز نقول انه كما أن الشمس لما تشرق على الارض تسطع أشعتها على الجميع بسخاء ، هكذا كان قسطنطين عندما يخرج من قصره الملكى باكرا جدا فى الفجر ، ويشرق بنور سماوى ، كان يسطع باشعة احسانه على كل من تقدم اليه • كان يندر أن يتقدم اليه شخص دون أن ينال بعض الخير • ولم يحـدث قط أن خاب رجاء أى واحد ممن كانوا يتوقعون أن ينـــالوا عطفه ومساعدته •

الفصل الرابع والاربعون

كيف كان يجلس فى مجامع الاساقفة

هكذا كانت صفاته العامة نحو الجميع • ولكنه أظهر عناية خاصـــة نحـــو كنيسة الله ، وحيثما وجد فى الاقطار المختلفة من اختلفوا مع بعضهم البعض فى الرأى فانه كان يدعو المجامع من الخدام كأنه أسقف عام مقام من الله • ولم يستنكف من الحضـــور معهم والجلوس فى اجتماعهم • بل كان يشترك فى مناقشاتهم ، متمما كل ما يؤول الى سلام الله • كان أيضـــا يتخذ مقعده فى الوسط كفرد عادى وسط اشخاص كثيرين ، مبعدا حرسه وجنوده ، وكل من كان يدعوهم واجبهم أن يحرسوه • ولكنه كان فى حمى خوف الله ، ومحـــاطا بحراسة أصـــدقائه الامنـــاء • أما من كان يراهم بانهم يميلون الى الآراء السديدة ويظهرون روحا هادئة ورغبة فى الســلام فكانوا ينالون تقديره الســامى ، لانه كان يسر بكل ما يؤول الى الســـلام والوفاق • أما العنيدون المستبدون فكان ينظر اليهم باشمئزاز •

الفصل الخامس والاربعون

احتماله للسخفاء

وفضلا عن ذلك فانه احتمل بالصبر البعض ممن كانوا ثائرين عليه ، معاملا اياهم بالرقة واللطف لكى يكبحوا جماح أنفسهم دون أن يتهيجوا • كان بعض هؤلاء يحترمون نصائحه ويكفون عن هياجهم • أما من كانوا يبرهنون على أنهم لا يستطيعون اعطاء رأى سليم فكان يتركهم كلية لتصرف الله ، ولم يفكر قط فى اتخاذ آجراءات قاسية ضد أى واحد •

وقد حدث بطبيعة الحال أن الساخطين فى أفريقيا وصـــلوا الى درجة شديدة من العنف ، حتى تجاسروا على ارتكاب الاعمال الماجنة علنا • ويبدو أن روحا شريرا غار من حالة التقدم والنجاح الحالية فدفع هؤلاء الاشخاص الى الاعمال الشنيعة لكى يثير غضب الامبراطور عليهم • ولكنه مع ذلك لم يفلح بهذا التصرف الشرير ، لان الامبراطور ضحك على هذه التصرفات ، معلنا بأن الشرير هو الباعث عليها ، لانها لم تكن تصرفات أشخاص عقلاء ، بل تصرفات مجانين ومعتوهين يجب الاشـــفاق عليهم لا معاقبتهم ، لان معاقبة المجانين حماقة ، أما الاشفاق على حالتهم فهو الانسانية السامية •

الفصل السادس والاربعون

انتصاره على كل الامم البربرية

وهكذا أكرم الامبراطور الله ـ ضابط الكل ـ فى كل تصرفاته ، وأظهر نحو كنائسه عناية لا تكل • وقد كافأه الله باخضاع كل الامم البربرية تحت قدميه ، حتى استطاع أن يقيم فى كل مكان علامات للنصرة على أعدائه • ولقد أقامه الله ظافرا على كل البشرية ، وجعله رعبا لخصومه • والواقع ان هذه لم تكن صفته الطبيعية ، لانه كان أكثر الناس وداعة ولطفا ورفقا •

الفصل السابع والاربعون

موت مكسيمين الذى حاول تدبير مؤامرة وآخرين اكتشف قسطنطين أمرهم برؤيا الهية

واذ كان منشغلا بهذه الامور افتضـــح أمر الامبراطور الثـــانى الذى اعتزل العرش ، وعلم أنه كان يدبر مؤامرة دنيئة ، ومات ميتة مشينة • كان هو أول من مزقت صـــوره فى كل مكان ، وحطمت تماثيله وكل علامات التبجيل والاكرام ، وذلك بسبب جرائمه وفجوره • وبعده أيضا افتضح أمر آخرين غيره من نفس الاسرة ، وضبطوا وهم يدبرون مؤامرة خفية ضد الامبراطور ، وقد أعلن الله كل مقاصـــدهم بكيفية معجزية لعبده فى رؤى أظهرها له •

لانه كثيرا ما كان يعلن له ذاته باعلانات واضحة ، ويظهر له شخصه بكيفية عجيبة جدا ، ويكشف له عن حوادث مستقبلة كثيرة • والواقع انه من المستحيل أن تعبر الكلمات عن عجائب النعمة الالهية التى لا توصف التى

سر الله أن يمنحها لعبده • واذ كان محاطا بكل هذه قضى بقية حياته آمنا ، مغتبطا بمحبة رعاياه ، ومسرورا أيضا لانه رأى أن كل الخاضعين لحكمه يعيشون حياة الرضا والطمانينة ، وفوق الكل فرحا بازدهار كنائس الله •

الفصل الثامن والاربعون

الاحتفال بمرور عشر سنين على حكم قسطنطين

واذ كانت تحيط به هذه الظروف أكمل السنة العاشرة فى ملكه • وفى هذه المناسبة أمر باقامة الاحتفالات العامة ، وقدم صلوات الشكر لله ملك الكل كذبائح بدون نار أو دخان • وفى هذه وجد اغتباطا عظيما • أما الانباء التى تلقاها عن العبث الذى تم فى الاقطار الشرقية فقد سببت له هما وغما •

الفصل التاسع والاربعون

كيف اضطهد ليسينيوس الشرق

لانه علم أنه فى تلك الاقطار كان هنالك وحش مفترس يضايق كنيسة الله وباقى سكان تلك الارجاء بسبب المجهودات التى حاول الروح الشرير بذلها لتأتى بنتائج مضادة لاعمال الامبراطور التقى • وهكذا بدت الامبراطورية الرومانية ـ وقد انقسمت الى قسمين ـ فى نظر جميع الناس كأنها ليل ونهار • فالظلام كان يسود أقطار الشرق ، أما نور النهار الكامل فكان يضيء سكان القسم الآخر • وبينما كان هؤلاء يتلقون بركات عديدة من يد الله بدا منظر هذه البركات غير محتمل فى نظر الحسد الذى يبغض كل خير ، وفى نظر الظالم الذى سبب النكبات للقسم الآخر من الامبراطورية ، والذى بالرغم من تقدم حكومته ، وبالرغم من تشرفه بمصاهرة كريمة (١) مع امبراطور عظيم كقسطنطين ، الا أنه لم يفكر فى اقتفاء خطوات هذا الملك التقى ، بل فضل الاقتداء بمقاصد الشرير الاثيمة وتصرفاته السيئة ، واختار سلوك طريق الذين رأى بعينيه نهايتهم المشينة ، مفضلا هذا عن الاحتفاظ بعلاقات المحبة مع من كان أعلى منه (٢)

(١) تزوج ليسينيوس عام ٣١٣ بقسطنطيا أخت قسطنطين •
(٢) انظر « تاريخ الكنيسة » لنفس المؤلف (١٠ : ٨) •

الفصل الخمسون

كيف دبر ليسينيوس مؤامرة ضد قسطنطين

ونتيجة لهذا أشهر حربا شعواء ضد المحسن اليه دون أن يراعى حرمة قوانين الصداقة ، والتزامات الأقسام ، وعلاقات القرابة ، والمعاهدات القائمة فعلا بينهما • لان الامبراطور الكريم قدم اليه دليل اخلاصه ومحبته بتزويجه أخته ، وبذلك شرفه بجعله واحداً من أعضاء الاسرة الامبراطورية ، كما خوله حق زمالته فى الامبراطورية • أما الآخر فسلك الطريق المضاد ، مديرا المكائد ضد رئيسه ، ومرتبا كل الوسائل ليجازى المحسن اليه بالاساءة •

فاولا فعل كل شىء بالغدر والخيانة وهو يتظاهر بالصداقة ، متوقعا أن ينجح فى اخفاء مقاصده • ولكن الله ساعد عبده ليكتشف المؤامرات التى كانت تدبر فى الظلام • واذ اكتشفت فى محاولاته الاولى لجأ الى خيانات جديدة ، فكان فى بعض الاحيان يدعى الصداقة ، وفى أحيان أخرى يتمسك بالمعاهدات الخطيرة • وفجأة نقض كل الالتزامات ، وبعد ذلك التمس العفو على يد سفراء أرسلهم ، وبعد ما نقض كلمته بكيفية مخزية أشهر أخيرا الحرب علنا ، واعتزم بجنونه اشهار الحرب على الله نفسه الذى كان يعلم أن الامبراطور يعبده •

الفصل الحادى والخمسون

مؤامرات ليسينيوس ضد الاساقفة وأمره بمنع اقامة المجامع

وفى بداية الامر عمل استعلامات سرية عن خدام الله الخاضعين لملكه الذين لم يسيئوا الى حكومته باى حال من الاحوال ، وذلك بقصد توجيه التهم الباطلة اليهم • وعندما لم يجد أى أساس للاتهام ، ولم يجد أسبابا حقيقية لمقاومتهم ، أصدر أمرا يقضى بان لا يجتمع الاساقفة معا لأى سبب ، وأن لا يتغيب أى واحد منهم لزيارة أية كنيسة مجاورة ، وأخيرا أن لا يسمح بعقد المجامع أو المجالس للنظر فى الشئون المتعلقة بالمصلحة العامة • وواضح أن هذا كان تكئة لاظهار حقده ضدنا • لاننا كنا مضطرين اما الى كسر الامر الملكى ، وبذلك نقع تحت طائلة العقاب ، أو الى نقض قوانين الكنيسة لو أننا أذعنا الى أوامره ، لانه من المستحيل اتخاذ قرارات سليمة فى المسائل الجوهرية الا عن طريق المجامع •

وفى حالات أخرى أيضا اتخذ هذا الشخص المبغض لله اجراءات مماثلة اذ اعتزم مقاومة الملك المحب لله • لانه بينما كان الواحـــد يجمع كهنة الله لاكرامهم ولنشر الســـلام والوئام ، كان الآخر ـ الذى لم يكن يبغى الا هدم كل ما هو صالح ـ يستخدم كل جهوده لهدم السلام العام والوئام •

الفصل الثانى والخمسون

ابعاد المسيحيين ومصادرة أملاكهم

وبينما أعطى قسطنطين ، حبيب الله ، لعابدى الله حرية دخول القصور الامبراطورية ، كان عدو الله هذا يطرد منها ـ بروح منافية لتلك ـ جميع المسيحيين الخاضعين لسلطانه • فابعد الذين برهنوا على أنهم أخلص خدامه ، أما الذين سبق أن أغدق عليهم شـــيئا من الاكرام والعظمة مكافأة لهم على خدماتهم الجليلة الســـابقة فقد أذلهم باعطائهم وظائف حقيرة جـــدا كعبيد لغيرهم • أخيرا ، اذ كان يميل لاغتصاب ممتلكات الجميع غنيمة باردة لنفسه هدد بالموت جميع الذين كانوا يعترفون باسم المخلص • وفضلا عن هـــذا فقد انغمس فى شهواته البهيمية بدرجة مروعة ، وكان يرتكب خطية الزنى وغيرها من الرذائل المخجلة ، مصرحا بان هذه هى صفات الطبيعة البشرية بكيفية عامة ، ومنكرا وجود فضيلتى العفة والنزاهة بين البشر •

الفصل الثالث والخمسون

الامر الملكى الذى أصدره محرما على النساء الالتقاء بالرجال فى الكنائس

وبناء على هذا أصدر أمرا آخر يقضى بان لا يظهر الرجال مختلطين بالنساء فى بيوت العبادة ، ويحرم على النساء حضور مدارس الفضيلة المقدسة ، أو تلقى أى تعليم من الاساقفة ، ويحـــدد وظيفة النســـاء بان يكن معلمات لجنسهن • واذ قوبلت هذه التعليمات بالاستهزاء العام دبر وســـائل أخرى لتخريب الكنائس • فامر بان تعقد اجتماعات الشعب فى الهواء الطلق خارج أبواب المدن ، مدعيا بان الهواء الطلق أفضل جدا للجماهير من بيوت الصلاة داخل الجدران •

الفصل الرابع والخمسون

من يرفضون تقديم الذبائح يجب طردهم من الخدمة العسكرية وعدم تقديم الطعام للذين فى السجون

واذ فشل فى أن يلقى طاعة فى هذه الناحية أيضـــا خلع برقع الحياء أخيرا ، وأمر بعزل من أوكلت اليهم مهمات حربية فى المـــدن المختلفة فى الامبراطورية اذا رفضوا تقديم الذبائح للشـــياطين • ونتيجة لهذا حرمت القوات المختلفة فى كل قطر من خدمات عابدى الله ، أما الذى أصـــدر هذا الامر فقد خسر هو أيضا خسارة جسيمة اذ حرم نفسه من صلوات الاتقياء •

ولماذا يحتـــاج الامر الى أن أذكر كيف أمر بان لا يلبى أى واحد نداء الانسانية بتقديم الطعام لمن كانوا يذبلون فى السـجون ، أو العطف على الاسرى الذين كانوا يتضورون جوعا ، وبالايجاز أن لا يمارس أى واحد أى عمل فاضـل ، وأن يمنع الذين كانوا تدفعهم عواطفهم الطبيعية للعطف على زملائهم فى الانسانية من تقديم أى عمل من أعمال الرحمة لهم ؟

يقينا ان هذا الامر الذى أصدره كان أسخف وأشنع من كل الاوامر ، وقد دل على أقصى درجات انحطاط الطبيعة البشرية • كان هذا الامر يحتم على من يظهرون الرحمة نفس القصاص المقضى به على من يتقبلون الرحمة ، كما كان يأمر باقصى عقوبة على من يمارسون أى عمل من أعمال الانسانية •

الفصل الخامس والخمسون

تصرفات ليسينيوس الشائنة وطمعه القبيح

هكذا كانت الاوامر التى أصدرها ليسينيوس • وهل أنا فى حاجة لكى أعدد بدعه الخـــاصة بالزواج أو الموتى ، التى بها نقض قوانين الرومانيين القديمة الموضوعة بحكمة ، مستبدلا اياها ببعض القوانين البربرية القاسية ، مخترعا ألف اعتذار فى اضطهاد رعاياه ؟ من ثم اخترع طريقة جديدة لقياس الاراضى ، كان بمقتضاها يقدر أصغر قطعة بابعاد أكثر من أبعادها الحقيقية ، وذلك بسبب رغبة التملك الجشعة • كذلك سجل أسماء سكان لم يكن لهم وجود ، وحسبوا فى عداد الاموات منذ زمن طويل ، وبهذا ربح أرباحا كثيرة بكيفية مخزية • لم تكن هنالك حدود لخسته ودناءته ، ولم يكن ميله للنهب والسلب يروى ظمأه • ولما امتلأت خزائنه بالذهب والفضة والثروات الطائلة

ندب سوء حظه مدعيـــا الفقر ، وبدا كأنه يتحرق بسبب الحرمان • وهل هنـالك حاجة لكى أذكر كم من الأبرياء عاقبهم بالنفى ، وكم من الممتلكات صادرها ، وكم من النبلاء وذوى المحتد الرفيع والاخلاق السامية سجنهم ، وأسلم زوجاتهم لعبيده السفلة لكى يسيئوا اليهن اساءة فاحشة دنيئة ، وكم من النساء المتزوجات والعذارى قد اغتصبهن هو نفسه رغم احساسه بضعف شيخوخته ؟ ولست فى حاجة للتوسع فى هذه المواضيع طالما كانت شناعة أعماله الاخيرة تبين تفاهة السابقة •

الفصل السادس والخمسون

وأخيرا آل على نفسه أن يثير اضطهادا

لان جهوده الاخيرة فى ثورته ظهرت فى عداوته العلنية للكنائس ، فوجه حملاته ضد الاساقفة أنفسهم ، الذين اعتبرهم ألد أعدائه ، مظهرا عداوة خاصة نحو من كان الامبراطور التقى العظيم يعاملهم كاصدقاء • ولهذا صب علينا أقسى جامات غضبه ، واذ تعدى حدود العقل لم يقف لكى يتأمل فيما حصل لمن اضطهدوا المسيحيين من قبله ، أو من كانت تقضى عليه واجباته أن يعاقبهم ويهلكهم من أجل شر أعمالهم ، ولا انتبه للحقائق التى شهدها هو بنفسه بالرغم من أنه رأى بعينيه أن المحـــرك لنكباتنا الحـــالية قد ضرب بالضربات الالهية •

الفصل السابع والخمسون

كيف أن مكسيميان ، وقد أذل بقرحة ناسورية ، أصدر أمرا ملكيا فى مصلحة المسيحيين

ولما بدأ هذا الرجل هجماته على الكنائس ، وكان هو أول من يلطخ نفسه بدم الابرار والاتقياء ، حل عليه غضب الهى أثر على جسده أولا ، ثم امتد أخيرا الى نفســه • لان خراجا ظهر بغتة فى أعضائه السرية ، وتبعته قرحة ناسورية عميقة • وهذان أحدثا تسمما غير قابل للشـــفاء فى الامعاء التى اكتظت بالديدان ، وكانت تنبعث منها رائحة كريهة جدا • وعلاوة على هذا فانه بسبب شراهته المفرطة تورم بكمية هائلة جدا من الشحم ، وهذه اذ تعفنت كانت منظرا كريها لا يحتمل لكل من اقترب منه •

واذ كابد هذه الآلام بدأ أخيرا – ولو كان متأخرا – يفكر فى جرائمه السابقة ضد الكنيسة ، واعترف بخطاياه أمام الله ، ووضع حدا لاضطهاد المسيحيين ، وأسرع فى اصدار الاوامر الامبراطورية والنطق السامى لاعادة بناء كنائسهم ، وفى نفس الوقت أمرهم بتأدية عبادتهم كالمعتاد ، وتقديم الصلوات من أجله ٠

الفصل الثامن والخمسون

واضطر مكسيمين – الذى سبق أن اضطهد المسيحيين – الى الهرب ، وأخفى نفسه ، متنكرا فى شكل عبد

هذا هو القصاص الذى حل بمن بدأ الاضطهاد ٠ أما من نتحدث عنه (١) الآن ، الذى شهد هذه الامور ، وعرفها من اختباره الشخصى الفعلى ، فانه أبعدها كلية عن ذاكرته ، ولم يتأمل فى القصاص الذى حل بالمضطهد الاول ، ولا فى الانتقام الالهى الذى حل بالمضطهد الثانى (٢) ٠ حاول هذا الاخير أن يتفوق على سابقه فى جرائمه ، وافتخر باختراع ألوان جديدة من تعذيبنا ٠ لم تكفه النيران أو السيوف ، ولا الوخز بالمسامير ، ولا الوحوش المفترسة أو اعماق البحار ٠ لكنه اخترع علاوة على هذه طريقة جديدة للقصاص ، وأصدر امرا ملكيا بقلع عيونهم ٠ وهكذا بعد أن حرم عدد وفير ، لا من الرجال فحسب بل أيضا من النساء والاطفال ، من عيونهم ، ومن استعمال مفاصل أقدامهم بالجدع أو الكى ، أرسلوا وهم فى هذه الحالة ليؤدوا أعمالا شاقة فى المناجم ٠

لذلك حل على هذا الطاغية أيضا غضب الله العادل بعد ذلك بوقت وجيز ، فى الوقت الذى تجاسر فيه على الاشتباك فى الحروب متكلا على مساعدة الارواح الشريرة التى عبدها كآلهة ، وواثقا فى جنوده الذين لم يحص لهم عدد ٠ واذ أحس فى تلك المناسبة أنه لم يصبح له أى رجاء فى الله ، نزع عنه الرداء الملكى ، الذى لم يعد خليقا به ، واختبأ ، بجبن لا يليق بالرجال ، وسط الجماهير المحيطة به ، وهرب طلبا للنجاة ٠

بعد هذا توارى فى الحقول والقرى متخفيا فى شكل عبد ، مؤملا أنه بهذا يمكن أن يختبىء فعلا ٠ ولكنه مع ذلك لم يفلت من عين الله الفاحصة ٠ لأنه بينما كان يتوقع أن يقضى بقية أيامه فى سلام خر صريعا ، لأن الله

(١) أى ليسينيوس ٠
(٢) اى مكسيمين حاكم الاقطار الشرقية من الامبراطورية ٠

ضربه بسهم نارى ، وفنى كل جسمه بضربات الانتقام الالهى ، حتى تلاشى كل أثر لملامح وجهه الأصلية ، ولم يبق فيه الا العظام الجافة ، وأصبح منظره مجرد هيل عظمى ٠

الفصل التاسع والخمسون

وبعد أن صار مكسيمين أعمى أصدر أمرا ملكيا فى مصلحة المسيحيين

واستمرت ضربات الله تتوالى عليه بشدة ، حتى خرجت عيناه من وقبيهما فاصبح أعمى ، وهكذا حل به الانتقام العادل اذ نكب بنفس القصاص الذى كان هو أول من فكر فيه ضد شهداء الله ٠ وأخيرا ، اذ عاش بعد هذه الآلام المبرحة ، طلب الصفح من اله المسيحيين ، واعترف بمحاربته لله المنكرة ٠ كذلك رجع عن شروره الأولى ، كما فعل المضطهد السابق ، واعترف صراحة - باصدار القوانين والأوامر - بخطأه فى عبادة تلك التى اعتبرها آلهة ، مصرحا بأنه أصبح الآن يعرف بالاختبار الايجابى أن اله المسيحيين هو وحده الاله الحقيقى ٠

لم تصل هذه الحقائق الى ليسينيوس على يد بعض الشهود ، ولكنه عرفها شخصيا ٠ ومع ذلك استمر فى نفس طريقه الشرير ، كأن عقله قد طمسته سحابة مظلمة من الضلال ٠



الكتاب الثاني

الفصل الاول

الاضطهاد الذى أثاره سرا ليسينيوس
الذى قتل بعض الاساقفة فى أماصيا بنطس

بهذه الكيفية استمر ذاك الذى كنا نتحدث عنه مسرعا نحو الهلاك الذى ينتظر أعداء الله ، وأشعل نيران الاضطهاد على المسيحيين مرة أخرى ، مقتديا بمن شهد هو نفسه هلاكهم نتيجة تصرفاتهم الأثيمة ، وزاد فى اشعال تلك النيران بدرجة فاقت كل من سبقوه ٠

وفى بداية الأمر ، بالرغم من أنه كان ينفث ثورة وتهديداً ضد الله كوحش مفترس ، أو حية رقطاء ، لم يجسر على توجيه هجماته علنا الى كنائس الله الخاضعة لسلطانه ، خوفا من قسطنطين ، بل أخفى سموم حقده ، وحاول قتل الأساقفة سرا باجراءات محدودة ، وكان يجد بعض الوسائل للقضاء على أبرزهم بعد توجيه التهم اليهم من ولاة المقاطعات المختلفة ٠ أما طريقة تعذيبهم فكانت غريبة جدا لم يسمع بمثلها من قبل ٠ وأما الأعمال الوحشية التى تمت فى أماصيا من أعمال بنطس فقد فاقت كل أنواع القسوة التى عرفت حتى الآن ٠

الفصل الثانى

هدم الكنائس وذبح الاساقفة

لأن بعض الكنائس فى تلك المدينة هدمت حتى الأساس للمرة الثانية منذ بدء الاضطهاد ، وأغلقت بعض الكنائس الأخرى بأمر حكام المقاطعات المختلفة لمنع كل من تعود الذهاب اليها من الاجتماع معا ، أو تقديم العبادة لله ٠ لأن الذى أمر باثارة هذا الاضطهاد كان يحس بجرائمه لدرجة أنه لم يعتقد بأن تلك العبادة كانت لمصلحته ، بل كان مقتنعا أن كل ما فعلناه وكل مساعينا للحصول على رضا الله انما كانت فى مصلحة قسطنطين ٠

واذ أحس هؤلاء الولاة الاشرار أن تصرفاتهم ترضى ذلك الطاغية الفاجر وجهوا قصاصات مروعة على أبرز أسـاقفة الكنيسة وقادتها • ونتيجة لهذا كان يقتاد الأبرياء ، وتوقع عليهم القصاصات بلا مبرر كأنهم قتلة • وكابد البعض نوعا جديدا من القتل ، اذ كانت أجسادهم تقطع اربا • وبعد هذا التعذيب القاسى كانت تلقى أجسادهم فى أعماق البحر طعاما للسمك ، الأمر الذى لم نسمع بهوله حتى فى الاساطير •

وكانت نتيجة هذه الأهوال هرب الاتقياء مرة أخرى كما حدث من قبل ، واسـتقبلت الحقول والبرارى مرة أخرى عبدة الله • وأما الطاغية فانه اذ نجحت مقاصده عزم على اثارة اضطهاد عام ضد المسيحيين • وكان ممكنا أن تتم أغراضه دون أن يجد أية مقاومة لو لم يكن ذاك الذى يدافع عن خاصته قد سبق فرأى الشر القادم ، ودفع عبده قسطنطين ، بارشاد خاص - الى هذا الجزء من الامبراطورية ، جاعلا اياه نورا لامعا وسـط ظلام ذلك الليل البهيم •

الفصل الثالث

كيف تحرك قسطنطين مدافعا عن المسيحيين الذين كانوا معرضين للاضطهاد

فانه اذ رأى الشرور التى سمع أنها لم تعد تطاق ، قبل مشورة حكيمة ، ومزج رقة أخلاقه الطبيعية بشىء من الشدة والحزم ، وأسرع لاغاثة اولئك الذين اضطهدوا بعنف • لانه اعتقد أن استئصال شخص واحد يعتبر عملا مقدسا ومهمة مباركة لضمان سلام معظم الجنس البشرى • واعتقد أيضا أنه لو أصغى لايحـاءات الرحمة والرقة فقط ، وشفق على من لا يسـتحق الشفقة قط ، كان هذا معناه ، من ناحية ، أنه لم يصنع احسانا حقيقيا لذلك الانسان الذى لا يجدى معه أى مجهود لابعاده عن تصرفاته الشريرة ، والذى لابد أن تزيد ثورته على رعاياه • وكان معناه من الناحية الأخرى حرمان من مستهم نيران اضطهاده من أى أمل فى النجاة الى الابد •

تحت تأثير هذه العوامل عزم الامبراطور على أن يمد يد الانقاذ - من دون أى ابطاء - لمن وقعوا تحت ضغط هذه النكبات المفرطة • وبناء على هذا أعد كل الاستعدادات الحربية المعتادة ، وجمع كل قواته ، خيالة وبيادة • وفى مقدمة هذه كلها حمل العلم السابق وصفه ، علامة على ثقته الكاملة فى الله •

الفصل الرابع

واستعد قسطنطين للحرب بالصلاة
أما ليسينيوس فبالسحر والشعوذة

وأخذ معه أيضا كهنة الله ، شاعرا ومتأكدا أنه الآن ، أكثر من أى وقت آخر ، فى حاجة الى فاعلية الصلاة ، ومعتقدا بأنهم يجب أن يكونوا بصفة مستمرة قريبين منه ، ومحيطين به كحراس أمناء للنفس •

وحالما فهم الظالم أن انتصارات قسطنطين على أعدائه لم يحصل عليها بأية وسيلة أخرى سوى بمعاونة الله ، وأن الاشخاص المشار اليهم كانوا بصفة مستمرة معه ومحيطين بشخصه ، وفوق هذا أن علامة الصليب المباركة كانت تتقدم الامبراطور نفسه وكل جيشه ، نظر الى كل هـذه الاحتياطات بالضحك (كما كان متوقعا) ، وفى نفس الوقت احتقر الامبرطوار وهزأه بكلمات التجديف •

ومن الناحية الأخرى جمع حوله العرافين والسحرة المصريين مع الدجالين والمشعوذين ، وكهنة وأنبياء آلهته المزعومة • وبعد تقديم الذبائح ، التى اعتقد أن الموقف يتطلبها ، سأل الى أى مدى يستطيع أن يؤمل انهاء الحرب بنجاح • فاجابوا بصوت واحد أنه لا شك منتصر على أعدائه ، وظافر فى الحرب ، وأن الاقوال المقدسة فى كل مكان تنقل اليه نفس النبوة فى كلمات فياضة • وشهد له العرافون بفأل حسن من طيران الطيور ، وصرح الكهنة بان نفس الفأل تدل عليه حركة أحشاء فرائسها • واذ انتفخ بهذه التأكيدات الكاذبة تقدم على رأس جيشه واستعد للحرب •

الفصل الخامس

ماذا قال ليسينيوس عن الاصنام وعن المسيح
وهو يقدم الذبائح فى احدى الغابات

واذ أصبح الآن متأهبا للحرب طلب الى أخلص حرسه وأعز أصدقائه أن يلتقوا به فى أحد الأمكنة التى يعتبرونها مقدسة ، وهو غابة ظليلة تسقى سقيا جيدا ، بها عدة تماثيل رخامية يعتقد أنها آلهة • وبعد اضاءة الشموع ، وتقديم الذبائح المعتادة تكريما لهذه التماثيل ، قيل انه ألقى الخطاب التالى :

« أيها الاصدقاء والجنود الزملاء . هذه هى آلهة بلادنا . وهذه هى التى نكرمها بعبادة تحدرت الينا من أقدم الآباء . أما الذى جرد جيشه ضدنا الآن فقد تمرد على ديانة آبائه ، واتبع عواطف كفرية ، مكرما فى خبله الها غريبا لم يسمع عنه ، ومخجلا جيشه براية هذا الاله المخزية ، وواثقا فى معونته ، الأمر الذى دفعه لكى يحشد جيشه ويتقدم لا ضدنا فحسب ، بل ضد نفس الآلهة التى تركها .

« وعلى أى حال فالفرصة الراهنة سوف تبين أيا منا هو المخطىء فى اعتقاده ، وتحكم بين آلهتنا وتلك التى يعترف خصومنا بانهم يكرمونها . لانها اما أن تعلن بأن النصرة لنا ، وبذلك تبرهن بعدل أن آلهتنا هى التى تخلص وتساعد ، أو يتضح أن اله قسطنطين هذا ، الذى لا نعلم من أين أتى ، أسمى من آلهتنا الكثيرة ، التى هى على الأقل أفضل من جهة العدد . وعندئذ لا يليق بأى واحد أن يشك من الآن فصاعدا فى اختيار الاله الذى يعبده ، بل يلتصق فى الحال بالقوة الأسمى ، وينسب اليها فضل الانتصار .

« ولو انتصر ذلك الاله الغريب الذى نهزأ به ، لوجب أن نعترف به ونكرمه ، ونهجر تلك التى أضأنا لها الشموع عبثا . أما ان انتصرت آلهتنا (وهذا هو المنتظر يقينا) وجب علينا حالما نحرز هذا الانتصار الراهن أن نشهر الحرب من دون ابطاء ضد من يحتقرون الآلهة » .

هذه هى الكلمات التى خاطب بها الموجودين كما رواها بعض ممن سمعوها بأنفسهم لكاتب هذا السفر التاريخى بعدها بوقت وجيز . وحالما انتهى من خطابه أعطى الأوامر لقواته للبدء فى الهجوم .

الفصل السادس

ظهور أشباح فى المدن الخاضعة لحكم ليسينيوس كأنها أشباح جنود قسطنطين مجتازة فيها

وفى الوقت الذى كانت تحدث فيه هذه الأمور ظهر فى المدن الخاضعة للطاغية منظر خارق للطبيعة . اذ ظهر منظر فصائل مختلفة من جيش قسطنطين مجتازة تلك المدن وقت الظهر ، كأنها قد أحرزت الانتصار . والواقع انه لم يكن هنالك جندى واحد حاضراً فى أى مكان فى ذلك الوقت ، ومع ذلك ظهر هذا المنظر بقوة الهية سامية لينبىء مقدما بما كان عتيدا أن يحدث بعد ذلك بوقت وجيز . لأنه حالما استعدت الجيوش للحرب كان أول من بدأ الموقعة هو ذاك الذى كسر ربط المحالفة الأخوية . وللحال دعا

قسطنطين باسم « الله المخلص السامي » ، وكانت هــذه هى العلامة السرية التى أعطاها لجنوده ، فهزمه فى هذه الموقعة الأولى • وبعد هذا بوقت وجيز أحرز انتصارا أهم فى موقعة ثانية ، وكانت علامة النصر المباركة تتقــدم صفوف جيشه •

الفصل السابع

لقد تم النصر فى كل مكان وجدت فيه راية الصليب فى الحرب

والواقع انه حيثما ظهرت هذه العلامة فر العدو فى الحال أمام الفرق المنتصرة • واذ أدرك الامبراطور هذا كان يأمر ــ كلما رأى الضغط يشتد على أى جزء من قواته ــ بنقل علامة النصر المباركة هذه الى جهة ذلك الجزء من قواته كتعويذة ضد الشدة والبلايا • وللحال كان المحاربون يجدون عزيمة الهية وقوة وشجاعة جديدتين ، فيتم النصر سريعا •

الفصل الثامن

اختيار خمسين رجلا لحمل الصليب

بناء على هذا اختار أبرز رجال حرسه قوة وشجاعة وتقوى ، وأعطاهم التعليمات بأن تكون مهمتهم الوحيدة المحافظة على الراية والدفاع عنها • فكان هنالك ما لايقل عن خمسين رجلا مهمتهم الوحيدة هى أن يحيطوا بالراية ، ويحرصــوا على الدفاع عنها ، وكان كل واحــد منهم يحملها على كتفه بالمناوبة • وقد روى الامبراطور نفسه هذه الظروف فى وقت فراغه لكاتب هذا السفر التاريخى ، بعد هذه الحوادث بوقت طويل • ثم أضــاف رواية أخرى خليقة بالتدوين •

الفصل التاسع

كيف قتل أحد حاملى الصليب بعد أن فر هاربا بينما نجا آخر لبث فى مركزه بأمانة

لانه روى أنه فى احدى المرات ، اذ كانت الموقعة حامية ، استولى الذعر على جيشه فجأة فدب الخوف الشديد فى قلب الجندى حامل العلم ، وسلمه لآخر ليفر هو هاربا وينجو من الموقعة • ولكنه حالما انسحب واستلم زميله

العلم ، وتنحى عن كل مسئولية قبل العلم ، آخترق بطنه سهم قضى عليه . وهكذا دفع ثمن جبنه وعدم أمانته ، وخر صريعا فى الحال . أما الآخر الذى حل محله لحمل العلم المبارك فقد وجد أنه هو الذى حافظ على حياته . لأنه بالرغم من قذف سهام متواصلة نحوه ظل سليما من كل أذى ، اذ تلقت عصا العلم كل سهم .

كان عجيبا جدا فى الواقع أن تسقط كل سهام الاعداء على عصا الراية الرفيعة وتنغرس فيها ، وهكذا نجا حاملها من الموت . ولم يصب قط أى واحد ممن قاموا بهذه الخدمة بأى جرح .

ليست هذه الرواية من عندياتى ، ولكن العهدة فيها أيضا على الامبراطور الذى رواها لى مع مسائل أخرى .

واذ أحرز هذه الانتصارات الاولى بقوة الله ، تحرك بقواته ، واستمر فى زحفه .

الفصل العاشر

مواقع مختلفة ، وانتصارات قسطنطين

ولما عجزت طلائع جيش العدو عن مقاومة أولى هجمات الامبراطور ألقوا سلاحهم ، وجثوا عند قدميه . فعفا عن جميعهم مبتهجا بانقاذ نفوس بشرية . لكن كان هنالك أشخاص آخرون لايزالون حاملين السلاح ومستمرين فى الحرب . هؤلاء حاول الامبراطور مصالحتهم بمفاوضات أخوية ، لكن لما رفضت هذه المفاوضات أمر جيشه ببدء الهجوم . وللحال تراجعوا وفروا هاربين . فقتل البعض حسب قوانين الحرب ، وسقط الآخرون بعضهم على بعض فى فوضى هربهم ، وقتلوا بسيف زملائهم .

الفصل الحادى عشر

هرب ليسينيوس ، وأعماله السحرية

وفى هذه الظروف ، اذ وجد قائدهم أنه قد حرم من مساعدة أتباعه لأنه فقد جنوده الكثيرين ، سواء قواته النظامية أو حلفاءه ، وعرف أيضا بالاختبار أن ثقته فى آلهته المزعومة كانت عبثا ، لجأ الى الهرب بكيفية مخزية ، الأمر الذى مكنه من أن ينجو بنفسه فعلا ، لأن الامبراطور التقى منع جنوده من مطاردته عن قرب ، وهكذا أعطاه فرصة للنجاة . وقد فعل هذا مؤملا أنه

فيما بعـــد ، عنـــدما يقتنع بخطورة موقفه ، قد يترك أطماعه الجنونية المتغطرسة ، ويرجع الى عقله ٠

وهكذا نرى أن قسطنطين فى انسانيته المتزايدة كان مستعدا للتغاضى عن الاســاءات الســابقة ، والصفح عن شخص لايستحق الصفح ٠ أما ليسينيوس فكان أبعد من أن يترك شروره وتصرفاته السيئة ، بل أضــاف جريمة الى جريمة ، وتجاسر على ارتكاب فظائع أشر مما فعله من قبل ٠ واذ لجأ مرة أخرى الى الأعمال السحرية البغيضة ازداد غطرسة ، حتى أصبح خليقا بأن يقــال عنه ما قيل قديما عن المتغطرس المصرى ان الله قسى قلبه (خر ٩ : ١٢) ٠

الفصل الثانى عشر

كيف انتصر قسطنطين بعد أن صلى فى خيمته

وفى الوقت الذى اندفع فيه ليسينيوس ـ منطمسة بصيرته ـ نحـــو هلاكه ، ومتماديا فى شروره هـــذه ، رأى الامبراطور أنه يجب أن يلتقى باعدائه فى موقعة أخرى ، وكرس الفترة المتوسطة لمخلصه ٠ فأقام خيمة الصليب خارج المحلة ، وهنـــالك قضى وقته بكيفية طاهرة نقية ، مقـدما الصلوات لله ، مقتفيا بذلك آثار نبيه القديم ، الذى تشـهد عنه الأقوال الالهية المقدسة أنه نصب خيمته خارج المحلة (١) ٠ وكان لا يحيط به الا القليلون الذين كان يقدر ايمانهم وتقواهم كل التقدير ٠ واستمر يمارس هذه العادة كلما بدأ يفكر فى منازلة العدو ٠ لأنه كان متأنيا فى اجراءاته ، بصيرا بالعواقب ، لكى يضمن السلامة ، وكان يرغب أن يكون مسترشدا فى كل شىء بالمشورة الالهية ٠ واذ كان يقدم التضرعات الحارة الى الله ، كان دواما يكرمه بعد ذلك بقليل باعطائه اعلانات عن شخصه ٠ وبعد ذلك كان يندفع من الخيمة ، كأنه يتحرك بدافع الهى ، ويعطى الأوامر لجيشه ليتحرك فى الحال من دون ابطاء ، ويشهر سيوفه على الفور ٠ وعندئذ كانوا يبدأون الهجوم فى الحال ، ويحاربون ببسالة ، لكى يحرزوا النصر بمنتهى السرعة ، ويرفعوا علامات النصر على أعدائهم ٠

---

(١) خر ٣٣ : ٧ الخ ٠

الفصل الثالث عشر

معاملة الاسرى بروح الانسانية

هكذا اعتاد الامبراطور وجيشه أن يتصرفوا ، واستمروا على ذلك طويلا كلما كان هنالك شروع في الحرب • لان الهه كان ماثلا دواما في تفكيره ، كما أراد اتمام كل شيء حسب مشيئته ، وتجنب اهراق الدماء على قدر المستطاع • لذلك كان يتوق ، لا الى حفظ نفوس رعاياه فحسب ، بل حتى أعدائه • وبناء على هذا كان يعطى الأوامر لجنوده المنتصرين أن لا يقتلوا أسراهم ، ويقدم اليهم النصائح بان لاينسوا أنهم اخوة لهم في الانسانية • وكان كلما رأى عواطف جنوده جامحة كبح جماح غيظهم بتقديم أموال وفيرة ، اذ كان يكافيء كل رجل عفا عن عدوه بوزنة معينة من الذهب • وكانت حكمة الامبراطور الشخصية هي التي أرشدته لهذا الاغراء لانقاذ النفوس البشرية ، وبهذا نجا عدد وفير حتى من البربريين ، الذين اعتقدوا أنهم مدينون بحياتهم لذهب الامبراطور •

الفصل الرابع عشر

حديث آخر عن صلواته في الخيمة

اصبحت هذه وألوف غيرها من التصرفات أمرا مألوفا وطبيعيا لدى الامبراطور • وفي هذه المناسبة الراهنة اعتزل في الخيمة ، كما كانت عادته قبل أن يبدأ أي حرب ، وهنالك قضى وقته في الصلاة لله • وفي نفس الوقت حرم نفسه بصرامة من كل راحة أو تنعم ، ودرب نفسه بالصوم واذلال الجسد ، طالبا رحمة الله بالتضرعات والصلوات ، لكي ينال رضاه ومعونته ، ويكون مستعدا أن يتمم ما يسر بان يوحيه اليه • وبالاجمال انه كان يشمل برعايته الجميع على السواء ، وكان يتوسل الى الله من أجل سلامة أعدائه كما من أجل سلامة رعاياه •

الفصل الخامس عشر

صداقة ليسينيوس الزائفة وعبادته للاوثان

ولأن ذاك الذى هرب أمام الامبراطور أخيرا قد أخفى وقتئذ عواطفه الحقيقية ، وطلب منه مرة أخرى تجديد الصداقة والتحالف ، رأى

الامبراطور أنه من المناسب اجابته الى طلبه بشروط معينة ، معتقدا أن هذا اجراء مناسب ، وأنه بصفة عامة نافع للجميع • أما ليسـيـنيوس فتظاهر بالخضوع للشروط المعروضة ، وأكد اخلاصه بأقسام ، وكان فى نفس ذلك الوقت يجمع سرا قوة حربية ، ويفكر فى اشـهار الحرب ، ويدعو حتى البرابرة للانضمام اليه ، وبدأ أيضا يتطلع حوله طالبا آلهة أخرى اذ خدعته تلك التى وثق فيها الى ذلك الوقت • وهكذا سبب لنفسه الهزء والسخرية بطلبه آلهة جديدة أخرى كثيرة ، دون تفكير فيما سبق أن صرح به جهاراً عن الآلهة الكاذبة ، أو الاعتراف بالله الذى كان يحارب فى صف قسطنطين

الفصل السادس عشر

كيف نصح ليسينيوس جنوده بعدم مهاجمة راية الصليب

واذ عرف وقتئذ بالاختبار تلك القوة الالهية السرية التى فى العلامة المباركة ، والتى بها تعود قسطنطين على الانتصار ، نصح جنوده بعدم توجيه هجومهم نحو هذه الراية ، وعدم السماح لأعينهم حتى بالتطلع اليها ولو عن غير قصد ، مؤكداً لهم أن فيها قوة مرعبة ، وأنها بصفة خاصة عدوة له ، ولذلك فانهم يحسنون صنعا ان حرصوا على عدم اقتحامها •

وبعد أن أعطى هذه التعليمات استعد لموقعة حاسمة مع ذاك الذى دفعته انسانيته الى تأجيل المصير الذى سبق أن رآه منتظرا خصمه • أما العدو فاذ كان واثقا من مساعدة الالهة الكثيرة تقدم للهجوم بقوات حربية شديدة البأس ، تتقدمها لحمايتها صور لموتى معينين ، وتماثيل جامدة لا حياة فيها (*) وفى الجانب الآخر كان الامبراطور مطمئنا بسلاح التقوى ، رافعا فى وجه العدد الهائل من جنود عدوه العلامة المباركة المحيية ، رعبا للعدو ، وحمى له من كل أذى • توقف برهة ، وتجلد فى بداية الامر بنعمة الصـبر وطول الأناة ، احتراما لمعاهدة السـلام التى وقعها ، لكى لا يكون هو البـادىء بالحرب •

الفصل السابع عشر

انتصار قسطنطين

ولكنه حالما أدرك أن خصومه مصرون على عزمهم ، شاهرون سـيوفهم فعلا ، أطلق العنان لغضبه ، وبهجوم واحد حطم كل قوات العدو فى لحظة ، وهكذا انتصر فى الحال عليهم وعلى آلهتهم •

الفصل الثامن عشر

موت ليسينيوس وتمجيد هذا الحادث

بعد هذا بدأ يتصرف مع عدو الله هذا وأتباعه حسب قوانين الحرب ، ويقتص منهم بالقصاص المناسب • فحل قصاص الموت العادل بالطاغية نفسه وبالذين عاونوه بمشورتهم فى فجوره • عندئذ تقدم من خدعوا أخيرا بالثقة الباطلة فى الآلهة الكاذبة ، واعترفوا مخلصين باله قسطنطين ، وشهدوا جهرا بايمانهم بأنه هو الاله الوحيد الحقيقى •

الفصل التاسع عشر

الأفراح والولائم

واذ رحل هذا الفاجر على هذا الوجه ، بزغت الشمس بنورها البهيج مرة أخرى بعد انقشاع السحابة القاتمة والقوة الغاشمة • وأدمجت معا كل أجزاء الامبراطورية الرومانية • فاتحدت الأمم الشرقية بأمم الغرب ، وأصبح كل جسم الامبراطورية ينعم برأسه فى شخص حاكم واحد سام ، ساد سلطانه الأوحد على الجميع • عندئذ أشرقت أيضا أشعة نور التقوى وأبهجت قلوب من كانوا الى ذلك الوقت جالسين فى الظلمة وظلال الموت • ولم تعد الآلام السابقة تذكر ، لأن الكل اتحدوا فى تقديم الأناشيد للملك الظافر ، واعترفوا بالله الواحد الحقيقى الذى حفظه • وذاك الذى أضاءت صفاته بكل فضائل التقوى ، الامبراطور « **الظافر** » ، لانه هو نفسه اتخذ هذا الاسم كأفضل تسمية يعبر بها عن الظفر الذى منحه الله اياه على كل من أبغضوه أو قاوموه ، امتد ملكه الى الشرق ، وهكذا حكم وحده كل الامبراطورية الرومانية ، وأعاد وحدتها تحت رأس واحد كما فى الأيام السالفة • وكما انه كان أول من نادى بملك الله الوحيد ، وهكذا امتد سلطانه على كل الجنس البشرى كملك وحيد على العالم الرومانى • وزال الآن كل احساس بتلك الشرور التى كان الجميع يئنون تحت ضغطها • وأولئك الذين انحنت رؤوسهم أسى وحزنا أصبحوا يحيون الآن بعضهم بعضا بثغور مبتسمة ، ووجوه تعبر عن الفرح الداخلى • وباقامة الاحتفالات ، وتقديم الترانيم والتسابيح ، نسبوا أول كل شىء الملك الأسمى لله كملك الملوك ، كما قيل لهم • بعد هذا قدموا الهتافات المتواصلة لتكريم الامبراطور الظافر والقياصرة ، أبنائه الحكماء الأتقياء • فنسيت النكبات السابقة ، وعفى عن كل الشرور السالفة • واختلط التمتع بالسعادة الراهنة بالرجاء فى استمرار البركات مستقبلا •

الفصل العشرون

تشريع قسطنطين فى مصلحة المعترفين

وعلاوة على هذا فان أوامر الامبراطور الملكية ، المشبعة بروحه الانسانية ، نشرت بيننا أيضا ، كما نشرت كذلك بين سكان القسم الآخر من الامبراطورية ، وحملت قوانينه – التى تنم عن روح التقوى من نحو الله – مواعيد ببركات جزيلة ، لأنها تضمنت امتيازات كثيرة لرعاياه فى كل أمة ، وفى نفس الوقت تضمنت اجراءات معينة تتفق مع حاجيات كنائس الله • لأنها أول كل شيء أعادت الحرية لمن سبق نفيهم بسبب رفضهم عبادة الأصنام ، أو تشريدهم بواسطة ولاة بلادهم • وثانيا أزاحت أثقال من أجبروا للسبب نفسه على الخدمة فى المحاكم المدنية ، وأعادت حقوق من سبق أن جردوا من أملاكهم • أما الذين فى أوقات المحنة برزوا بتحصين أنفسهم فى سبيل الله ، وحكم عليهم بالاشغال الشاقة الاليمة فى المناجم ، أو أبعدوا فى الجزائر ، أو أجبروا على العناء فى الأعمال العامة ، فانهم جميعا أنقذوا من هذه الأثقال • وأما الآخرون الذين كلفهم ثباتهم على ايمانهم خسارة رتبهم الحربية فان كرم الامبراطور نزع عنهم عارهم ، لانه خيرهم بين أمرين ، اما اعادة رتبهم اليهم وتمتعهم بامتيازاتهم السابقة ، أو اعفائهم من كل خدمة فى حالة تفضيلهم حياة أكثر استقرارا • وأخيرا حرر أيضا جميع الذين سبق أن أجبروا على تأدية الأعمال النسوية على سبيل التحقير والاهانة •

الفصل الحادى والعشرون

قوانينه بخصوص الشهداء والممتلكات الكنسية

هكذا كانت المزايا التى قدمها الامبراطور بأوامره الملكية لمن اضطهدوا من أجل الايمان • وقد خدمتهم قوانينه من جهة أملاكهم أيضا •

وأما شهداء الله القديسون ، الذين ضحوا بحياتهم من أجل اعترافهم باسمه ، فقد أمر باعطاء أملاكهم لأقرب أقربائهم ، أو للكنائس فى حالة عدم وجود أى واحد منهم • كذلك تضمنت أوامر الامبراطور السخية بأن جميع الممتلكات التى أعطيت لهيئات أخرى غير الخزانة العامة ، سواء بالبيع أو بالهبة ، وجميع الممتلكات التى بقيت بالخزانة العامة نفسها ، يجب اعادتها الى الملاك الأصليين •

هذه هى المزايا التى أغدقها كرمه على كنيسة الله على نطاق واسع جدا •

الفصل الثانى والعشرون

كيف حصل على رضا الشعب

على أن كرمه وزع منحا أوفر على الشعوب الوثنية وباقى الأمم التابعة لامبراطوريته • حتى ان سكان أقطارنا الشرقية ، الذين كانوا قبلا يسمعون بما يتمتع به سكان القسم المقابل من الامبراطورية من امتيازات ، ويغبطون من يتمتعون بها ، ويتوقون الى التمتع بنصيب مماثل ، أعلنوا وقتئذ سعادتهم جميعا بنفس واحدة ، عندما رأوا أنفسهم يتمتعون بكل هـــذه البركات ، واعترفوا أن ظهور ملك كهذا للجنس البشرى هو فى الواقع حدث عجيب لم يسجل مثله تاريخ العالم • هكذا كان شعورهم •

الفصل الثالث والعشرون

كيف أعلن أن الله هو مصدر نجاحه

أوامره الملكية

واذ خضعت كل الأمم لسلطة الامبراطور بمعونة وقدرة الله مخلصه ، أذاع للجميع علنا اسم ذاك الذى بكرمه كان مصدر كل بركاته ، وصرح بأن الفضل فى انتصاراته السابقة يرجع الى الله لا الى مجهوداته الشخصية • واذ كتب هذا التصريح باللغتين اللاتينية واليـــونانية ، أرســـله لكل أرجاء الامبراطورية • وتتبين بلاغة أسلوبه فى التعبير من مراجعة رسالتيه اللتين وجهت احداهما الى كنائس الله ، والأخرى الى السكان الوثنيين فى سائر مدن الامبراطورية • وأعتقد أنه من المناسب اثبات هذه الرسالة الاخيرة هنا ، لأنها تتصل بموضوعى الحاضر ، أولا لحفظ صورة هـــذه الوثيقة للحقيقة والتاريخ ، ونقلها الى الأجيال القادمة ، ومن الجهة الاخرى تأييدا لروايتى الحالية • وقد نقلت عن صورة حقيقية من السجلات الامبراطورية التى فى حوزتى ، وعليها توقيع الامبراطور بخطه مما يؤكد ما ذكرته •

الفصل الرابع والعشرون

القانون الذى أصدره قسطنطين
بخصوص تقوى الله والديانة المسيحية

« من قسطنطين الظـــافر ، مكسيموس أوغسطس ، الى ســـكان اقليم فلسطين •

« لقد اتضح منذ وقت طويل بكل جلاء ، وبما لا يدع أى مجال للشك ، لكل الذين يحملون عواطف سليمة نحو صفات الكائن الأسمى ، الفارق العظيم بين من يمارسون بدقة واجبات الديانة المسيحية المقدسة ، وبين من يحملون نحو هذه الديانة روح العداء أو الاحتقار . أما فى الوقت الحاضر فاننا نستطيع أن نرى ببراهين أقوى ، وأمثلة أكثر اقناعا ، أنه من غير المعقول مناقشة هذه الحقيقة ، كما نرى مقدار قدرة الله العلى العظيمة ، طالما كان واضحا أن من يراعون نواميسه المقدسة بأمانة ، ويتحاشون كسر وصاياه ، يكافأون ببركات جزيلة ، ويمنحون رجاء أكيداً وقوة كافية لتأدية تعهداتهم . ومن الناحية الأخرى ان الذين يحملون عواطف شريرة قد نالوا نتائج تتفق مع الشر الذى اختاروه . لأنه أية بركة يمكن توقعها لمن لم يشأ الاعتراف بالله مصدر كل البركات أو عبادته العبادة الواجبة ؟ والواقع ان الحقائق نفسها تؤيد ما أقول .

الفصل الخامس والعشرون

مثل من الازمنة القديمة

« ويقيننا ان كل من تتبع بروية مجرى الحوادث من العصور الأولى الى وقتنا الحاضر ، وتأمل فيما حدث فى الأجيال السابقة ، وجد بأن كل الذين جعلوا العدل والنزاهة أساسا لتصرفاتهم لم يلقوا النجاح فى أعمالهم فحسب ، بل حصدوا ثمارا شهية من هذا الأصل الجميل . وأيضا كل من يتأمل فى سيرة من تجاسروا على ارتكاب المظالم أو الاضطهاد ، الذين احتدم غضبهم وجنونهم ضد الله نفسه ، أو لم تعمر قلوبهم بالاحساسات الطيبة الرحيمة نحو زملائهم فى الانسانية ، بل تقست قلوبهم فاستعملوا معهم التشريد والتحقير ومصادرة الممتلكات والقتل ، أو نكلوا بهم بأى نوع آخر ، كل ذلك دون أى احساس بالندم والأسف ، أو الرغبة فى تغيير تفكيرهم ، يجد بان أشخاصا كهؤلاء قد نالوا قصاصا يتناسب مع جرائمهم . وهذه نتائج لابد من توقعها بحكم ناموس الطبيعة العادل .

الفصل السادس والعشرون

المضطهدون والذين اضطهدوهم

« لان كل الذين تذرعوا بنزاهة القصد فى كل تصرفاتهم ، جاعلين خوف الله دواما نصب أعينهم ، محتفظين بايمان فيه لا يتزعزع ، دون أن يسمحوا

للمخاوف الحالية أو الاخطار أن تتغلب على رجائهم فى البركات العتيدة ، هؤلاء قد استخفوا بآلامهم ، بالرغم من شدة المحن التى كابدوها ، ذلك لأنهم كان يسندهم الايمان بالجزاء العظيم المكتنز لهم • أما صفاتهم فقد ازدادت ضياء بنسبة زيادة قسوة آلامهم الماضية •

« وأما الذين بخزى استخفوا بمبادىء العدل ، أو رفضوا الاعتراف بالله العلى ، ثم تجاسروا على أن يذيقوا الذين عبدوه بأمانة أقسى الاهانات والقصاصات ، الذين عميت عيونهم عن أن تدرك تعاستهم فى اضطهاد الآخرين على هذا الأساس ، وعن أن ترى سعادة وغبطة من احتفظوا بتقواهم نحو الله وسط هذه الآلام ، فكثيرا ما هلكت جيوشهم ، وكثيرا ما اضطرت أن تفر هاربة ، وانتهت استعداداتهم الحربية بالفشل الذريع •

الفصل السابع والعشرون

كيف أدى الاضطهاد الى حلول النكبات بالمعتدين

« بسبب العوامل التى ذكرتها نشبت حروب شنيعة ، وحل خراب مدمر • وتبع ذلك أن ضروريات الحياة العامة أصبحت نادرة جدا ، الأمر الذى نجمت عنه نكبات كثيرة العدد • وحدث أيضا أن مسببى هذه الجرائم ماتوا ميتة شنيعة بعد أن تكبدوا آلاما مبرحة ، أو عاشوا عيشة الذل والهوان ، واعترفوا بأنها أبشع من الموت نفسه ، وهكذا نالوا قصاصا يتناسب مع شناعة جرائمهم • لأن كل واحد حلت به مصيبة تتفق مع الروح الثورية الجنونية التى دفع بها الى الحرب ، والتى توهمه أنه بها يتغلب على الارادة الالهية • وهكذا لم يحسوا فقط بضغط نكبات العالم الحاضر ، بل كان يعذبهم الشعور بالقصاص فى العالم العتيد •

الفصل الثامن والعشرون

كيف اختار الله قسطنطين ليكون خادم البركة

« أما تلك الجرائم المتعددة التى ضايقت الجنس البشرى ، وأمام خطر انهيار الدولة انهياراً كاملا كأن مرضا وبائيا يجتاحها ، مما يحتاج الأمر معه الى معونة قوية فعالة ـ أمام هذه ماذا كان الاسعاف ، وماذا كان العلاج الذى دبره اللاهوت لهذه الشرور ؟ (وأقصد باللاهوت الاله الواحد الحقيقى ،

صاحب القدرة الأزلية المقتدرة • ويقينا أنه لا يمكن أن يعتبر الأمر عجرفة ممن نال بركات الله أن يعترف بها بأسمى عبارات المديح) • لقد كنت أنا نفسى الآلة التى أختارها لخدمته ، واعتبرها لائقة لاتمام ارادته • ابتدأت من المحيط البريطانى البعيد ، حتى الأقطار التى تغرق فيها الشمس تحت الأفق حسب قوانين الطبيعة ، فأزلت نهائيا - بمعونة الله - كل أنواع الشرور الغامرة ، مؤملا أن يعود الجنس البشرى ، وقد استنار بواسطتى ، لمراعاة نواميس الله المقدسة ، وفى نفس الوقت ينمو ايماننا المقدس تحت ارشاد ذراعه القادرة على كل شىء •

الفصل التاسع والعشرون

عبارات قسطنطين عن تقوى الله ، وثناؤه على المعترفين

« أقول تحت ارشاد ذراعه ، لأننى لا أريد أن أنسى قط كم أنا مدين لنعمته بالشكر العميق • واذ اعتقدت أن هذه الخدمة الجليلة قد منحت لى كهبة خاصة ، تقدمت حتى الاقطار الشرقية التى كانت فى حاجة الى علاج أقوى على يدى ، اذ كانت ترزح تحت نكبات أشد هولا • وأنا فى نفس الوقت مقتنع بأننى مدين لنعمة الله العلى بحياتى ، وكل نسمة فى ، وبالايجاز كل فكر داخلى خفى فى • والآن أنا واثق بأن المخلصين فى تتبع الرجاء السماوى ، الذين ركزوا هذا الرجاء فى السماء نفسها كمبدأ يسود كل كيانهم وحياتهم ، ليسوا فى حاجة للاتكال على المساعدات البشرية ، بل هم بالأحرى يتمتعون ببركات أسمى بنسبة انفصالهم عن الأرضيات وشرور هذا الوجود الأرضى •

« ومع ذلك أراه لزاما على أن أرفع فى الحال عن كاهل هؤلاء الأشخاص جميع المتاعب التى تثقلوا بها ، والمظالم التى يكابدونها بالرغم من أنهم لم يرتكبوا شرا أو شبه شر • لأنه يعتبر شيئا غريبا حقا أن يكون ثبات النفس الذى أظهره هؤلاء الاشخاص واضحا تمام الوضوح أثناء حكم أولئك الذين كان أول هدف لهم اضطهادهم بسبب عبادتهم لله ، وفى نفس الوقت لاتزداد صفاتهم المجيدة وضوحا وضياء أثناء حكم ملك خادم لله •

الفصل الثلاثون

اصدار قانون يقضى بالتحرر من النفى
والاعفاء من الخدمة فى المحاكم ، ورد الاملاك السابق مصادرتها

« أما من أبعدوا عن أوطانهم الى بلاد غريبة بسبب رفضهم ترك عبادة الله أو ترك الايمان بذاك الذى كرسوا أنفسهم له من كل قلوبهم ، والذين تعرضوا بالتبعية لأحكام المحاكم القاسية فى أوقات مختلفة ، وكذلك الذين سجلت أسماؤهم فى سجلات المحاكم العامة رغم اعفائهم من مثل هذه الخدمة فى الماضى ، فليقدموا الشكر الآن لله محرر الجميع لاعادتهم لأوطانهم ، واعادة سلامهم الاول اليهم • والذين نهبت بضـــائعهم ، وعاشـوا الى الآن عيشة البؤس والذل ، مكتئبين بسبب خسارة كل ممتلكاتهم ، فليعادوا مرة أخرى الى أوطانهم ، وعائلاتهم ، وترد اليهم ممتلكاتهم ، وينالوا رحمة الله الغنية بالفرح والتهليل •

الفصل الحادى والثلاثون

وأيضا اطلاق سراح
من أبعدوا الى الجزائر

« وعلاوة على ذلك فاننا نأمر بان جميع من أبقوا فى الجزائر رغم ارادتهم يجب أن ينتفعوا بهذا القانون الحالى ، لكى يستطيع من أحيطوا الى الآن بجبال صعبة المراس ، وبحواجز المحيط المترامى الأطراف ، أن يتمموا أحب أمنية لهم برؤية أعز أحبـــابهم مرة أخرى ، وذلك بعد اطلاق سراحهم من هـــذه العزلة الموحشة المظلمة •

« وأولئك أيضا الذين قضوا حياة طويلة بائسة وسط أقذار دنيئة ، ولا أمل لهم قط فى النجاة ، يمكن أن يقضـــوا حياتهم بيننا متحررين من كل خوف • لأن بقاء أشخاص تحت حكمنا يعيشون فى الخوف ، فى الوقت الذى نعتقد فيه ونفتخر بأننا خدام الله ، أمر شاذ وثقيل حتى على الأســـماع ، ولا يمكن تصديقة • فمهمتنا هى تصحيح أخطاء الآخرين •

الفصل الثانى والثلاثون

واطلاق سراح الذين استخدموا بكيفية دنيئة فى المناجم والاعمال العامة

« وكذلك فيما يختص بمن حكم عليهم اما بالاشغال الشاقة فى المناجم ، أو الخدمة فى الأعمال العامة ، يجب أن ينعموا بحلاوة أوقات الفراغ بدلا من هذه الأعمال العنيفة الطويلة الأمد ، وأن يعيشوا حياة مستريحة تتفق مع رغبات قلوبهم ، وأن يستبدلوا هذه المتاعب المستمرة فى عملهم براحة كاملة · وان كان أى واحد منهم قد فقد نعمة الحرية الممنوحة للجميع ، أو حلت به أية اهانة ، وجب أن يعيدوا كل واحد الى وطنه ، ليستأنف بفرح مركزه فى الهيئة الاجتماعية التى حرم منها باقامته الطويلة فى الخارج

الفصل الثالث والثلاثون

بخصوص المعترفين الذين يعملون فى الخدمة الحربية

« وأما بخصوص من سبق أن رقوا الى مراكز حربية أرفع ولكنهم حرموا منها فيما بعد ظلما وعدوانا لأنهم فضلوا الاعتراف بولائهم لله عن الاحتفاظ بالمراكز التى شغلوها ، فاننا نترك لهم مطلق الحرية ليختاروا اما شغل مراكزهم الأولى ، ان ارتضوا ثانية الاشتغال فى الخدمة الحربية ، أو الحياة الهادئة بعد اخلاء سبيلهم بكيفية كريمة · لأنه من العدل واللائق أن من أظهروا مثل هذه النخوة وعزة النفس والشجاعة بمواجهتهم للأخطار التى تعرضوا لها يجب أن تعطى لهم حرية الأختيار بين الحياة الهادئة بدون عمل أو استئناف مراكزهم الأولى ·

الفصل الرابع والثلاثون

اطلاق سراح الاحرار الذين حكم عليهم بالعمل فى أماكن اقامة النساء ، أو حكم عليهم بالعبودية

« وأخيرا ان كان هناك من حرموا ظلما من امتيازات نسل النبلاء ، وحكم عليهم بالبقاء فى الأمكنة المخصصة للنساء (١) ، والاشتغال فى أعمال

---

(١) كانت بالبيوت اليونانية أمكنة مخصصة للنساء وأخرى للرجال ·

الكتان ، وهناك تفرض عليهم أعمال قاسية شنيعة ، أو حكم عليهم بالعبودية من أجل مصلحة الخزانة العامة ، دون أى اســتثناء بسبب كرم محتدهم ، فلينعم هؤلاء ببركات الحرية ، ويحيوا حياة سعيدة ، مستأنفين الامتيازات التى كانت لهم من قبل ، والأمجاد اللائقة بهم • أما الرجل الحر (١) الذى بسبب المظالم والوحشية أو الجنون أصبح عبدا ، الذى انتقل فجأة من الحرية الى العبودية ، وصار يندب سوء حظه بسبب الأعمـال التى لم يتعودها ، فليعد حرا الى أسرته مرة أخرى وفقا لأوامرنا هذه ، وليطلب أى عمل من الأعمال التى تتفق مع حالة الحرية ، وليطرد من مخيلته تلك الخدمات التى خضع لها ظلما ، والتى لم تكن تتناسب مع حالته •

الفصل الخامس والثلاثون

بخصوص وراثة ممتلكات الشهداء والمعترفين

وبخصوص من صدرت عليهم الاحكام بالنفى ومصادرة الممتلكات

« كذلك يجب أن لا نتغـافل عن ممتلكات الذين حرموا منها لادعاءات مختلفة • لأنه ان كان هنالك بعض ممن ناضلوا ببسالة وعزم ثابت فى جهاد الشهداء النبيل الالهى قد جردوا أيضا من ثروتهم ، أو ان كان التجريد من الثروة قد وقع من نصيب المعترفين ، الذين كسبوا لأنفسهم رجاء الكنوز الأبدية ، أو كانت خسارة الممتلكات قد حلت بمن شردوا من بلادهم لرفضهم الرضوخ للطغاة أو انكار ايمانهم ، وأخيرا ان كان هنالك من نجوا من حكم الموت ولكنهم جردوا من ثرواتهم العالمية ، فاننا نأمر بأن ينتقل ميراث جميع أمثال هؤلاء الاشخاص الى أقرب أقربائهم • وبما أن القوانين تمنح هذا الحق بوضوح لأقرب الأقرباء فمن السهل التأكد ممن يحق لهم الميراث فى كل حالة • وواضح أنه من المعقول اعطـاء الميراث لمن يعتبرون فى حكم أقرب الأقرباء لو أن الموتى ماتوا ميتة طبيعية •

(١) أى الحر ولو كان وضيعا ، الذى تعود أن يعمل لكسب عيشه دون الرضوخ للعبودية •

الفصل السادس والثلاثون

اعتبار الكنيسة وارثة لمن لا يتركون أقرباء وتأييد هبات أمثال هؤلاء الأشخاص الاختيارية

« أما ان لم يوجد أقرباء أحياء ليرثوا أملاك الاشخاص السابق ذكرهم ، أعني الشهداء أو المعترفين أو من شردوا من أوطانهم لأسباب مماثلة ، فاننا فى هذه الحالة نأمر أن أقرب كنيسة لكل حالة يجب أن ينتقل اليها الميراث • ويقينا انه ليس ظلما للراحلين أن ترثهم الكنيسة التى من أجلها تحملوا أعنف الآلام • ونعتقد بأنه من الضرورى اضافة هذا أيضا وهو انه ان كان أى واحد من الاشخاص السابق ذكرهم قد وهب أى جزء من أملاكه هبة اختيارية فالمعقول أن تؤول ملكية هذه الاملاك الموهوبة لمن قد تسلموها •

الفصل السابع والثلاثون

يجب رد الأراضي والبساتين والمنازل لا غلتها الفعلية

« ولكى لا يكون هنالك أى غموض فى أمرنا هذا ، بل يدرك كل امرىء مقتضياته ، فليعرف الجميع بمقتضى هذا أنهم ان كانوا الآن يمتلكون قطعة أرض أو منزلا أو بستانا أو أى شىء آخر من ممتلكات الأشخاص المتقدم ذكرهم ، فمن الخير لهم ومن النافع أن يعترفوا بحقيقة الأمر الواقع ، ويردوها من دون ابطاء • ومن الناحية الأخرى ان تبين أن بعض الاشخاص قد جنوا أرباحا وافرة من هذه الممتلكات التى امتلكوها ظلما فاننا نرى أنه ليس من العدل مطالبتهم برد هذه الأرباح • وعلى أى حال يجب عليهم الاعتراف صراحة بمقدار الأرباح التى حصلوا عليها ، ومن أى مصدر حصلوا عليها ، وطلب عفونا عن هذا الخطأ ، وذلك لا مكان التكفير بأى وجه من الوجوه عن مطامعهم السابقة ، ولكى يقبل الله العلى هذا التكفير كعلامة للتوبة ، ويسر بمغفرة الخطية •

الفصل الثامن والثلاثون

كيفية تقديم مثل هذه الطلبات

« وقد يجوز لمن أصبحوا ســادة لمثل هذه الممتلكات (ان جاز تسميتهم بهذه التسمية) أن يؤكدوا لنا ، بطريق الاعتذار عن تصرفاتهم ، أنه لم يكن فى مقدورهم الامتناع عن هذا الامتلاك فى آلوقت الذى عمت فيه منــاظر البؤس بكل صوره المختلفة ، اذ طرد الناس من بيوتهم بقسوة ، وذبحوا بلا رحمة وشردوا بلا رأفة ، وكانت مصادرة أملاك الأبرياء أمراً عاديا ، ولم يتوقف الاضطهاد أو اغتصاب الممتلكات • ان وجد هنالك من يبررون مسلكهم بهذه الأعذار ، ويتمادون فى أطماعهم ، فليعرفوا أن مثل هذا المسلك يجر عليهم القصاص ، سيما وان تصحيحنا لتلك الأخطاء هو ما تتميز به خدمتنا لله العلى • ولذلك فليعلم منذ الآن أنه من الخطر الاحتفاظ بما تكون الضرورة القصوى قد استلزمت أخذه فى الزمن السالف ، سيما وانه من المحتم علينا أن نشجب المطامع الاشعبية ، سواء كان ذلك بالاقناع أو بالتحذير •

الفصل التاسع والثلاثون

يجب على الخزانة اعادة الاراضى والبساتين والمنازل للكنائس

« وان كان لدى الخزانة نفسها شىء مما ذكرنا فيجب عدم السماح لها بالاحتفاظ به • بل عليها أن تعيد الى الكنائس المقــدسة كل ما كانت قد احتفظت به ظلما وقتا ما ، وذلك دون أن تتجاسر برفع صوتها على هــذه الكنائس • لهذا نأمر بأن كل ما يتضح أنه يخص الكنائس بحق ، ســواء تضمنت الممتلكات بيوتا أو حقولا أو بساتين ، أو أى نوع آخر ، يجب أن يعاد بكامل قيمته وبكل نزاهة ، ودون أى انتقاص فى حق الملكية •

الفصل الاربعون

وجوب نقل مقابر الشهداء والجبانات الى ملكية الكنائس

« أما عن الأمكنة التى تشرفت بأن تكون مستودعا لبقايا الشهداء ، والتى لاتزال تحمل ذكريات ارتحالهم المجيد ، فكيف يتسرب الينا أقل شك فى

انها ملك للكنائس ، أو نحجم عن اصدار أوامرنا بهذا المعنى ؟ ويقيننا انه لا يمكن أن يكون هنالك سخاء أفضل ، أو مجهود أجدى وأنفع ، من أن نستخدم تحت ارشاد روح الله ، لكى تعاد الى الكنائس المقدسة ـ كما يأمر العدل ـ تلك الأشياء التى أغتصبها الأشرار المظالمون تحت ادعاءات كاذبة ٠

الفصل الحادى والاربعون

والذين اشتروا ممتلكات تخص الكنيسة
أو قبلوها كهبة يجب عليهم ردها

« وطالما كان من الخطأ فى أوامرنا هذه التى قصد بها أن تشمل كل الحالات أن نتغافل عن الذين حصلوا على مثل هذه الممتلكات بالشراء من الخزانة ، أو احتفظوا بها لما نقلت اليهم فى شكل هبة ، فليتأكد جميع الذين انغمسوا فى شهوة حب الربح بطياشة أنهم بتجاسرهم على اتمام هذا الشراء قد فعلوا كل ما يمكنهم لمنع رأفتنا عنهم ٠ ومع ذلك فانهم لن يحرموا من التمتع بهذه الرأفة على قدر ما تسمح به الظروف فى كل حالة ٠ وهذا هو ما اعتزمنا فعله ٠

الفصل الثانى والاربعون

نصيحة مخلصة لعبادة الله

« والآن نظراً للأدلة المقنعة والواضحة كل الوضوح بأن النكبات التى كانت سابقا تثقل كل الجنس البشرى قد تلاشت من كل مكان فى العالم بقدرة الله القدير ، وفى نفس الوقت بفضل النصائح والمساعدات التى سر بأن يقدمها على أيدينا فى مناسبات كثيرة ، فانه لم يبق أمام الجميع ، أفرادا وجماعة ، الا أن يلاحظوا ويدركوا مقدار عظمة هذه القدرة وجلال تلك النعمة اللتين أبادتا كلية ذلك الجيل من الأشرار ، وأعادتا السعادة للصالحين ، ونشرتاها فى كل الممالك ، وأصبحتا الآن تعطيان كل الضمان لتوقير الشريعة الالهية كما ينبغى ، بكل احترام واجلال ، ولتقديم الاكرام اللازم لمن كرسوا أنفسهم لخدمة تلك الشريعة ٠ لأن هؤلاء ، اذ برزوا وسط الظلام ، عارفين تماما مجرى الحوادث الحاضرة ، يقدمون منذ الآن لوصايا تلك الشريعة الاكرام

والتوقير اللازمين اللذين يتفقـــان مع طبيعتهم الطيبة •
« ونحن نأمر بنشر أوامرنا هذه فى اقطارنا الشرقية (١) »

الفصل الثالث والاربعون

كيف نفذت أوامر قسطنطين

هكذا كانت الوصايا التى تضمنتها الرسالة الأولى التى وجهها الينـــا الامبراطور • وسرعان ما نفذت الأوامر التى تحملهـــا ، لأن كل شيء كان يختلف اختلافا كليا عن الفظائع والأهوال التى كانت ترتكب أيام الطغاة • أما الاشخاص الذين كانت تنطبق عليهم تلك الوصايا فقد انتفعوا من كرم الملك وسخائه •

الفصل الرابع والاربعون

وأمر بترقية المسيحيين فى الوظائف الحكومة ومنع عبدة الأوثان الذين يشغلون مثل هذه الوظائف من تقديم الذبائح

بعد ذلك استمر الامبراطور فى الاهتمام بالامور الجوهرية ، وأولا أرسل الى الأقاليم المختلفة ولاة من المؤمنين ، وان اتضح وجود البعض ممن يميلون لعبادة الأوثان فانه كان يمنعهم من تقديم الذبائح لها • كان القانون ينطبق أيضا على من هم أرفع من حكام المقاطعات مركزا وكرامة ، بل حتى على من يشغلون أرفع المناصب ، أى الحكام الرئيسيين (٢) • فان كانوا مســـيحيين أصبحوا أحرارا ليتصرفوا حسبما يتفق وديانتهم ، والا منعهم القانون من تقديم الذبائح الوثنية •

(١) يبدو أن هذه العبارة الاخيرة كتبت بخط الامبراطور نفسه واعتبرت أنها هى توقيعه كما ورد فى نهاية الفصل الثالث والعشرين •
(٢) كانوا أربعة وهم الذين تولوا حكم الامبراطورية فى أربعة اقطارها

الفصل الخامس والاربعون

قوانين تمنع تقديم الذبائح
وتوصى ببناء الكنائس

بعد هذا مباشرة أذيع قانونان آخران فى وقت واحد تقريبا . قصد بالواحد منع الأرجاس الوثنية التى كانت تمارس سابقا فى كل مدينة ومملكة . وكان يأمر أن لا يقيم أى امرىء تمثالا أو يمارس العرافة ، وغيرها من الاعمال القبيحة ، أو يقدم ذبيحة بأية طريقة . أما القانون الآخر فكان يأمر بتعلية منصات الخطابة والوعظ ، وتوسيع كنائس الله طولا وعرضا ، كأنه كان يتوقع أن كل البشرية تقريبا سوف ترجع من الآن فصاعدا الى عبادة الله اذ قد تلاشى كلية جنون عبادة الأوثان .

وكانت تقوى الامبراطور الشخصية هى التى دفعته للتفكير فى هذه التعليمات وكتابتها الى حكام الأقاليم المختلفة . وكانت الأوامر تقدم اليهم النصيحة أيضا بأن لا يبالوا بانفاق الأموال ، بل أن يطلبوا احتياجاتهم من خزانة الامبراطور نفسها . وأرسلت تعليمات مماثلة أيضا الى أساقفة الكنائس المختلفة . وسر الامبراطور أن يرسل نفس هذه التعليمات الى ، وكانت هذه أول رسالة أرسلها الى شخصيا .

الفصل السادس والاربعون

رسالة قسطنين الى يوسابيوس وأساقفة آخرين بخصوص بناء الكنائس متضمنة كذلك تعليمات لترميم الكنائس القديمة ، وتشييد أخرى جديدة أوسع بمساعدة حكام المقاطعات

« من قسطنطين الظافر ، مكسيموس أوغسطس ، الى يوسابيوس .

« نظرا لأن حكم الطاغية الشرير المستبد قد اضطهد خدام مخلصنا حتى الوقت الحاضر فاننى أعتقد ، بل مقتنع كل الاقتناع ، أيها الاخ الحبيب ، أن مبانى كل الكنائس اما تخربت بسبب الاهمال ، أو لم تلق العناية الواجبة بسبب الفزع من روح العصر الشرير .

« أما الآن ، وقد عادت الحرية ، وطردت الحية (١) من ادارة الشئون

(١) يقصد « ليسينيوس » الذى عرف بالمكر والخداع كالحية .

العامة ، وذلك بعناية الله العلى ، وعلى أيدينا ، فاننا نعتقد أن الجميع يستطيعون أن يروا فعل القوة الالهية ، وأن الذين انحرفوا بسبب الخوف من الاضطهاد ، أو بسبب عـــدم الايمان ، ســـوف يعرفون الله الحق الآن ، ويسلكون فى المستقبل طريق الحياة الذى حسب الحق والاستقامة • أما عن الكنائس التى ترأسها أنت ، وأساقفة الكنائس الأخرى وقسوسها وشمامستها ، الذين تعرفهم ، فانصحهم لكى يكونوا غيورين فى عنايتهم بابنية الكنائس ، فاما أن يرمموا الكنائس الحالية أو يوسعوها ، أو يشيدوا كنائس جديدة ان لزم الأمر •

« كذلك نعطيكم الســـلطة — كما نعطى غيركم عن طريقكم — أن تطلبوا ما يتطلبه العمل ، سواء من حكام الأقاليم أو من الوالى العام • فقد أعطيت اليهم التعليمات لاطاعة أوامر قداستكم بمنتهى السرعة • فليحفظك الله أيها الاخ الحبيب »

وقد أرسلت صورة من هذه الرسالة الى أساقفة الكنائس المختلفة فى كل الأقاليم ، وأرسلت التعليمات كذلك لحكام الأقاليم بنفس المعنى ، وسرعان ما نفذت أوامر الامبراطور •

الفصل السابع والاربعون

وكتب رسالة يشجب فيها العبادة الوثنية

وعلاوة على ذلك فان الامبراطور ، الذى كان ينمو بصـــفة مستمرة فى تقوى الله ، أرسل رسالة لسكان جميع المقاطعات يحذرهم فيها من ضلالة العبادة الوثنية التى سقط فيها الولاة السالفون • وفيها نصح بكل قوة رعاياه للاعتراف بالله العلى ، والاعتراف علنا بولائهم لمسيحه كمخلص لهم • وقد رأيت من الضرورى لكتابى هذا أن أترجم هذه الرسالة أيضـــا ، التى كتبها بخطه ، من اللاتينية ، لكى نستطيع الاصغاء لصوت الامبراطور نفسه متحدثا بهذه الاحساسات فى مسامع كل البشرية •

الفصل الثامن والاربعون

المرسوم الذى أصدره قسطنطين الى شعوب الأقاليم بخصوص ضلالة تعدد الآلهة ، مبتدئا ببعض ملاحظات عامة عن الفضيلة والرذيلة

«من قسطنطين الظافر ، مكسيموس أوغسطس ، الى شعوب الاقطار الشرقية •

« ان كل ما تتضمنه قوانين الطبيعة الثابتة يحمل لكل البشر فكرة شديدة عن بعد نظر العناية الالهية وحكمتها . ولا يمكن لأى انسان ، اتجه عقله فى طريق المعرفة الحقيقية لطلب هذه الغاية ، أن يخامره أقل شك .. فى أن مرئيات العقل السليم ، والمناظر الطبيعية نفسها ، تؤدى الى معرفة الله بتأثير الفضيلة الحقيقية . ولهذا فان العاقل لا يدهش عندما يرى البشرية تتأثر بمشاعر مضادة . لان جمال الفضيلة يصبح بلا جدوى ، ولا يمكن ادراكه ، لو لم تظهر الرذيلة الناحية المضادة لها ، أى طريق الضلال والحماقة . ولذلك نرى الواحد يتوج بالجزاء الحسن ، أما الآخر فيقتص منه الله العلى نفسه .

« والآن ساحاول أن أضع أمام جميعكم بكل وضوح طبيعة آمالى فى السعادة العتيدة .

الفصل التاسع والاربعون

بخصوص والد قسطنطين التقى والطاغيتين دقلديانوس ومكسيميانوس

« لقد تعودت أن أنظر الى الأباطرة السابقين نظرة خالية من كل عطف نظرا لقسوتهم الوحشية . والواقع ان أبى كان هو الوحيد الذى يراعى واجبات الانسانية ، وكان فى تقواه العجيبة يطلب بركة الله الآب على كل تصرفاته . أما الباقون فكانوا بعقلهم غير السليم يشتدون تحمسا فى التصرفات القاسية لا التصرفات الرحيمة . وقد سلكوا هذا الطريق بلا رادع ، وهكذا قاوموا التعاليم الحقيقية كل مدة ملكهم . بل اشتد عنفهم ، حتى انهم وسط السلام العميق أشعلوا نيران الحرب الأهلية ضد مصالح الناس الدينية والعادية .

الفصل الخمسون

وقد خلق الاضطهاد فرصة لأقوال ابولو الذى قيل عنه انه لم يستطيع تقديم أقوال بسبب « الأبرار »

« ويقال انه نحو هذا الوقت تكلم أبولو (١) من مغارة عميقة مظلمة ، بصوت غير بشرى ، معلنا بأن « الأبرار » على الأرض أعاقوه عن التكلم

(١) اله الشمس عند اليونانيين والرومانيين وحامى الشعر والموسيقى .

بالحق ، ولذلك صارت الأقوال التى نادى بها من هيكله مجرد سفسطة • لهذا سمح لخصل شعره بأن تتساقط علامة على الحزن الشديد ، وحزن بسبب الشرور التى لابد أن تحل بالبشرية بسبب انعدام روح الوحى • ولكن لنتأمل فى النتائج المترتبة على هذا •

الفصل الحادى والخمسون

لما كان قسطنطين شابا سمع ممن أصدر أوامر الاضطهاد أن « الأبرار » هم المسيحيون

« واننى أشهدك الآن أيها الاله العلى بأننى لما كنت شابا سمعت ذلك الامبراطور ، المعتبر بحق أنه أتعس الأباطرة ، والذى كان يعمل بايحاء الضلال ـ سمعته يستفسر باهتمام من خدامه عمن يكون هؤلاء الأبرار على الارض • فأجابه أحد كهنة الأوثان ، الذى كان حاضرا وقتئذ ، أنهم هم بلا شك المسيحيون • تقبل هذه الاجابة بلهفة كجرعة عسل ، وأشهر سيفه ، الواجب توجيهه للاقتصاص من الجرائم ، ضد من كانت قداستهم بلا لوم • وللحال أصدر تلك الأوامر الدموية المقترنة بالسيوف الملطخة بالدماء • وفى نفس الوقت أمر قضاته بأن يكدحوا قريحتهم ويخترعوا أنواعا جديدة من التعذيب أشد بطشا وهولا •

الفصل الثانى والخمسون

أنواع التعذيب والقصاصات المتعددة التى حلت بالمسيحيين

« وكان المرء يستطيع وقتئذ أن يرى الغطرسة التى يعامل بها كل يوم عبدة الله هؤلاء الموقرون ، بقسوة مستمرة لا تعرف معنى للرحمة ، ووحشية منقطعة النظير ، وكيف أن وداعة الأخلاق هذه ، التى لم يحتقرها أى عدو من قبل ، أصبحت مثاراً لحقد مواطنيهم • أكان هنالك أى قصاص بالنار ، أو أى نوع من التعذيب ، لم يطبق على الجميع بدون تمييز من جهة السن أو الجنس ؟ وعندئذ كان يمكن أن يقال بحق ان الأرض سكبت الدموع ، والسماء حزنت بسبب سفك الدماء ، وأظلم نور النهار نفسه حزنا على ذلك المشهد الأليم •

الفصل الثالث والخمسون

كيف عامل البرابرة المسيحيين بالرفق

« وماذا كانت نتيجة هذا ؟ ان البرابرة أنفسهم يحق لهم أن يفخروا بتصرفاتهم التى كانت تنافى هذه الأعمال القاسية · لأنهم قبلوا من هرب منا وعاملوهم بمنتهى الرقة ، ولم يؤمنوهم من الخطر فحسب ، بل أعطوهم الحرية لممارسة عبادتهم المقدسة · وأصبح الشعب الرومانى الآن يحمل تلك اللوثة الابدية التى وصمهم بها المسيحيون الذين أبعدوا عن الامبراطورية الرومانية والتجأوا الى البرابرة ·

الفصل الرابع والخمسون

أى انتقام حل بمن أثاروا الاضطهاد بمناسبة تلك الاقوال

« وهل هنالك حاجة تدعونى لاطالة الحديث عن تلك الحوادث الأليمة ، والحزن العام الذى شمل كل العالم نتيجة لها ؟ فان مرتكبى هذه الجريمة الشنيعة ليس لهم وجود الآن ، وانتهت حياتهم نهاية تعسة ، وكتب لهم قصاص أبدى فى أعماق العالم السفلى · ولقد اشتبكوا بعضهم مع بعض فى حروب أهلية ، ولم يتركوا وراءهم اسما ولا خلفا · ويقينا انه كان من الممكن أن لا تحل بهم هذه المصيبة قطعا **لولا أن هذا الانقاذ الاثيم للاقوال البيثيينية قد عمل فيهم عمل الضلال والزيغان** ·

الفصل الخامس والخمسون

تمجيد قسطنطين لله ، واعترافه بعلامة الصليب وصلاته من أجل الكنائس والشعب

« والآن أتوسل اليك أيها الاله القدير أن ترحم وتتراءف على أممك الشرقية ، وعلى شعبك فى هذه الأقطار الذين برحت بهم هذه النكبات الطويلة الأمد ، وتمنحهم الشفاء على يدى عبدك · واننى اذ أقدم هذه الصلاة اليك أيها الاله القدوس ، رب الكل ، لا أقدمها بلا مبرر · فاننى بارشادك

قد دبرت بعض الاجــراءات المحملة بالبركات ، وقدت جيوشك الى النصر تتقدمنى علامتك المقدسة ، ولازلت الى الآن فى كل مناسبة يحل فيها الخطر العام أتتبع علامة كمالاتك حينما أتقدم لملاقاة العدو • لذلك كرست لخدمتك نفسا تلين من حـــدتها المحبة والخوف • لاننى أحب اسمك بالحق ، وأقدم التوقير الكلى لتلك القــوة التى قدمت عنها البراهين الكثيرة لتــأييد ايمانى وانمائه • لهذا أسرع لتكريس كل قواى لتجديد مكان سكناك الكلى القداسة الذى دنسه هؤلاء الأشرار بأرجاسهم وبطشهم •

الفصل السادس والخمسون

صلاته لكى يصير الكل مسيحيين دون الزام على أحد

« ورغبتى ــ من أجل صالح العالم العـــام وخير كل البشرية ــ هى أن يتمتع شعبك بحياة الهدوء والسلام والوئام • فليتمتع اذن من لا يزالون يسيرون بالضلال بنفس السلام والهدوء اللذين يتمتع بهما المؤمنون • لان اعادة المساواة للجميع فى كل الامتيازات قد تنجح فى أن تقودهم الى الطريق المستقيم • يجب أن لا يزعج أحد أى شخص آخر ، بل ليعمل كل واحد وفق ما تشتهيه نفسه • انما ليتأكد سليمو العقول من هذا أن الذين يستطيعون أن يحيوا حيـــاة القداسة والطهارة هم فقط الذين تدعوهم للاعتمـــاد على نواميسك المقدسة • أما من يريدون الابتعاد عنا فليقيموا هياكل أكاذيبهم ان أرادوا ، وأما نحن فان لنـــا بناء حقك المجيد الذى أعطيته لنـــا كبيتنا الاساسى • ونحن نصلى على أى حال أن ينالوا هم أيضا نفس البركة ، وهكذا يختبرون ذلك الفرح الذى تبعثه وحدة المشاعر •

الفصل السابع والخمسون

وقدم المجد لله الذى وهب النور بابنه لمن كانوا فى ضلالة

« ويقيننا ان عبادتنا ليست أمرا مســتحدثا ، ولكنك قد رتبتها لمجدك منــذ خلق هـــذا الكون كما نعتقد • وبالرغم من أن البشرية قد سقطت ، وتعمقت فى السقوط ، وأغويت بضلالات كثيرة ، فانك أعلنت نورا صافيا فى شخص ابنك ، لكى لا تكون لقوة الشر السيادة الكاملة ، وهكذا اعطيت كل البشر شهادة عن نفسك •

الفصل الثامن والخمسون

تمجيده اياه ثانية من أجل ادارته للكون

« وهذه الحقيقة تؤكدها لنا أعمالك • فقوتك هى التى تزيل اثمنا وتجعلنا مؤمنين • والشمس والقمر لهما سيرهما الثابت • والنجوم تتحرك فى أفلاك معلومة حول هذه الكرة الارضية • وتعاقب الفصـــول يحدث وفق نواميس لا تخطىء • ومادة الارض الصلبة خلقت بكلمتك • والرياح تتقبل بواعثها فى أوقات محددة • ومجرى المياه يستمر بلا انقطاع • والمحيط تحيط به حواجز لا تتزحزح • وكل ما تحتويه الارض والبحر انما صنع من أجل غايات عجيبة وجوهرية •

« ولو لم يكن الامـــر كذلك ، لو لم يدبر كل شىء بحسب مقـــاصد ارادتك ، لعملت القوى الكثيرة المختلفة المتنازعة على تدمير كل الجنس البشرى وهدم مصالحه بلا نزاع • لان تلك العوامل التى تتطاحن بعضها مع بعض كان من الممكن أن توسع دائرة تلك العداوة ضد الجنس البشرى ، ولا تزال تلك العوامل تعمل ولو لم تر بالعين البشرية •

الفصل التاسع والخمسون

تقديمه المجد لله لانه هو معلم الصلاح بصفة مستمرة

« ويليق تقديم الشكر الجزيل اليك يا الله القادر على كل شىء ورب الكل ، لانه كما تعرف طبيعتنا من طرق الانسان المختلفة هكذا تتأيد بالاولى وصايا تعاليمك الالهية لمن استـقامت أفكارهم ، الذين اتبعوا الفضـــيلة الحقيقية باخلاص • أما من لا يسمحون بان يشفوا من ضلالهم فيجب أن لا ينسبوا هذا الا لأنفسهم • لان العلاج الشافى الناجع فى متناول الجميع • انما يجب أن لا يطعن أى واحد فى تلك الديانة التى يشهد الاختبار نفسه أنها طاهرة وبلا عيب • اذن فلنتمتع جميعا من الآن فصاعدا بالامتياز الذى فى متناول أيدينا ، أعنى بركة السلام ، محاولين أن نحفظ ضـــمائرنا طاهرة من كل مايتنافى معه •

الفصل الستون

وفي ختام أوامره قدم نصيحة بان لا يضايق أي واحد قريبه

« ومرة أخرى أقول ان كل من قبل أى شيء اقتناعا بانه حق يجب أن لا يستخدمه لضرر غيره • بل يجب على كل واحد تطبيق ما فهمه وعرفه لمنفعة قريبه على قدر الامكان • والا فليكف عن أية محاولة • لان الكفاح الاختيارى من أجل الخلود شيء ، والزام الآخرين على هذا الكفاح خوفا من القصاص شيء آخر •

« هذه هي كلماتنا ، وقد توسعنا في الحديث عن هذه المواضيع أكثر مما كان يمليه علينا حلمنا كالمعتاد ، لاننا لم نشأ أن نتنكر للايمان الحقيقى أو ننحرف عنه ، سيما ونحن نعرف أن هنالك بعضا يقولون ان طقوس عبادة الهياكل الوثنية وقوة الظلام قد تلاشت بالكلية • وكان الواجب يقضى بان نقدم النصح لجميع الناس أن يلاشوا هذه لو لم تكن روح التمرد الكامنة وراء هذه الضلالات الشريرة لاتزال باقية بعناد فى عقول البعض ، الامر الذى قد يثبط الهمم فى اعادة كل البشرية الى طرق الحق » •

الفصل الحادى والستون

كيف بدأت المنازعات في الاسكندرية حول مسائل تتعلق باريوس

بهذه الكيفية وجه الامبراطور — كسفير قوى لله — حديثه في رسالته الى كل الاقطار ، وفي نفس الوقت حذر رعاياه من الضلالات الخرافية ، وشجعهم على السلوك فى طريق التقوى الحقيقية • ولكنه وسط فرحه بتوقعه نجاح هذه الخطوة تلقى أنباء عن متاعب خطيرة كدرت سلام الكنيسة • وبعد أن اصغى الى هذه الانباء باهتمام شديد جدا ، فكر للحال فى علاج لاستئصال الشر • ويمكن وصف أصل هذه المتاعب على هذا الوجه •

كان شعب الله يقينا فى حالة مزدهرة ، يزدادون فى الاعمال الصالحة • لم يفزعهم خوف من الخارج ، بل ساد الكنيسة من كل جانب سلام عميق بنعمة الله • وفى نفس الوقت كان روح الحسد متحفزا للقضاء على بركاتنا ،

وكان فى البداية قد تسلل خفية ، ولكنه سرعان ما عربد وسط اجتماعات القديسين • وأخيرا وصل الى الاساقفة أنفسهم ، وبعث فيهم روح العداء بعضهم لبعض ، تحت ستار الغيرة على تعاليم الحق الالهى • وهكذا اشتعلت نار شديدة من شرارة صغيرة • وهى وان كانت قد اشتعلت فى البداية فى كنيسة الاسكندرية الا أنها انتشرت فى كل أرجاء القطر المصرى وليبيا ، ووصلت حتى الى طيبة • وأخيرا وصل تدميرها الى سائر أقطار ومدن الامبراطورية • وهكذا لم يتراشق رؤساء الكنائس فقط بالكلام بعضهم مع بعض ، بل انقسم الشعب نفسه انقساما كاملا ، فالتصق البعض بهذا الحزب ، والاخرون بحزب آخر • وأصبحت التصرفات قبيحة جدا حتى تعرضت أقدس التعاليم الالهية للهزء والسخرية فى نفس محافل غير المؤمنين •

الفصل الثانى والستون

بخصوص أريوس هذا والميليتيين

وهكذا أثار البعض فى الاسكندرية نزاعا عنيفا حول المسائل الجوهرية • واختلف الآخرون فى القطر المصرى وطيبة العليا بسبب منازعة سابقة • وبذلك ارتبكت الكنائس فى كل مكان بسبب الانقسامات • واذ اعتل الجسد سرت العدوى الى كل أرجاء ليبيا • وسرى نفس الخلل الى سائر الارجاء البعيدة • لان مثيرى النزاع فى الاسكندرية أرسلوا سفراء عنهم الى أساقفة الاقطار المختلفة الذين شايعوا أحد الطرفين ، واشتركوا فى نفس روح المنازعة •

الفصل الثالث والستون :

كيف أرسل قسطنطين رسولا ورسالة لاستتباب السلام

ولما علم الامبراطور بهذه الامور التى انكسر قلبه حين سمعها ، وفكر فيها معتبرا أنها مصيبة تسىء اليه شخصيا ، اختار من بين المسيحيين الموالين له شخصا يعرف عنه تماما أنه متصف بالرزانة والوقار والاخلاص فى الايمان (١) ، وكان يمتاز بالجرأة والشجاعة ، وأرسله ليتوسط بين الحزبين المتنازعين فى الاسكندرية ويسعى لايجاد السلام بينهما (٢) • وحمله كذلك

(١) « هوسيوس » أسقف قرطبة • وكان يعمل وقتا ما كمستشار للامبراطور قسطنطين •

(٢) ويقول البعض انه خوله السلطة أن يكون حكما •

رسالة هامة لمثيرى النزاع • وتبين هذه الرسالة عنايته الشديدة وسهره على شعب الله ، وقد يكون من المناسب اثباتها فى سفرنا هذا الذى يبحث عن سيرته • وهى كما يلى :

الفصل الرابع والستون

رسالة قسطنطين الى الاسكندر الاسقف وأريوس القس (١)

« من قسطنطين الظافر ، مكسيموس أوغسطس ، الى الاسكندر وأريوس •

« اننى اشهد الله ، معينى فى كل مساعى ، وحافظ كل البشر ، كما أشهد أنا أيضا ، بان غايتى من مسعاى الذى أقوم به الآن مزدوجة •

الفصل الخامس والستون

قلقه المستمر من أجل السلام

« أما غايتى فهى أولا أن أوحد بين الآراء المختلفة التى أبدتها كل الامم حول اللاهوت ، وثانيا أن أعيد الصحة الى العالم المعتل الذى يرزح تحت علل أليمة جدا • واذ وضعت هاتين الغايتين نصب عينى فكرت فى اتمام الواحدة بعين التفكير السرى ، وحاولت اتمام الاخرى بالقوة الحربية • لاننى كنت واثقا باننى ان نجحت فى ايجاد الوحدة والوئام ـ وهذا ما أرجوه ـ بين جميع خدام الله تغير مجرى كل الامور تغييرا يتفق مع رغباتهم النقية •

الفصل السادس والستون

كيف سوى أيضا المنازعات التى ثارت فى أفريقيا

« واذ وجدت أن كل أفريقيا سادها روح الجنون والحماقة الذى لايطاق ، على أيدى من بطياشتهم تجاسروا على تمزيق ديانة الشعب الى شيع مختلفة ، فكرت فى وضع حد لهذه المنازعات ، ولم أجد علاجا يتناسب مع الظروف الحاضرة سوى أن أرسل بعضا منكم ليساعدوا على اعادة الوحدة المتبادلة

(١) أنظر الملاحظة فى ذيل صفحة ٧٧ •

بين المتنازعين ، وذلك بعد أن أبعدت عدو البشرية (١) ، الذى أصدر حكمه الغاشم لمنع عقد مجامعكم المقدسة ٠

الفصل السابع والستون

كيف بدأت الديانة فى الشرق

« وان كانت قوة النور الالهى وشريعة العبادة المقدسة قد بدأتا بنعمة الله من أحضان الشرق ، وأضاءتا العالم باشعتهما المقدسة ، فاعتقد بطبيعة الحال أنكم أول من يسعى لخلاص الامم الاخرى ، وفكرت جديا فى طلب مساعدتكم ٠ ولذلك فأننى حالما انتصرت على أعدائى انتصارا حاسما وجهت أول اهتمامى الى هذا الامر الذى أعتبره فى غاية الاهمية ٠

الفصل الثامن والستون

واذ حزن من أجل الانقسام سعى لايجاد السلام

« ويا لعناية الله المجيدة ٠ يا لعمق الجرح الذى لم تجرح به أذناى فقط بل قلبى أيضا عند سماع الاخبار بان الانقسامات تفشت بينكم أشد من تلك التى تفشت فى تلك المملكة (٢) ، حتى انكم أنتم الذين كنت أرجو بمساعدتكم أن أصل الى علاج لاخطاء الآخرين ، أصبحتم فى حالة تحتاج الى علاج أكثر منهم ٠ ومع ذلك فاننى اذ فحصت باعتناء أصل وأساس هذه الخلافات وجدت أن السبب غير جوهرى ، ولا يستحق هذا النزاع العنيف ٠ لذلك أحسست باننى مضطر الى توجيه الحديث اليكم فى هذه الرسالة والالتجاء الى وحدتكم وحكمتكم ، وأدعو العناية الالهية لمساعدتى فى هذه المهمة لكى أضع حدا لمنازعاتكم كخادم للسلام ٠

والان حكموا المنطق ، لاننى آن جاز لى أن أتوقع — بمساعدة قوة أعلى — بان أتمكن بسهولة ، وبالالتجاء الى عواطف الذين سمعونى ، من أن أعيدهم الى حالة أفضل ، حتى وان كان سبب اختلافهم أعظم ، فكيف أتردد فى أن أمنى نفسى بتسوية هذا الخلاف بكيفية أسهل وفى وقت أقصر طالما كان السبب الذى يعوق الوئام والوحدة العامة تافها وعديم الاهمية ٠

---

(١) أى ليسينيوس ٠ وقد اشير فى ك ١ ف ٥١ الى منعه من اقامة المجامع ٠ (٢) أى أفريقا ٠ مشيرا الى انشقاق الدوناتيين ٠

الفصل التاسع والستون

أصل النزاع بين الاسكندر وأريوس ، وكان الاحرى عدم مناقشة هذه المواضيع

« وقد فهمت أن أصل النزاع الحالي هو هذا ، عندما طلبت يا اسكندر من القسوس أن يدلوا بآرائهم حول فقرة معينة فى الشريعة الالهية ، أو بتعبير آخر عندما سألتهم سؤالا يتصل بموضوع عديم الاهمية أصريت يا أريوس بعدم تبصر على نقطة ما كان يصح مطلقا أن تخطر لك على بال ، أو ـ أن كانت قد خطرت ببالك ـ كان يجب أن تطرح فى زوايا النسيان • وهكذا قام النزاع بينكما ، وانتزعت روح الشركة ، وتمزق الشعب المقدس الى أحزاب مختلفة ، ولم يبق بعد أثر لوحدة الجسد الواحد • لهذا أطلب منكما الآن أن تظهرا درجة واحدة من روح الاحتمال والتسامح ، وتقبلا النصيحة التى يقدمها أليكما زميلكما فى الخدمة • وما هى هذه النصحية ؟

« كان خطأ من بداية الأمر الدخول فى مناقشة حول مثل هذه المواضيع ، أو الاجابة عليها عند طرحها للمناقشة • لان نقط المناقشة هذه التى لا تستند الى سلطة الشريعة ، بل بالاحرى لم يحركها الا روح النزاع المنبعث من سوء استخدام أوقات الفراغ ، حتى ولو كان القصد منها رياضة عقلية ، يجب يقينا ان تكون محصورة فى دائرة تفكيرنا الشخصى ، دون التعجل فى طرحها أمام الاجتماعات العامة ، أو توصيلها لآذان الجمهور بطياشة • فما أقل الذين يستطيعون ادراك مثل هذه المواضيع العالية ، الغامضة فى طبيعتها ، ادراكا تاما ، أو تفسيرها بدقة ؟ وحتى لو وجد من هو كفء لهذه الامور فكم شخصا يستطيع هذا الانسان أن يقنعهم ؟ ومن ذا الذى يستطيع معالجة مثل هذه المواضيع المتناهية فى الدقة ، ويضمن أن لا يتعرض لخطر الانحراف عن الحق ؟ لهذا نراه لزاما علينا فى مثل هذه الحالات أن نقتصد فى كلماتنا لئلا نعجز عن اعطاء تفسير دقيق للموضوع الذى أمامنا ، وذلك بسبب نقص مواهبنا ، أو لئلا يعجز سامعونا ، بسبب بطء فهمهم ، عن ادراك ما نقول ادراكا كاملا • ولهذا السبب أو ذاك يتعرض الشعب اما للتجديف أو للانقسام •

الفصل السبعون

حث على الوحدة

« فليقابل اذن بصفحكم المتبادل كل من السؤال الذى وجه بلا تحفظ والجواب الذى قدم بتهور لان سبب نزاعكم لم يكن عن العقائد الجوهرية أو

وصايا الناموس الالهى ، ولا قامت بينكم هرطقة جديدة تتعلق بعبادة الله • والواقع انكم جميعا برأى واحد وفكر واحد (١) • فخير لكم أن تعيدوا شركتكم بعضكم مع بعض •

الفصل الحادى والسبعون

يجب أن لا يكون هنالك نزاع حول الامور التى هى فى حد ذاتها قليلة الأهمية

« وطالما استمر نزاعكم حول هذه المواضيع الصغيرة القليلة الاهمية ، فلا يليق أن يبقى جزء كبير من شعب الله تحت توجيه آرائكم وأنتم منقسمون بعضكم على بعض ، وأعتقد يقينا أن هذه الحالة ليست فقط غير لائقة ، بل هى من الوجهة الايجابية شر • واسمحوا لى ان انعش عقولكم بمثل بسيط كما يلى • أنتم تعلمون أن الفلاسفة طالما اختلفوا فى نقط معينة ، وربما اختلفوا فى درجة معرفتهم حتى وان تمسكوا بنظام واحد • ومع ذلك فان مشاعرهم تتفق بقوة تعاليمهم الواحدة المشتركة • ان صح هذا أليس من المعقول ، من باب أولى ، وأنتم خدام الله العلى ، أن تكونوا برأى واحد فى اعترافكم بالايمان الواحد ؟ وبتفكير أكثر وتبصر أعمق لنتأمل فيما قلت ، لكى نرى ان كان يليق للاخوة – على أساس هذه الخلافات الشفوية التافهة السخيفة – أن يقفوا موقف العداوة نحو بعضهم البعض ، وأن يتمزق اجتماع السنودس الرهيب بهذه الانقسامات ، بسببكم أنتم الذين تتشاحنون بعضكم مع بعض حول نقط تافهة وعديمة الاهمية • هذا أمر مبتذل ، ولا يليق الا بالحماقة الصبيانية ، وبالاحرى لا يتفق مع حكمة الكهنة والرجال العقلاء • فلنتجنب تجارب ابليس هذه بكل فطنة • فان الهنا العظيم ومخلص الكل قد أعطى نفس النور لنا أجمعين • واسمحوا لى أنا خادمه أن أصل الى نتيجة مرضية بارشاد عنايته الالهية ، لكى أستطيع بنصائحى واجتهادى وتحذيراتى الخالصة ، أن أعيد شعبه الى الوئام والشركة • لانه طالما كان لكم – كما قدمت – ايمان واحد ، واحساس واحد نحو ديانتنا ، وطالما كانت الوصية الالهية فى كل أجزائها تحتم علينا

(١) يقول ناشر الترجمة الانكليزية : « يبدو أن الامبراطور لم تكن لديه وقتئذ فكرة كاملة عن أخطاء الهرطقة الاريوسية • لانه بعد انعقاد مجمع نيقية الذى سمع فيه شرحا وافيا عنها كتب خطابا حاسما لكنيسة الاسكندرية يشجب فيها هذه الهرطقة »

ضرورة الاحتفاظ بروح الوئام ، فلا تسمحوا للظرف الذى أدى الى خلاف بسيط بينكم أن يسبب أى انقسام أو انشقاق ، طالما كان غير جوهرى . أقول هذا ولست أقصد الضغط عليكم للاتحاد الكامل فى الرأى بصدد هذه المسألة التافهة مهما كانت طبيعتها الحقيقية . بهذا يمكن الاحتفاظ بكرامة سنودسكم ، والابقاء على سلامة كل الجسد مهما اتسع الخلاف الذى بينكم عن أمور ليست جوهرية . لاننا جميعا لا نتفق فى الرأى فى كل المواضيع ، كذلك لا يمكن أن يكون هنالك ميل واحد أو رأى واحد مشترك فى الجميع على السواء .

« أما عن العناية الالهية فليكن هنالك بينكم ايمان واحد وذهن واحد ورأى متحد من جهة الله . وأما عن منازعاتكم الخبيثة حول أمور قليلة الاهمية أو عديمتها فيجب أن تكون مثل هذه الخلافات قاصرة على تفكيركم الشخصى ، محفوظة فى طى الكتمان ، حتى ان عجزتم عن توحيد مشاعركم .

« والآن ليبق الود المتبادل الغالى ، والايمان فى الحق ، والاكرام اللائق بالله وبالمحافظة على شريعته — لتبق هذه غير متزعزعة بينكم . واستأنفوا شعوركم المتبادل بالصداقة والمحبة والتوقير . أعيدوا للشعب معانقاتهم المعتادة . واعترفوا بعضكم لبعض مرة أخرى بعد أن تطهروا نفوسكم . لانه كثيرا ما يحدث — عندما تتم المصالحة بعد ازالة أسباب العداوة — ان تصبح الصداقة أحلى مما كانت قبلا .

الفصل الثانى والسبعون

وقد سببت له تقواه الشديدة ان يذرف الدموع وبسبب هذه الامور تأجلت رحلته التى كان يزمع القيام بها الى الشرق

« أعيدوا الى أيامى الهادئة ، ولياليى التى لا يزعجها أى مكدر ، لكى يكون الفرح بالنور الذى لا يعتم ، والابتهاج بالحياة الهادئة ، نصيبا لى من الآن فصاعدا . والا اضطررت للاكتئاب والحزن بدموع مستمرة ، وعجزت عن قضاء بقية أيام حياتى فى سلام . لانه ان كان شعب الله — الذين أنا زميلهم فى الخدمة — منقسمين هكذا بين أنفسهم بروح النزاع الردىء بلا روية فكيف يمكن أن أحتفظ بعقل هادىء ؟

وسأقدم لكم الدليل على شدة حزنى من أجل هذه الامور . فمنذ مدة وجيزة زرت نيكوميديا ، وقصدت الذهاب من تلك المدينة الى الشرق مباشرة . وبينما كنت مسرعا اليكم ، وقطعت الشطر الاكبر من المرحلة ،

غيرت خطتى بسبب الانباء التى وصلتنى عن هذا الموضوع ، لكى لا أضطر أن أرى بعينى ما كنت أحسب أننى لن أسمعه • فافتحوا لى اذن منذ الان باتحاد آرائكم ذلك الطريق الى أقطار الشرق الذى أغلقته فى وجهى أنقساماتكم ، واسمحوا لى سريعا أن أراكم وسائر الشعوب الأخرى مغتبطين معا ، وقدموا لله الاعتراف اللائق بلغة الحمد والتسبيح من أجل اعادة الوئام العام والحرية الى الجميع » •

الفصل الثالث والسبعون

استمرار المنازعة دون أن يخمد لهيبها حتى بعد استلام هذه الرسالة

بهذه الطريقة حاول الامبراطور التقى بالرسالة المتقدمة أن يحفظ سلام كنيسة الله • أما الرجل العظيم (١) الذى عهدت اليه الرسـالة فقد قام بواجبه ليس فقط بتسليمها بل أيضـا بتدعيم آراء مرسله • لانه ـ كما قدمت ـ كان متحليا بكل الصفات الفاضلة • أما الشر فكان أخطر من أن يعالج برسـالة واحدة ، لان حدة الطرفين المتنـازعين كانت فى ازدياد مستمر ، ونتائج الشر امتدت الى كل الاقطار الشرقية • وكان الباعث لهذه الامور الغيرة وروح شرير تطلع بعين الحسد الى تقدم الكنيسة •

(١) هوسيوس اسقف قرطبة • انظر ف ٦٣

الكتاب الثالث

الفصل الاول

مقارنة بين تقوى قسطنطين وشر المضطهدين

بهذه الكيفية استمر ذلك الروح ، مبغض الصلاح ، الذى حركه الحسد وهيجه على البركة التى تتمتع بها الكنيسة ـ استمر فى اثارة القلاقل والاضطرابات والانقسام وسط عصر الفرح والسلام • وفى نفس الوقت لم يتغافل الامبراطور المنعم عليه من الله عن الواجبات الخليقة به ، بل أظهر فى كل تصرفاته تناقضا تاما لتلك الشرور المروعة التى ارتكبها أخيرا أولئك الطغاة القساة ، وهكذا انتصر على كل عدو قاومه •

فالطغاة ، من الناحية الواحدة ، اذ كانوا هم أنفسهم بعيدين عن الاله الحقيقى ، عضدوا ـ بكل وسائل الضغط ـ عبادة الآلهة الكاذبة ، أما قسطنطين فانه من الناحية الاخرى أقنع البشر بتصرفاته وأقواله أن هذه ليس لها الا وجود وهمى ، ونصحهم للاعتراف بالاله الحق الواحد •

هم هزأوا بمسيحه بكلمات التجديف ، أما هو فاتخذ مما وجهوا اليه تجديفهم وسيلة لحمايته ، وافتخر بعلامة آلام المخلص • هم اضطهدوا خدام المسيح ، وشردوهم من أوطانهم ، وطردوهم من بيوتهم ، أما هو فاستدعاهم جميعا ، وأعادهم الى أوطانهم وبيوتهم • هم غطوهم بالخزى والهوان ، أما هو فقد رفع قدرهم حتى صاروا موضع حسد الجميع • هم نهبوا أمتعة الاتقياء وباعوها بكيفية مخزية ، أما قسطنطين فانه لم يعوض عن هذه الخسائر فحسب بل أغناهم أيضا بهدايا جزيلة • هم أشاعوا ضد قادة الكنيسة افتراءات خبيثة ، وذلك بأوامرهم الكتابية ، أما هو فانه بالعكس أضفى كرامة على هؤلاء الاشخاص بامجاد شخصية كثيرة ، ورفع قدرهم أسمى مما كانوا قبلا وذلك بأوامره ومراسيمه • هم هدموا بيوت العبادة حتى الاساس ، أما هو فأمر بتوسيع تلك التى لاتزال باقية ، وبناء اخرى جديدة فخمة جدا على حساب الخزانة الامبراطورية •

هم أمروا بحرق الكتب المقدسة وابادتها عن آخرها ، أما هو فامر بنسخ نسخ كثيرة منها ، وتزيينها زينة فخمة (١) على حساب الخزانة الامبراطورية • هم منعوا رؤساء الكنائس منعا باتا من عقد المجامع فى أى مكان وفى أية مناسبة ، أما هو فقد جمعهم فى حضرته من كل قطر ، واستقبلهم فى قصره ، بل فى مكان اقامته الخاص ، وحسبهم أهلا لمشاركته فى بيته وعلى مائدته •

هم أكرموا الارواح الشريرة بالتقدمات ، أما قسطنطين ففضح

(١) يقال ان الغلاف كان يزين بحجارة ثمينة •

ضلالتها ، وبصفة مستمرة كان يوزع الاشياء المهيأة للذبائح على من يحسنون استخدامها . هم أمروا بتزيين الهياكل الوثنية باسراف ، أما هو فلاشى كلية ما كان منها مثارا للخرافات وموضعا للاكرام غير اللائق . هم أخضعوا خدام الله الى أشنع القصاصات ، أما هو فانتقم من المضطهدين ، وأدبهم تأديبات عادلة باسم الله ، وأكرم بصفة مستمرة ذكريات الشهداء الاطهار . هم طردوا عبدة الله من القصور الملكية ، أما هو فوثق فيهم ثقة كاملة فى كل الاوقات ، وعرف أنهم أكثر أمانة واخلاصا من غيرهم . هم – وكانوا فريسة للبخل والطمع – أسلموا أنفسهم باختيارهم لنكبات الشح وقبض اليد ، أما هو ففتح كل خزائنه بروح الكرم المنقطع النظير ، ووزع الهبات بسخاء ونفس عالية . هم ارتكبوا الكثير من جرائم القتل التى لا تحصى ، لينهبوا ثروة فرائسهم أو يصادروها . أما فى مدة حكم قسطنطين فان سيف العدل صدأ فى كل مكان ، وساد الحكم على الشعب وعلى الولاة المحليين فى كل قطر بروح الابوة لا بالضغط والشدة .

ويقينا انه لابد أن يتضح لكل من يتأمل بتدقيق فى هذه الحقائق أن عهدا جديدا قد بدأ يظهر فى الوجود ، وأن نورا لم يكن يعرف من قبل قد بزغ فجأة على الجنس البشرى من وسط الظلام . ويجب أن يعترف الجميع بان هذه يجب نسبتها كلية الى عمل الله الذى أقام هذا الامبراطور التقى ليقف فى وجه جماعة الاشرار الكثيرين .

الفصل الثانى

ملاحظات أخرى عن تقوى قسطنطين وشهادته العلنية لعلامة الصليب

وعندما نذكر أن آثامهم لم يكن لها مثيل ، وأن الجرائم التى تجاسروا على ارتكابها ضد الكنيسة لم يسمع بها من قبل فى أى عصر من عصور العالم ، نرى كيف أحسن الله صنيعه وصنع أمامنا شيئا جديدا ، وأجرى به أمورا لم يدونها التاريخ من قبل ولا شهدها انسان . وأية معجزة أعجب من فضائل امبراطورنا هذا الذى وهبته حكمة الله للجنس البشرى هبة ثمينة ؟ لانه فى الواقع شهد بصفة مستمرة لمسيح الله بكل جراة وأمام كل البشر ، ولم يتردد مطلقا عن الاعتراف العلنى باسم المسيح ، حتى انه بالحرى أراد أن يعرف الجميع بانه اعتبره أعظم شرف أن يرشم على وجهه علامة الصليب المحببة ، وأن يفتخر بانها هى العلامة التى قادته الى الانتصار .

الفصل الثالث

وكانت صورته يعلوها الصليب
وباسفلها الوحش

وعلاوة على هذا أمر برسم صورته على لوحة مرتفعة تقام على واجهة قصره لكي يراها الجميع ، وتوضع فوق رأسه علامة الصليب المحببة ، وتحت الصورة صورة لعدو البشرية البغيض المتوحش (الذى أتلف كنيسة الله بواسطة ظلم الاشرار) ساقطا بسرعة — فى شكل وحش — الى هاوية الهلاك. لان الاقوال الالهية فى أسفار أنبياء الله (١) وصفته بانه وحش وحية ملتوية • لهذا عمل الامبراطور بكيفية علنية صورة للوحش تحت قدميه وأقدام بنيه مضروبا بحربة ، ومطروحا فى أعماق البحر •

بهذه الكيفية قصد أن يصور عدو البشرية الخفي ، وأن يظهر بان مصيره هاوية الهلاك بفضل علامة الصليب المحببة الموضوعة فوق رأسه • وكانت الوان الصورة ذاتها تحمل هذا المعنى • وتدهشنى شدة ذكاء الامبراطور ، الذى عبر — كأنه بالهام الهى — عما تنبأ عنه الانبياء بصدد هذا الوحش عندما قالوا « فى ذلك اليوم يعاقب الرب بسيفه القاسى العظيم الشديد لوياثان الحية الهاربة • ويقتل التنين الذى فى البحر (٢) » • هذا ما مثله الامبراطور تمثيلا حقيقيا صادقا فى الصورة السابق وصفها •

الفصل الرابع

ملاحظة أخرى عن المنازعات التى أثارها أريوس فى مصر

بمثل هذه الامور سر أن يشغل تكفيره • ولكن نتائج ذلك الروح الحسود التى كدرت سلام كنائس الله فى الاسكندرية ، وكذا انشقاق كنائس طيبة ومصر هذه كلها استمرت فى أن تزعج خاطره • لان الاساقفة فى كل مدينة كانوا فى الواقع يتنازعون مع الاساقفة ، وشعبا يقوم ضد شعب ، وأصبحوا يتصادمون بعضهم مع بعض مثل الصخور الخرافية (٣) • بل ان البعض كانوا يذهبون الى ما وراء حدود العقل ، ويتصرفون بطياشة وروح ثورية ، وكانوا يهينون حتى أوامر الامبراطور • على ان كل هذه الامور لم تكن تثير غضبه ، بل بالاحرى كانت تسبب له حزنا فى قلبه ، لانه كان يرثى للحماقة التى أظهرها هؤلاء الاشخاص المتعبون •

---

(١) سيما سفرى الرؤيا واشعيا •

(٢) اش ٢٧ : ١

(٣) Symplegades صخور فى البحر زعم أنها كانت تتقارب بعضها من بعض حتى تحطم كل السفن المارة (آودسا ١٢ : ٦٩)

الفصل الخامس

المنازعة بصدد الاحتفال بعيد القيامة

وقبل هذا الوقت كان هنالك نزاع آخر عنيف جدا ، وظل أثره الشرير في الكنيسة ، أعني اختلاف الرأى بصدد عيد القيامة المجيد • لانه بينما أكد أحد الطرفين وجوب التمسك بالعادة اليهودية ، شدد الطرف الآخر على وجوب مراعاة تكرر الحقبة بالضبط دون الخضوع لسلطان المضلين البعيدين عن نعمة الانجيل •

واذ انقسم الشعب فى كل مكان بهذا الصدد ، واضطربت مراسيم العبادة حقبة طويلة ، لدرجة أن الاختلاف فى الرأى بصدد تاريخ الاحتفال بعيد واحد سبب انقساما شنيعا بين الذين يحتفلون به ، فالبعض كانوا يعذبون أنفسهم بالاصوام وعبوسة الوجه ، والآخرون كانوا يفرحون ويمرحون •• وفى وسط هذه الانقسامات لم يظهر أى واحد يستطيع التفكير فى أى علاج لهذا الشر ، لان النزاع استمر متساوى الحدة بين الطرفين •

كان علاج هذه الخلافات ميسورا فقط لله وحده القادر على كل شىء ، وقد ظهر أن قسطنطين كان هو الوحيد على الارض القادر على أن يكون خادمه فى هذه الغاية النبيلة • لانه حالما علم بالحقائق التى وصفتها ، وأدرك أن رسالته لمسيحيى الاسكندرية لم تأت بالنتيجة المطلوبة ، شحذ تفكيره فى الحال ، وصرح بانه لابد من اشهار الحرب أيضا ، فى أقصى حدودها ، على ذلك العدو الخفى الذى يعكر صفو الكنيسة •

الفصل السادس

كيف أمر بعقد مجمع فى نيقية

فأمر بعقد مجمع عام – كأنه أراد تجريد حملة الهية على ذلك العدو – واستدعى الاساقفة من كل الاقطار ليحضروا على جناح السرعة ، وذلك برسائل أرسلها اليهم معبراً فيها عن تقديره الذى يكنه لهم • ولم يكتف بمجرد اصدار أمر جامد ، لكن كرمه ساعد كثيرا على تنفيذه ، لانه سمح للبعض باستخدام طرق المواصلات العامة ، وقدم للآخرين الخيل الكافية للانتقال • أما المكان الذى اختير لعقد المجمع فكان مدينة نيقية فى بيثينية (وهى مشتقة من لفظة « انتصار ») وكان مناسبا جدا للغرض (١) •

وحالما عرفت من الجميع وصية الامبراطور أسرع كل واحد الى ذلك

(١) وهنا اضاف البعض هذه البعارة « لجودة المناخ »

المكان بارتياح تام ، كأنهم كانوا يتسابقون معا فى ميدان السباق ، اذ كان يستفزهم الاعتقاد مقدما بالحصول على نتيجة سارة من المجمع ، والامل فى سيادة السلام ، والرغبة فى رؤية شئ جديد وغريب فى شخص امبراطور جليل كهذا • وعندما اجتمع الجميع أصبح واضحا بان الاجتماع كان من عمل الله ، لان الاشخاص الذين كانت بينهم فوارق شاسعة ليس فقط فى العواطف ، بل فوارق شخصية أيضا ، وبالرغم من اختلاف البلاد والامكنة والامم ، فقد اجتمعوا كلهم فى مكان واحد ، داخل أسوار مدينة واحدة ، كأنهم قد ضفروا اكليلا عظيما من الكهنة مكونا من أفضل الزهور •

الفصل السابع

المجمع العام الذى حضره اساقفة من كل الامم

هنا اجتمع فى الواقع أبرز خدام الله من كل الكنائس التى انتشرت فى أوربا وليبيا (١) وآسيا • وأصبح بيت واحد للصلاة يكفى ـ كأن العناية الالهية قد وسعته ـ ليسع السوريين والكيليكيين ، الفينيقيين والعرب ، مندوبى فلسطين ومصر ، طيبيين وليبيين ، مع من أتوا من بين النهرين • حضر هذا المجمع أيضا أسقف فارسى ، كذلك لم ينقصه وجود سكيثى فيه • ولقد قدمت بنطس وغلاطية وبمفيلية وكبدوكية وأسيا وفريجية أبرز قادتها • والمقيمون فى الاقطار البعيدة جدا مثل تريس ومقدونية ، اخائية وأبيروس ، حضروا بالرغم من بعد المسافة • حتى من أسبانيا حضر واحد كانت قد ذاعت شهرته ، واتخذ مكانه كفرد عادى فى ذلك الاجتماع العظيم (٢) • ولم يتمكن أسقف المدينة الامبراطورية (٣) من الحضور بسبب تقدمه فى السن ، بل حلّ محله قسوسه • كان قسطنطين هو أول ملك فى أى عصر ضفر اكليلا من الزهور مثل هذا برباط السلام ، وقدمه الى مخلصه كتقدمة شكر من أجل الانتصارات التى أحرزها على كل عدو ، وهكذا أبرز الينا فى عصرنا مثالا للجماعة الرسولية •

---

(١) يقصد أفريقيا •
(٢) أى هوسيوس أسقف قرطبة •
(٣) لا يعرف على وجه التحقيق ان كانت روما هى المقصودة أو القسطنطينية •

الفصل الثامن

وكان الاجتماع مكونا من أفراد من أمم مختلفة كما ورد فى سفر أعمال الرسل

لانه قيل (١) انه فى عصر الرسل اجتمع « رجال أتقياء من كل أمة تحت السماء » • كان من بينهم « فرتيون وماديون وعيلاميون والساكنون ما بين النهرين واليهودية وكبدوكية وبنتس وأسيا وفريجية وبمفيلية ومصر ونواحى ليبيا التى نحو القيروان ، والرومانيون (٢) ، يهود ودخلاء ، كريتيون وعرب • » على أن ذلك الاجتماع كان أقل شأنا من ناحية اخرى أنه لم يكن جميع الحاضرين فيه خداما لله • أما فى الاجتماع الحالى فكان عدد الاساقفة يزيد على مائتين وخمسين (٣) ، وكان القسوس والشمامسة الذين رافقوهم ، وغيرهم من الخدم والحشم لا يحصى عددهم •

الفصل التاسع

فضائل وأعمار المائتين والخمسين أسقفا

اشتهر البعض من خدام الله هؤلاء بالحكمة والفصاحة ، والآخرون بالهيبة والوقار والجلد وقوة الاخلاق ، وجمع غيرهم كل هذه الصفات معا فى حياتهم • كان من بينهم أشخاص متقدمون فى السن ، وكان غيرهم أقل سنا وفى عنفوان قوتهم العقلية • وكان البعض حديثى العهد بالخدمة • وقد أمر الامبراطور بان يقدم اليهم كل يوم ما يكفيهم من الطعام •

الفصل العاشر

عقد المجمع فى القصر وإذا دخل قسطنطين اتخذ مكانه فى الاجتماع

ولما حل اليوم المحدد الذى انعقد فيه المجمع لايجاد حل نهائى للمسائل المتنازع عليها كان كل عضو موجودا لاجل هذه الغاية فى البناء المتوسط

(١) اع ٢ : ٥ الخ •
(٢) اى المقيمون فى روما •
(٣) كان العدد بالدقة ٣١٨ أسقفا •

من القصر (١) ، وكان أكثر اتساعا من سائر المبانى • رتبت على جوانب هذا المبنى مقاعد كثيرة احتلها المدعوون وفق درجاتهم • وحالما اتخذ كل واحد مقعده حسب الترتيب اللائق ساد الكل صمت رهيب فى انتظار وصول الامبراطور •

فى بداية الامر دخل بالتتابع ثلاثة من أقرب أفراد أسرته ، ثم دخل آخرون قبله ، لا من الجنود أو الحرس الذين كانوا يرافقونه عادة ، بل من الاخوة فى الايمان • واذ وقف الجميع لدى اعطاء الاشارة المنبئة بوصول الامبراطور ، تقدم هو أخيرا وسط الاجتماع كرسول سماوى من الله ، مرتديا حلة تلمع كأنها تشع منها أشعة النور ، وتعكس أشعة نور ثوب أرجوانى ، مرصعة بالذهب والحجارة الكريمة •

هكذا كان مظهره الخارجى ، أما عن قلبه فكان واضحا أنه يمتاز بالتقوى ومخافة الله • والدليل على هذا احناء رأسه الى الارض ، واحمرار وجهه حياء ، وهيئة وجهه • أما باقى الصفات الشخصية التى امتاز بها فانه فاق جميع الحضرين فى الطول والقامة وجمال الطلعة والهيبة والقوة • كل هذه الصفات متحدة مع دماثة الخلق ورزانة تتفق مع مركزه الامبراطورى بينت أن سمو صفاته العقلية تجل عن كل وصف • وحالما وصل الى طرف المقاعد العلوى ظل فى بداية الامر واقفا ، وعندما وضع له مقعد واطئ مصنوع من الذهب انتظر حتى يشير اليه الاساقفة ، وبعد ذلك جلس ، وبعده جلس كل المجتمعين •

الفصل الحادى عشر

وساد الصمت المجمع بعد كلمة قصيرة القاها الاسقف يوسابيوس

بعد ذلك نهض الاسقف (٢) الذى كان يحتل المقعد الرئيسى فى الصفوف اليمنى من المجمع ، وألقى خطابا موجزا ، موجها الحديث الى الامبراطور ومقدما الشكر الجزيل الى الله القدير نيابة عنه • واذ عاد الى مقعده ساد المجمع الصمت ، واتجهت أعين الكل الى الامبراطور ، وهذا تطلع حوله الى أعضاء المجمع بثغر باسم • وبعد أن استجمع كل تفكيره نطق بالكلمات التالية بكل رقة وهدوء •

---

(١) يقول البعض انه هنا عقدت آخر جلسة للمجمع • أما الجلسات السابقة التى استغرقت اكثر من شهرين فكانت تعقد فى احدى الكنائس • كما يرجحون أن أول جلسة عقدت فى ١٤ يونية وآخر جلسة فى ٢٥ اغسطس •

(٢) يقول البعض أنه هو يوسابيوس نفسه مؤلف هذا الكتاب ولكن لا ندرى كيف كان هذا •

الفصل الثانى عشر

حديث قسطنطيين الى المجمع عن السلام

« كانت أقصى أمنيتى أيها الاحباء الاعزاء أن أتمتع برؤيتكم مجتمعين معا فى وحدة كاملة . والآن ، وقد تحققت هذه الامنية ، أشعر باننى مدين برفع الشكر لله ملك الكل ، لانه علاوة على سائر بركاته الأخرى منحنى بركة أسمى من سائر البركات ، اذ سمح لى بان أراكم لا مجتمعين جميعكم معا فقط ، بل كلكم متحدين فى وئام تام وعواطف واحدة . لذلك أصلى بان لا يتدخل أى عدو شرير من الآن فصاعدا مكدرا صفونا . الآن وقد تلاشت الى الابد عداوة الاشرار الطغاة ، وذلك بقوة الله مخلصنا ، أصلى لكى لا يدبر الروح محب الشر وسائل أخرى لتعريض الشريعة الالهية للتجديف والوشايات ، لأننى أعتقد أن المنازعات الداخلية فى كنيسة الله أشد وبالا وخطرا من أى نوع من أنواع الحروب .

« وتبدو لى خلافاتنا هذه أشد مرارة من أية محنة خارجية . وعندما تم لى الانتصار على أعدائى بارادة الله ومعونته رأيت أنه لم يبق شىء بعد سوى تقديم الشكر اليه ، والاشتراك فى أفراح من أعادهم الى الحرية على يدى .

« وحينما وصلت الى الانباء التى ما كنت أتوقع أن أسمعها قط ، أعنى أنباء انقساماتكم ، اعتقدت بانها لم تكن أمورا ثانوية ، وللحال أرسلت اليكم لتحضروا هنا ، وذلك لرغبتى الشديدة فى ايجاد علاج لهذا الشر . والآن يسرنى أن أراكم مجتمعين . ولكننى أشعر بان أمنيتى تتحقق على الوجه الاكمل عندما أراكم جميعا تتحدون فى رأى واحد ، يسودكم أجمعين روح السلام والوئام الذى يليق بكم أن توصوا به الآخرين كاشخاص مكرسين لخدمة الله .

« فلا تتأخروا أيها الاخوة الاعزاء ، لا تتأخروا يا خدام الله ، وعبيد ربنا ومخلصنا الامناء ، ابدأوا من هذه اللحظة بان تنبذوا أسباب الشقاق الكائن بينكم ، وتتجنبوا مشاكل المناقشات ، وذلك باعتناق مبادىء السلام . بهذا ترضون الله العلى فى نفس الوقت ، وتصنعون احسانا لى أنا زميلكم فى الخدمة . »

الفصل الثالث عشر

كيف قاد الاساقفة المتنازعين الى الاتحاد

وحالما نطق الامبراطور بهذه الكلمات باللغة اللاتينية ، وترجمها شخص آخر ، أعطى الآذن لمن ترأسوا المجلس لابداء آرائهم . فبدأ البعض باتهام اخوتهم ، وهؤلاء دافعوا عن أنفسهم وقذفوا التهم بدورهم . بهذه الطريقة

قدم كل حزب تأكيدات لا حصر لها ، وثارت فى البداية مناقشة حامية ٠ وبالرغم من هذا فقد أصغى الامبراطور للكل على السواء بمنتهى الصبر ، وتقبل كل اقتراح باصغاء تام ، وكان كثيرا ما ساعد كل حزب فى حججه ، وبذلك استطاع أن يوجد السلام بين أعنف المتنازعين ٠ وفى نفس الوقت استطاع برقة حديثه للجميع ، واستخدامه للغة اليونانية التى لم يجهلها جهلا تاما ، أن يكسب ثقة الجميع ، فكان يقنع البعض ، ويقدم الحجج القوية للآخرين ، ويمدح من يحسنون الكلام ، ويحث الجميع على الاتحاد فى الرأى ، الى أن نجح أخيرا فى أن يجعلهم يتحدون برأى واحد فى كل المسائل المتنازع عليها ٠

الفصل الرابع عشر

اتفاق المجمع باجماع الآراء بصدد الايمان وعيد القيامة

وكانت النتيجة أنهم لم يتحدوا فقط بصدد الايمان ، بل اتفقوا جميعهم أيضا على وقت الاحتفال بعيد القيامة المجيد ٠ وتلك النقط التى وافق عليها كل المجمع دونت كتابة ، ووقع عليها كل عضو ٠ واذ اعتقد الامبراطور أنه نال انتصارا ثانيا على عدو الكنيسة شرع فى اقامة احتفال عظيم لمجد الله ابتهاجا بالنصر ٠

الفصل الخامس عشر

كيف أولم قسطنطين الولائم للاساقفة بمناسبة مرور عشرين سنة على ملكه

ونحو ذلك الوقت كان قد مضى عليه عشرون عاما فى ملكه ٠ وبهذه المناسبة أقام شعوب كل الاقطار الاحتفالات العامة ٠ أما الامبراطور نفسه فقد أقام الولائم لخدام الله هؤلاء الذين أوجد السلام بينهم ٠ وهكذا قدم عن طريقهم تقدمة مناسبة لله ٠ لم يكن أى واحد من الاساقفة يعوزه أى شىء فى الوليمة الامبراطورية التى كانت ظروفها فخمة تجل عن الوصف ٠ كان يحيط بمدخل القصر فصائل من الحرس الامبراطورى وغيرهم من الفرق الاخرى ، شاهرى السيوف ٠ تقدم رجال الله مجتازين وسط هؤلاء بلا خوف ، ودخلوا الى مقر اقامة الامبراطور الشخصى ، وهناك جلس البعض معه على مائدته ، واستراح الآخرون على أرائك صفت على الجانبين ٠ وكان يخيل للمرء أن هذا منظر للملكوت المسيح ، وأنه حلم لا حقيقة ٠

الفصل السادس عشر

تقديم هدايا للاساقفة وارسال رسائل الى الشعب عامة

وبعد انتهاء هذه الوليمة الفاخرة استقبل الامبراطور كل ضيوفه بكل رقة ، وأضاف الى كرمة هذا بان قدم بنفسه هدايا لكل فرد حسب رتبهم . كذلك أعطى من لم يحضر معلومات عن اجراءات المجمع ، وذلك برسالة كتبها بخط يده . وانني أسجل هذه الرسالة فى هذا السفر الذى كتبته عن تاريخ حياته . وهى كما يأتى .

الفصل السابع عشر

رسالة قسطنطين للكنائس عن مجمع نيقية

« قسطنطين أوغسطس الى الكنائس

« اذ أصبح لدى البرهان الكامل ، عن مقدار عظمة رحمة الله بنا ، ازاء تقدم الامبراطورية ، رأيت أن تكون أول غاية لمساعى توفر وحدة الايمان ، واخلاص المحبة ، والعواطف المتبادلة فيما يتعلق بعبادة الله القادر على كل شىء ، بين الجماعة الكريمة التى تتألف منها الكنيسة الجامعة . وحيث أن هذه الغاية لم يكن ممكنا تحقيقها تماما الا باجتماع جميع الاساقفة معا أو على الاقل أكبر عدد ممكن منهم ، ومناقشة جميع تفاصيل ديانتنا السامية المقدسة ، لذلك عقد اجتماع ضم أكبر عدد ممكن ، وحضرته بنفسى ، كواحد منكم ، (وحاشاى أن أنكر فرحى العظيم بزمالتى لكم فى الخدمة) ، وبحثت كل مسألة بحثا مستفيضا ، الى أن تم الاتفاق على ذلك القرار الذى أملاه الله المطلع على كل شىء ، والذى أدى الى الاتحاد والوئام . بحيث لم يترك المجال لأية مناقشة مستقبلة أو نزاع فيما يتعلق بالايمان .

الفصل الثامن عشر

وتحدث عن اجماع رأيهم عن عيد القيامة كما هاجم عادة اليهود

« فى هذا الاجتماع بحث موضوع عيد القيامة المجيد ، وتقرر باجماع الآراء احتفال الجميع بهذا العيد فى كل مكان فى يوم واحد . لانه أى شىء أليق وأكرم بنا من أن يحتفل الجميع بكيفية واحدة وبنظام واحد وترتيب معين ، بهذا العيد ، الذى نؤرخ به رجاءنا فى الخلود ؟ ولقد اتضح أول كل شىء أنه لا يليق بأن نراعى فى الاحتفال بهذا العيد المجيد عادة اليهود الذين

لطخوا أياديهم بخطية شنيعة ، فاستحقوا عمى بصيرتهم • لانه فى سلطاننا ، ان تركنا عادتهم ، أن نوصل للاجيال القادمة الترتيب المناسب للاحتفال بهذا العيد بنظام أدق ، وهو-الذى احتفظنا به منذ يوم آلام الرب الى وقتنا الحالى • اذن يجب أن لا يكون هنالك شىء مشترك بيننا وبين جماعة اليهود البغيضة ، لاننا قد قبلنا من مخلصنا طريقة أخرى • هنالك طريق شرعى كريم مفتوح أمام ديانتنا المقدسة • فلنسلك جميعنا أيها الاخوة الاحباء هذا الطريق برأى واحد ، ولنتجنب الاشتراك فى انحطاطهم (١) • لانهم يفتخرون افتخاراً سخيفا باننا ليس فى سلطاننا مراعاة هذه الامور دون تلقى التعليمات اللازمة منهم • وكيف يستطيع أن يعطى رأيا سليما أولئك الذين منذ ارتكابهم تلك الجريمة الشنيعة بقتل ربهم ، قد أصبحوا خاضعين لا للعقل بل للعواطف الجامحة ، ومندفعين بروح الجنون الذى فيهم ؟ ولذلك انحرفوا عن جادة الحق فى هذه النقطة وفى غيرها ، حتى صاروا يحتفلون بعيد الفصح مرتين فى السنة لجهلهم طريقة التصرف الحقيقى فى هذه المسألة •

فلماذا نتبع أولئك الذين يتخبطون فى ظلام الضلال ؟ يقينا اننا لن نرتضى الاحتفال بهذا العيد مرتين فى السنة • وافرضوا أن هذه الادلة ليست قوية كما ينبغى ، فلا يزال أمام فطنتكم أن تجاهدوا وتصلوا بصفة مستمرة لكى لا يبدو أن طهارة نفوسكم قد تلوثت بالاشتراك فى عادات أولئك الاشرار • ويجب أن نعرف أيضا أنه من الخطأ أن تتنافر آراؤنا فى أمر جوهرى كهذا واحتفال دينى كهذا • لان مخلصنا ترك لنا عيدا واحدا تذكارا ليوم خلاصنا ، أعنى يوم آلامه المقدسة • وهو أراد أن تكون كنيسته الجامعة واحدة ، وأن يكون أعضاؤها مسوقين بروح واحد ، أى بارادة الله ، مهما تفرقوا فى أماكن مختلفة • وأرجو أن تفكروا ، بقداستكم وفطنتكم ، كيف يكون الامر محزنا ومخجلا أن ينشغل البعض فى الاصوام فى نفس الايام التى ينشغل فيها الاخرون فى الافراح والاعياد ، وأن يحضر البعض فى الولائم والمسرات بعد عيد القيامة ، بينما يكون الآخرون صائمين • لذلك أراه من الجلى أن ارادة العناية الالهية (وأعتقد أنكم جميعا ترون هذا) تقتضى تصحيح هذه العادة ، واتباع قاعدة واحدة •

الفصل التاسع عشر

نصيحة بالاقتداء باكثرية العالم

« اذن فطالما كان الامر يقتضى تصحيح هذا الوضع ، لكى لا يكون هنالك شىء مشتركا مع تلك الامة القاتلة التى قتلت ربها ، وطالما كان من اللائق

---

(١) يفسر البعض هذه العبارة بانه ان اشترك المسيحيون مع اليهود فى الاحتفال بالعيد بدا كأنهم موافقون على جريمتهم التى بها صلبوا الرب •

اتباع الطريقة اللائقة التى تسلكها كل أرجاء العالم الغربية والجنوبية والشمالية ، وبعض الارجاء الشرقية أيضا ، لهذه الاسباب يرى الجميع باجماع الآراء فى هذه المناسبة الراهنة أنها حرية بالاتباع • وأنا شخصيا تعهدت أن يلقى هذا القرار موافقة فطنتكم ، راجيا من حكمتكم أن تقبلوا برأى واحد تلك العادة المرعية فى مدينة روما وفى أفريقيا ، فى ايطاليا ومصر وأسبانيا وبلاد الغال وبريطانيا وليبيا وكل أرجاء اليونان ، فى أبروشيات أسيا وبنطس وكيليكية • وأرجو أن تذكروا ليس فقط أن عدد الكنائس فى الاقطار التى ذكرتها أكبر منها فى أية أقطار أخرى ، بل أيضا انه من اللائق جدا الاتحاد فى اتباع ما يمليه العقل السليم ، وتجنب كل اشتراك فى تصرفات اليهود المضلة • وقصارى القول — لكى أعبر عن قصدى باقصر عبارة ممكنة — أقول انه قد تقرر باجماع الآراء أن عيد القيامة الجليل المجيد يجب الاحتفال به فى يوم واحد • لان اختلاف الرأى فى موضوع مقدس كهذا أمر غير لائق ، هذا من جهة ، ومن الجهة الاخرى لانه يجب يقينا تنفيذ هذا القرار الذى اتخذ بعيدا عن كل حماقة أو خطأ •

الفصل العشرون

حث على اطاعة قرارات المجمع

« فاقبلوا اذن بكل ارتياح هذه الوصية الالهية ، واعتبروها هبة من الله حقا • لان كل ما اتخذ من قرارات فى اجتماعات الاساقفة المقدسة يجب اعتباره معبرا عن ارادة الله • وحالما توصلون هذه القرارات لجميع اخوتنا المحبوبين فاعلموا بانكم منذ ذلك الحين ملتزمون بمراعاة الترتيب السابق ذكره أنتم أنفسكم ، والزام غيركم بمراعاته ، والاحتفال بذلك اليوم المقدس الاحتفال اللائق ، حتى اذا ما أتيت فى حضرة محبتكم ، الامر الذى طالما تمنيته ، احتفلت معكم بالعيد فى نفس اليوم ، وفرحت معكم بكل شئ عندما أرى أن المعونة الالهية قد أزالت قوة الشيطان وبطشه بفضل مساعينا ، وأن ايمانكم وسلامكم ووئامكم تنتعش فى كل مكان • فليحفظكم الله أيها الاخوة المحبوبون »

وقد أرسل الامبراطور صورة دقيقة من هذه الرسالة الى كل قطر ، وكان كل من يقرأها يرى صورة حقيقية لاخلاصه النقى فى تفكيره وتقواه من نحو الله •

الفصل الحادى والعشرون

وصية للاساقفة — لدى ارتحالهم — لكى يحفظوا الوئام

ولما أوشك المجمع على انهاء جلساته نهائيا استدعى جميع الاساقفة

لمقابلته فى يوم معين • ولدى وصولهم وجه اليهم خطابا وداعيا ، أوصاهم فيه أن يحرصوا على الاحتفاظ بالسلام ، ويتجنبوا المناقشات المؤدية للمنازعات ، وأن لا تدب فى نفوسهم روح الغيرة والحسد اذا ما برز أى واحد منهم فى الحكمة أو الفصاحة ، بل ليعتبروا تفوق أى واحد بركة عامة للجميع •

ومن الناحية الاخرى ذكرهم بان الذين أعطوا مواهب أسمى يجب أن لا يتشامخوا على من هم أقل منهم ، لان الله وحده هو الذى له أن يحكم فى رفعة البشر الحقيقية ، وتفوق الواحد على غيره • والاحرى بهم أن يتنازلوا ويتواضعوا مع الضعفاء ، متذكرين أن الكمال المطلق فى أى أمر انما هو صفة نادرة الوجود • اذن فعلى كل واحد أن يكون مستعدا ليصفح للآخر أخطاءه البسيطة ويغض الطرف عن مجرد الضعفات البشرية ، وعليهم أن يحتفظوا بالوفاق المتبادل كاثمن شىء ، لكى لا يعطوا بمنازعاتهم أية فرصة لمن يريدون التجديف على كلمة الله للاستهزاء بنا ، الذين يجب أن نبذل كل ما فى وسعنا لخلاصهم ، وهذا لن يتم الا اذا بدت تصرفاتنا جذابة لهم •

وأنتم تعلمون تمام العلم تلك الحقيقة وهى أن الشهادة لن تكون مجدية نحو بركة الجميع طالما كان البعض ممن يسمعون لا يبالون الا بالحصول على حاجياتهم الجسدية ، والآخرون يتوددون الى رؤسائهم طالبين رعايتهم ، البعض يحصرون محبتهم فى من يعاملونهم بالكرم والعطف ، والبعض يحبون من يقدمون اليهم هداياهم • وقليلون هم الذين يرغبون رغبة حقيقية فى كلمة الشهادة ، ويندر وجود الصديق الامين •

من هنا كانت الضرورة تحتم السعى لعلاج كل الحالات ، وتقديم العلاج الذى يتلاءم مع كل حالة ، ويؤدى الى صحة النفس ، لكى يكرم الجميع التعاليم المخلصة ويوقروها •

على هذا النسق جرى الجزء الاول من نصائحه • وفى الختام طلب منهم تقديم التضرعات الحارة الى الله من أجله • وقبل أن يغادرهم سمح لهم بالعودة الى بلادهم المختلفة • وهذا فعلوه بفرح • ومن ذلك الوقت استمرت وحدة التفكير التى وصلوا اليها فى حضرة الامبراطور ، والذين طال انقسامهم ارتبطوا معا برابطة واحدة كاعضاء فى جسد واحد •

الفصل الثانى والعشرون

كيف صرف البعض ، وكتب رسائل للآخرين • هداياه

واذ امتلأ الامبراطور فرحا بهذا النجاح قدم ثمارا شبهية فى شكل رسائل لمن لم يحضروا المجمع • وأمر كذلك باعطاء هدايا مالية مناسبة لكل الشعب ، لمن فى القرى ومن فى المدن ، اذ سر بتكريم حفلات الذكرى العشرين لملكه •

الفصل الثالث والعشرون

كيف كتب للمصريين يحثهم على حفظ السلام

والان ، وكانت كل الاقطار فى سلام ، كان المصريون وحدهم لا يزالون فى نزاع عنيف زعزع سلام الامبراطور مرة أخرى ، دون أن يثير غضبه • لانه فعلا عامل الطرفين المتنازعين بكل احترام كآباء ، بل كأنبياء الله • ثم استدعاهم مرة أخرى ، وتوسط بينهم مرة أخرى بحلمه ، وأكرمهم بالهدايا ، وأرسل اليهم نتيجة تحكيمه برسائل • وأيد قرارات المجمع ووافق عليها ، وحثهم على بذل أقصى جهودهم لاتباع السلام ، وعدم تمزيق الكنيسة أو ازعاجها ، بل ليضعوا نصب أعينهم دينونة الله • هذه الوصايا أرسلها الامبراطور برسالة كتبها بخط يده •

الفصل الرابع والعشرون

كيف كتب للاساقفة والشعب رسائل متعددة ذات صفة دينية

وعلاوة على هذه فقد تعددت كتاباته عن مواضيع مماثلة ، وكتب رسائل كثيرة ، بعضها للاساقفة أوصاهم فيها بمراعاة مصالح كنائس الله ، وفى بعض الاحيان كان يكتب هذا الامبراطور المثلث الطوبى رسائل الى شعوب الكنائس بصفة عامة يدعوهم فيها اخوته وزملاءه فى الخدمة • ولعلنا نجد فيما بعد فراغا لجمع هذه الرسائل فى سفر مستقل منعا من اضعاف نزاهة سفرنا التاريخى هذا باثباتها فيه •

الفصل الخامس والعشرون

كيف أمر باقامة كنيسة فى أورشليم فى المكان المقدس الذى تمت فيه قيامة مخلصنا

بعد هذه الامور وجه الامبراطور التقى عنايته لعمل آخر خليق حقا بالتدوين هنا ، وذلك فى اقليم فلسطين • وما هو هذا العمل ؟ لقد وجده محتما عليه أن يقدم خدمة لمكان قيامة مخلصنا من الاموات تسترعى اهتمام الجميع واحترامهم • لذلك أصدر أمرا معجلا باقامة بيت للصلاة فى ذلك المكان • ولم يفعل هذا بباعث من تفكيره الشخصى بل لان المخلص نفسه حرك روحه •

الفصل السادس والعشرون

كيف غطى الاشرار القبر المقدس بالزبالة والاصنام

لانه في الازمنة السالفة سعى الاشرار ، أو اسمحوا لى أن أقول جميع الارواح الشريرة عن طريق هؤلاء الاشرار ، لكى يضعوا فى زوايا النسيان والظلام ذلك المكان الذى هو رمز الهى للخلود ، والذى نزل اليه الملاك البهى من السماء ، ودحرج عنه الحجر من أجل من كانت لا تزال قلوبهم حجرية ، وتوهموا أن الحى كان لا يزال بين الأموات ، وأتى بانباء سارة للنسوة أيضا ، وبدد الشكوك عن قلوبهن الحجرية باقناعهن أن من طلبنه حى ٠

ظن بعض الاشرار الفجار أن يواروا هذه المغارة المقدسة عن أعين البشر بالكلية ، متوهمين بحماقتهم أنهم يستطيعون أن يخفوا الحق ٠ وبناء على ذلك أتوا ببعض الاتربة من مكان بعيد بمجهود شاق ، وغطوا كل المكان ٠ واذ ارتفعوا بهذه الاتربة الى ارتفاع متوسط رصفوه بالحجارة ، وبذلك واروا القبر المقدس تحت هذا الكوم المرتفع ٠ وفى توهمهم بان قصدهم قد تم فعلا ، أقاموا على هذا الاساس قبرا للارواح مرعبا جدا ، ببناء هيكل مظلم للاصنام عديمة الحياة ، للروح الدنس الذى يدعونه الزهرة ، وكانوا يقدمون التقدمات البغيضة هناك على مذابح دنسة لعينة ٠ لانهم توهموا أن غايتهم لن تتحقق تماما الا بتغطية القبر المقدس تحت هذه الارجاس الدنسة القبيحة ٠

يا لتعاسة هؤلاء الناس ٠ لقد عجزوا عن أن يدركوا بانه من المستحيل ان تخفى مساعيهم عن ذاك الذى كلل بالنصر على الموت ، كما لو توهموا بان الشمس المتلألئة ان أشرقت فوق الارض ، وانتصفت فى كبد السماء كعادتها ، لا يستطيع كل الجنس البشرى أن يراها ٠ والواقع ان قوته المخلصة التى تلمع بضياء أبهى وأمجد ، وتضىء لا أجساد البشر بل نفوسهم ، تملأ فعلا كل العالم بضياء نورها ٠ ومع ذلك استمرت تدابير الاشرار الفجار ومؤامراتهم ضد الحق وقتا طويلا ، ولم يفلح أى واحد من الحكم ، أو القادة الحربيين ، أو حتى الاباطرة الذين ظهروا الى الان ــ لم يفلحوا فى احباط هذه المؤامرات الشريرة سوى ذاك الوحيد الذى نال نعمة لدى ملك الملوك ٠

وهذا اذ كان يعمل بارشاد روح الله ، لم يحتمل أن يرى الموضع المقدس السابق ذكره متواريا بهذه الكيفية بسبب مؤامرات الاعداء وفجورهم ، ومتروكا فى زوايا الجهل والنسيان والاهمال ٠ كذلك لم يطاوعه قلبه أن يخضع لشر أولئك الذين ارتكبوا هذه الجريمة ، بل طلب المعونة الالهية ، وأعطى الاوامر لتطهير المكان تطهيرا كاملا ، قائلا بان الامكنة التى أمعن العدو فى تدنيسها يجب أن تنال أعظم مظاهر العناية الالهية على يديه ٠

وحالما أصدر أوامره طرحت كل وسائل الضلال هذه من كبريائها وعليائها الى الارض ، وهدمت بل خربت تخريبا كاملا مساكن الفجور وتماثيلها والارواح الشريرة التى كانت تمثلها ٠

الفصل السابع والعشرون

كيف امر قسطنطين بنقل انقاض هيكل الوثن والاتربة نفسها الى مسافة بعيدة

ولم تقف غيرة الامبراطور عند هذا الحد ،بل أعطى أوامر أخرى بنقل انقاض ما هدم ، الحجارة أو الاخشاب ، الى مسافة بعيدة جدا عن ذلك المكان ٠ وسرعان ما نفذت هذه الاوامر أيضا ٠ ولم يكتف الامبراطور بما فعل الى هذا الحد ، ولكنه اشتعل بالغيرة المقدسة وأصدر أوامر أخرى بحفر الارض نفسها الى عمق معقول ، ونقل الاتربة التى تلوثت بارجاس عبادة الشياطين الى مسافة بعيدة ٠

الفصل الثامن والعشرون

اكتشاف القبر المقدس

وقد نفذت هذه الاوامر أيضا من دون ابطاء ٠ وحالما ظهر وجه الارض الاصلى الذى كانت الاتربة قد غطته ، اكتشفت الاثر المبارك المقدس الذى لقيامة مخلصنا ، وذلك بعكس انتظار الجميع ٠ وكأن هذا القبر المجيد قد قدم رمزا جليلا لقيامة الرب من الاموات ، لانه (أى القبر) بعد أن ظل طويلا مدفونا فى الظلام برز ثانية الى النور ، وقدم لكل من أتى ورأى المنظر دليلا واضحا ملموسا عن العجائب التى سبق آن تمثلت فى هذا المكان ، الامر الذى شهد عن قيامة المخلص من الاموات بوضوح أكثر من أى صوت آخر ٠

الفصل التاسع والعشرون

كيف كتب لولاة الاقاليم وللاسقف مكاريوس عن تشييد كنيسة

وللحال ـ بعد الاجراءات السابق تدوينها ـ أرسل الامبراطور الاوامر التى تنم عن روح التقوى الحقيقية ، وفى نفس الوقت منح مساعدات مالية

كبيرة ، وأمر ببناء بيت للصلاة فى غاية الفخامة ، يليق بعبادة الله ، وذلك بجوار قبر المخلص • وضع هذه الغاية نصب عينيه وقتا ما ، ورأى عن بعد ، وبحصافة ممتازة ، ما سوف يحـــدث نحو تحقيقها • وأعطى الاوامر لحكام الاقطار الشرقية ليبذلوا كل ما فى وسعهم للانفاق بسعة حتى يتم البناء بغاية الفخامة •• وأرسل كذلك الرسالة التالية للاسقف الذى كان يرأس كنيسة أورشليم وقتئذ ، أثبت فيها عقيدة الايمان المخلصة ، وهى كما يلى :

الفصل الثلاثون

رسالة قسطنطين الى مكاريوس عن بناء كنيسة مخلصنا

« قسطنطين الظافر ، مكسيموس أوغسطس ، الى مكاريوس

« هكذا كانت نعمة مخلصنا ، حتى انه لا توجد أية لغة تستطيع وصف الظرف العجيب الذى سوف أشير اليه • فان بقاء أثر آلامه المقدسه مدفونا تحت الارض تلك المدة الطويلة ، وبقاء أمره مجهولا سنوات عديدة ، الى أن ظهر مرة أخرى الآن لعبيده وذلك بموت ذاك الذى كان عدوا للجميع (١) ، حـدث يفوق كل اعجاب • لانه لو تجمع كل المعتبرين حكماء فى العـــالم ، واتحدوا معا على أن يقولوا شيئا خليقا بهذا الحدث العظيم لعجزوا عن الوصول الى الغاية المرجوة ، ولو فى أبسط صورها •

والواقع أن طبيعة هذه المعجـــزة تفوق طاقة الادراك البشرى كما علت السماويات عن أمور البشر • لاجل هذا فان غايتى الاولى ، بل الوحيدة ، هى أن تزداد غيرة نفوسنا بكل تقوى ووقار ووئام لاكرام الشريعة الالهية كما ان سلطان الحق يظهر نفسه كل يوم بعجائب جديدة • وأرجو بصفة خاصة أن تقتنعوا بما أعتقد أنه واضح للجميع وهو اننى ليس لدى اهتمام أعظم من أن أشيد بناء فخما لأزين ذلك المكان المقدس الذى أزلت عنه ـ بارشاد العناية الالهية ـ ثقل العبادة الوثنية الدنسة ، والذى يعتبر فى تدبير الله مقدسا منذ البداية ، ولكنه يبدو الان أكثر قداسة ، لانه قدم لنا أدلة أكيدة جديدة عن آلام مخلصنا •

(١) مشيرا الى ليســـينيوس الذى مات سنة ٣٢٦ م وهى السنة التى اكتشف فيها قبر المخلص •

الفصل الحادى والثلاثون

يجب أن يفوق البناء كل كنائس العالم في جمال جدرانه وأعمدته ورخامه

« ويحسن بفطنتكم أن تعملوا الترتيبات اللازمة لتوفير كل المواد اللازمة للبناء ، ليس فقط لكى تفوق الكنيسة فى جملتها كل الكنائس الأخرى فى الجمال ، بل لكى تكون أيضا تفاصيل البناء من أجمل ما يمكن بحيث تفوق أجمل الأبنية فى أية مدينة فى الامبراطورية • وفيما يتعلق ببناء الجدران وتزيينها فاننا نخبركم أن صديقنا دراكليانوس Dracilianus نائب الولاة ، وحاكم الاقليم ، قد وصلته التعليمات اللازمة منا • لان تعليماتنا الصالحة لهم هى أن يقدموا الصناع الفنيين والعمال وكل ما ترونه بحكمتكم لازما لنجاح العمل • أما عن الاعمدة والرخام فكل ما ترونه – بعد معاينة تصميم البناء – نافعا وثمينا اكتبوا لنا عنه لكى نحضر من كل اقليم أية كمية أو أى نوع من المواد التى نراها ضرورية بعد قراءة خطابكم ، لانه يليق بان يزين أمجد مكان فى العالم بما هو خليق به من الزينة •

الفصل الثانى والثلاثون

وأعطى التعليمات اللازمة للولاة بخصوص تجميل السقف ، وكذا بخصوص الصناع ومواد البناء

« أما عن سقف الكنيسة فأحب أن أعرف منكم ان كنتم تفضلون أن يغطى بحشوات خشبية ، أو يعمل بطريقة أخرى • وفى الحالة الاولى يجب أن يزين أيضا بالذهب • أما عن باقى الاعمال فارجو أن تعطى قداستكم التعليمات باسرع ما يمكن الى الولاة السابق ذكرهم عما يلزم من الصناع والعمال والنفقات المالية • واحرصوا على أن ترسلوا الينا من دون ابطاء تقريرا لا عن الرخام والاعمدة فحسب بل أيضا عن حشوات السقف ان بدا فى نظركم أن هذه هى أجمل طريقة • ليحفظك الله أيها الاخ المحبوب » •

الفصل الثالث والثلاثون

كيف بنيت كنيسة مخلصنا ، أى أورشليم الجديدة التى سبق أن تنبأ عنها الكتاب المقدس

كانت هذه هى رسالة الامبراطور ، وقد نفذت تعليماته فى الحال • وبناء على هذا بنيت أورشليم جديدة فى نفس الموقع الذى شهد آلام المخلص ، بدلا من تلك التى اشتهرت فى القديم ، والتى منذ أن تلطخت بجريمة قتل الرب حل بها الخراب فى أشنع صوره نتيجة لغضب الله على شعبها الفجار • تجاه هذه المدينة بدأ الامبراطور الآن يقيم أثرا لانتصار المخلص على الموت ، على أن يكون هذا الأثر فى منتهى الفخامة والروعة • ولعل هذه هى أورشليم الثانية الجديدة التى تنبأ عنها الانبياء (١) ، والتى وردت عنها شهادات كثيرة فى الاسفار المقدسة •

وكان أول ما عمله أنه زخرف القبر المقدس نفسه ، باعتبار أنه هو الجزء الرئيسى فى كل البناء ، والأثر المقدس الذى فيه أعلن الملاك للكل بنور مجيد حقيقة تجديد الخليقة التى أعلنت أولا فى شخص المخلص •

الفصل الرابع والثلاثون

وصف بناء القبر المقدس

لذلك وجه الامبراطور بغيرته المتقدة كل اهتمامه أول كل شىء لهذا الأثر على أساس أنه هو الجزء الرئيسى فى كل البناء ، فجمله باعمدة نادرة المثال ، وزينة بافخر زينة فى الوجود •

الفصل الخامس والثلاثون

وصف الايوان والدهليز

بعد ذلك عنى بترك مسافة من الارض متسعة جدا ومكشوفة للسماء • وهذه زينها بأرضية من أفخر الحجارة ، وأحاطها من ثلاثة جوانب بدهاليز طويلة جدا •

---

(١) رؤ ٢١ : ٢ « وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله »

الفصل السادس والثلاثون

وصف الجدران والسقف والزخرفة
وطلاء جدران الكنيسة بالذهب

وفى الجانب المقابل للقبر ، أى الجانب الشرقى ، بنيت الكنيسة نفسها • وهى بناء مجيد مرتفع ارتفاعا عظيما ، ومتسع اتساعا كافيا ، سواء من جهة الطول أو العرض • رصفت أرضـــية هــذا البناء من الداخل ببلاط رخامى مختلف الالوان • أما الجدران من الخارج فقد طليت بحجارة براقة متناسقة لا تقل روعة عن الرخام • وغطى السقف من الخارج بالرصاص لحمايته من مطر الشتاء • وغطى من الداخل بحشوات محفورة ومتلاصقة كان منظرها كبحر متسع فوق كل بناء الكنيسة • واذ غشى بالذهب الصافى أصبح كل البناء يتلألأ كما باشعة نورانية •

الفصل السابع والثلاثون

وصف للدهليز المزدوج على الجانبين
والبوابات الثلاث الشرقية

علاوة على هذا كان هنالك دهليزان على كل من الجانبين بمجموعة عليا من الاعمدة ومجموعة سفلية ، يتناسبان فى الطول مع الكنيسة نفسها • وهذه أيضا كانت أسقفها مزينة بالذهب • وما كان من هـــذه الدهاليز خارج الكنيسة فقد استند الى أعمدة ضخمة ، أما ما كان من الداخل فقد استند الى ركائز حجرية مزينة زينة جميلة سطحية • وكانت هنالك ثلاث بوابات فى الشرق تماما لاستقبال الجماهير الداخلة الى الكنيسة •

الفصل الثامن والثلاثون

وصف لنصف الكرة والاثنى عشر عمودا وسلطانياتها

أمام هذه البوابات كان أهم جزء فى كل البناء أى نصف الكرة (١) . الذى وصل ارتفاعه الى أعلى قمة الكنيسة • وهذا كان يحيط به اثنا عشر عمودا (بعدد رسل مخلصنا) ازدانت تيجانها بسلطانيات فضية كبيرة الحجم قدمها الامبراطور نفسه تقدمة فاخرة لالهه •

---

(١) يعنى المذبح الذى كان على شكل نصف كرة •

الفصل التاسع والثلاثون

وصف للدار الداخلية والبواكى والسقائف

بعد ذلك حوط حول الايوان الذى شغل الفضاء المؤدى الى المدخل أمام الكنيسة . كان هذا يشمل أولا الدار ثم الدهاليز التى على كل جانب ، وأخيرا بوابات الدار . وبعد هذه ، وفى وسط السوق (١) ، كانت بوابات الدخول العامة التى كانت بديعة الصنع ، وكان الذى يمر بها من الخارج يرى المنظر الداخلى الرائع فى الاعجاب .

الفصل الاربعون

عدد تقدمات الامبراطور

أقام الامبراطور هذا الهيكل كأثر خالد لقيامة المخلص ، وزخرفه بمنتهى الفخامة . ثم جمله بتقدمات لا عدد لها ذات جمال منقطع النظير ، ومواد متعددة — ذهب وفضة وحجارة كريمة ، لا يتسع المجال الان لوصف دقة صنعها وفخامتها وعددها .

الفصل الحادى والاربعون

اقامة كنيسة فى بيت لحم وأخرى على جبل الزيتون

وفى نفس المملكة اكتشف الامبراطور مكانين آخرين مكرمين لانهما شهدا مشهدين مقدسين . وهذان أيضا زينهما بمنتهى الفخامة . فالاول قدم له الاكرام الواجب لانه شهد أول ظهور لمجىء مخلصنا ، عندما تنازل بان يولد متخذا جسدا بشريا . والثانى قدسه لانه تذكار صعوده الى السماء من فوق قمة الجبل . واذ شهد بهذا لتوقيره لهذين المكانين خلد فى نفس الوقت ذكرى أمه التى كانت واسطة فى تقديم تلك الخدمات الجليلة للبشرية .

---

(١) كان فى مواجهة كل من الكنائس الكبيرة عادة فناء متسع حيث يقام سوق للبيع والشراء أثناء الاحتفال بعيد الشهيد الذى بنيت الكنيسة على اسمه .

الفصل الثانى والاربعون

وقد شيدت الامبراطورة هيلانة أم قسطنطين هذه الكنائس اذ زارت هذه الاماكن لاغراض دينية

لانها اذ عزمت على القيام بفروض العبادة لله ، ملك الملوك ، وشعرت بالضرورة الموضوعة عليها لتقديم الشكر والصلوات من أجل ابنها ، الذى أصبح الآن امبراطورا عظيما ، ومن أجل أبنائه ، حفدتها ، القياصرة المباركين من قبل الله ، أسرعت بقوة الشباب لتجوب هذه الاراضى المباركة ، بالرغم من تقدم سنها ، اذ كانت موهوبة بالحكمة لدرجة غير عادية ، وتزور فى نفس الوقت الاقطار الشرقية والمدن والشعوب بروح العنف الامبراطورى • وحالما قدمت الاكرام اللازم للارض التى وطئتها قدما المخلص وفقا للكلمة النبوية القائلة « لنسجد عند المكان الذى وطئته قدماه » (١) خلفت ثمار تقواها للاجيال القادمة •

الفصل الثالث والاربعون

ملاحظة أخرى عن كنيستى بيت لحم

لانها بدون ابطاء كرست كنيستين لله الذى كانت تعبده ، واحدة عند المغارة التى شهدت ولادة المخلص ، والاخرى على جبل صعوده • لان ذلك الذى صار « الله معنا » تنازل بان يولد حتى فى كهف على الارض ، وقد دعا العبرانيون مكان ولادته « بيت لحم » • لذلك أكرمت الامبراطورة التقية بتذكارات نادرة مشهد أتعاب مخاض تلك التى ولدت هذا الطفل السماوى ، وجملت المغارة المقدسة بكل فخامة ممكنة • أما الامبراطور نفسه فانه سرعان ما شهد لتوقيره لذلك المكان بتقديم تقدمات جليلة ، وأضاف الى سخاء أمه هدايا قيمة من الفضة والذهب والستائر المطرزة •

كذلك شيدت أم الامبراطور بناء فخما على جبل الزيتون تذكارا لصعود مخلص البشرية الى السماء ، اذ شيدت كنيسة مقدسة وهيكلا على أعلى قمة فى الجبل • والواقع ان التاريخ الصادق ينبئنا بان المخلص أفضى باعلاناته

(١) مز ١٣١ : ٧ حسب الترجمة السبعينية • وهو المزمور ١٣٢ : ٧ حسب ترجمة بيروت •

السرية لتلاميذه فى نفس هذه المغارة (١) • وهنا ايضـــا شهد الامبراطور لاحترامه لملك الملوك بتقديم تقدمات ثمينة متعددة •

هكذا شــــيدت هيلانة أوغسطة Helena Augusta الأم التقية للامبراطور التقى ـ فوق هاتين المغارتين الرمزيتين هذين الاثرين الكريمين الجميلين للعبادة الخليقة بالذكرى الخالدة ، اكراما لله مخلصها ، وبرهانا على غيرتها المقدسة ، بعد أن حصلت من ابنها على المساعدة بسلطانه الامبراطورى• ولم يمض وقت طويل حتى حصدت هذه السيدة المتقـــدمة فى السن أجرا مناسبا لاتعابها • فانها بعد أن قضت كل أيام حياتها ، حتى الشـــيخوخة المتقدمة ، فى أعظم درجات التقدم والتوفيق والنجاح ، وأظهرت بالقول والفعل ثمار طاعتها للوصايا الالهية ، وتمتعت نتيجة لهذا بحياة هادئة وادعة ، محتفظة بقواها البدنية والعقلية التى لم تهن ، نالت أخيرا من الله نهاية تتفق مع حياتها التقية ، وأجرا عن أعمالها الصالحة حتى فى هذه الحياة الحاضرة •

الفصل الرابع والاربعون

كرم هيلانة وأعمالها الخيرية

لانها أثناء تجولها فى الاقطار الشرقية قدمت براهين عديدة على سخائها كامبراطورة ، وكرمها الملكى ، على ســـكان المدن المختلفة كجماعات ، وعلى الافراد الذين تقدموا اليها ، كذلك قدمت للجنود المساعدات الكثيرة بمنتهى السخاء • أما عطاياها للعرايا والمشردين فكانت بنوع خاص غزيرة جدا • أعطت البعض نقودا ، والآخرين كمية وافرة من الملابس • وحررت البعض من السجون أو من عبودية الخدمة فى المناجم ، وأنقذت الآخرين من عسف الاضطهاد ، وأعادت غيرهم من النفى •

الفصل الخامس والاربعون

تصرفات هيلانة الصالحة فى الكنائس

واذ تلألأت صفاتها بسبب مثل هذه الاعمال السابق وصفها فانها لم تهمل تقواها الشخصية نحو الله • فكانت تتردد بصفة مستمرة على كنيسته ، وفى نفس الوقت زينت بيوت الصلاة بتقدمات فاخرة • دون أن تغض النظر عن

(١) لعله يشير الى حديث المسيح لتلاميذه على جبل الزيتون الوارد فى مت ٢٤ •

كنائس المدن الصغيرة . وبالايجاز لقد كانت هذه السيدة العجيبة ترى مرتدية ملابس بسيطة ومحتشمة ، مختلطة بجماهير المصلين ، ومبرهنة على تقواها لله بنفس الطريقة التى سلكتها فى تصرفاتها الصالحة .

الفصل السادس والاربعون

كيف كتبت وصيتها وماتت فى سن الثمانين

وعندما دنت نهاية حياتها الطويلة ، ودعيت لترث نصيبا أفضل ، وكانت قد وصلت سن الثمانين ، وحان وقت ارتحالها ، أعدت ونفذت وصيتها الاخيرة من نحو ابنها الوحيد ، الامبراطور والملك الوحيد فى كل العالم ، ومن نحو حفدتها أبنائه القياصرة ، تاركة لهم كل ما امتلكته من عقار فى كل أرجاء العالم . واذ كتبت هذه السيدة المثلثة الطوبى وصيتها على هذا الوجه ماتت بحضور ابنها العظيم ، الذى كان وقفا بجوارها ، معتنيا بها وممسكا بيديها . وقد بدا لكل من شهدوا هذا المنظر أن هذه السيدة المثلثة الطوبى لم تمت ، ولكنها قد تغيرت تغييرا فعليا من الوجود الارضى الى السماوى ، لان نفسها لبست شكلا ملائكيا وانتقلت الى حضرة مخلصها (١)

الفصل السابع والاربعون

كيف دفن قسطنطين امه
وكيف أكرمها فى حياتها

وقد أكرمت جثتها بمظاهر الاحترام الخاصة ، اذ كان يحف بها من الجانبين عدد هائل من الحرس فى طريقها الى العاصمة ، وهنالك وضعت فى مقبرة ملكية . هكذا كانت الايام الاخيرة لأم امبراطورنا ، تلك الشخصية الخليقة بالذكرى الخالدة ، سواء بسبب تقواها العملية أو لانها أنجبت هذا الابن العجيب غير العادى . وان أخلاقه الخليقة بان تدعى مباركة من أجل محبته البنوية لامه ، ومن أجل أسباب أخرى . فانه قد جعلها بنفوذه تتقى الله وتعبده (مع أنها لم تكن كذلك من قبل) ، حتى كانت تبدو كأنها تعلمت من البداية من مخلص البشرية . وعلاوة على هذا أكرمها اكراما ساميا جدا ،

(١) كانت وفاتها حوالى سنة ٣٢٧ أو ٣٢٨ .

حتى انها فى كل قطر ، بل حتى كان الجميع فى كل قطر بل حتى فى وسط صفوف الجيش يلقبونها أوغسطة (Augusta) وآمبراطورة ، وطبعت صورتها على نقود ذهبية .

ثم انه منحها سلطة حتى على الخزائن الامبراطورية ، لكى تتصرف فيها كما تريد ، وعلى يدى ابنها نالت هذا الامتيـــاز الذى كانت تحسد عليه . ولذلك فانه من ضمن الصفات التى تضفى مجدا على ذكراه يحق لنا أن نذكر تلك المحبة البنوية الممتازة جدا التى بها قدم طاعة كاملة للوصايا الالهية التى تأمر الابناء بتقديم الاكرام الواجب لوالديهم .

بهذه الكيفية تمم الامبراطور فى فلسطين تلك المشروعات الجليلة السابق وصفها . والواقع انه فى كل قطر شيد كنـــائس جديدة على نطاق أوسع وأفخم من تلك التى كانت قبله .

الفصل الثامن والاربعون

كيف شيد كنائس اكراما للشهداء ولاشى العبادة الوثنية من القسطنطينية

واذ عزم على تمييز المدينة التى تحمل اسمه ، واكرمها اكراما خاصا ، جملها بابنية مقدسة عديدة ، كتذكارات للشهداء على أوسع نطاق ، أو أبنية أخرى غاية فى الفخامة ، ليس فى المدينة نفسها فحسب بل فيما جاورها . وبهذا أكرم ذكريات الشهداء ، وفى نفس الوقت كرس مدينته لاله الشهداء واذ امتلأ أيضا حكمة الهية اعتـــزم تطهير المدينة — التى تميزت بحمل اسمه — من كل أنواع العبادة الوثنية ، حتى لا يعبد أى تمثال منذ ذلك الوقت فى هياكل تلك الالهة المزعومة ، ولا تتدنس المـــذابح بالدم ، ولا تحـــرق الذبائح ، ولاتقام الاحتفالات الشيطانية ، أو أى شىء من الاحتفالات الأخرى التى اعتاد المشعوذون اقامتها .

الفصل التاسع والاربعون

تمثيل الصليب فى القصر ودانيال فى الفساقى العامة

ومن الناحية الاخرى كان المرء يستطيع رؤية الفســـاقى وسط السوق مجملة بتماثيل تمثل الراعى الصالح المعروف جيدا لكل دارسى الاقوال الحية

المقدسة ، وتماثيل اخرى تمثل أيضا دانيال مع الاسود ، مصبوبة فى نحاس مغشى بالذهب •

والواقع ان محبة الهية عظيمة تملكت نفس الامبراطور ، حتى انه فى الجزء الرئيسى من القصر نفسه ثبت علامة آلام مخلصنا على لوحة هائلة أقيمت وسط السقف المغشى بالذهب • وكانت هذه العلامة مكونة من مختلف الاحجار الكريمة مشغولة بالذهب • ويبدو أنه قصد من اقامة هذه العلامة أن تكون حامية للامبراطورية نفسها •

الفصل الخمسون

وشيد الكنائس فى نيكوميديا وغيرها من المدن الاخرى

واذ جمل المدينة التى تحمل اسمه بهذه الكيفية أراد أن يميز عاصمة بيثنية (١) بتشييد كنيسة فخمة هائلة فيها واراد أيضا أن يقيم فى هذه المدينة على نفقته الخاصة واكراما لمخلصه تذكارا لانتصاره على أعدائه وخصوم الله • كذلك زين المدن الرئيسية فى الاقطار الاخرى بتشييد أبنية مقدسة جميلة جدا فيها • كما حدث مثلا فى عاصمة الشرق التى استمدت اسمها من أنتيوخس (٢) ، والتى شيد فيها ـ على أساس أنها رأس مدن ذلك الجزء من الامبراطورية ـ كنيسة لخدمة الله منقطعة النظير من جهة الحجم والجمال • كان كل البناء محاطا بفضاء هائل الاتساع انتصبت فى وسطه الكنيسة بارتفاع شاهق ومثمنة الجوانب ، يحيط بها من كل الجهات غرف عديدة ودور مختلفة ومساكن علوية وسفلية • وكان يزين الجميع كميات هائلة من الذهب والنحاس والمواد الآخرى الثمينة •

الفصل الحادى والخمسون

كيف أمر ببناء كنيسة فى ممرا

هكذا كانت الابنية الرئيسية المقدسة التى شيدت بناء على أمر الامبراطور • واذ سمع أن نفس المخلص الذى ظهر على الارض من قبل قد

---

(١) اى نيكوميديا حيث عمل قسطنطين حصارا على ليسينيوس واضطره للتسليم • وتذكارا لهذا الحادث شيد هذه الكنيسة •

(٢) وهي أنطاكيا •

أعلن ظهوره الالهى لاشخاص اتقياء فى فلسطين بجوار بلوطة ممرا (١) أمر باقامة بيت للصلاة هناك أيضا اكراما لله الذى ظهر هكذا • وبناء على ذلك صدر الامر الامبراطورى لولاة الاقاليم برسائل موجهة الى كل واحد منهم شخصيا يحثهم على سرعة آنهاء العمل المطلوب • وأرسل ايضا لكاتب هذا السفر التاريخى نصيحة بليغة ، اعتقد أنه من المناسب اثبات صورتها هنا ، لكى تنقل الينا فكرة عن تقواه ، وغيرته المتقدة ولكى يعبر عن استيائه من الشرور التى سمع أنها كانت تمارس فى المكان المشار اليه وجه الى الخطاب التالى •

الفصل الثانى والخمسون

رسالة قسطنطين الى يوسابيوس بخصوص ممرا

« قسطنطين الظافر مكسيموس أوغسطس الى مكاريوس وسائر اساقفة فلسطين (٢) •

« لقد أغدقت علينا حماتى (٣) نعمة جزيلة جدا اذ عرفتنا برسالة عن حماقة وخلاعة وأرجاس اولئك الاشرار التى لم تكتشفوها الى الان ، لكى نستطيع الان علاج هذه الجرائم التى لم تلاحظوها بالعلاج المناسب الضرورى وان كان شاقا • ويقينا انه لاجرام أن تتدنس الأماكن المقدسة بهذه الارجاس • وهذا الذى غاب عن فطنتكم أيها الاخوة الاعزاء قد اضطرت تلك التى أتحدث عنها أن تكشف عنه النقاب مدفوعة بروح الشعور بالمسئولية •

الفصل الثالث والخمسون

ظهور المخلص لابرهيم فى هذا المكان

« فهى أكدت لى أن المكان الذى اشتق اسمه من بلوطة ممرا التى نعرف أن ابرهيم سكن فيها قد دنسه بكل طريقة ممكنة بعض المستعبدين للخرافات • وصرحت بان الاصنام الواجب ابادتها نهائيا قد أقيمت مكان تلك الشجرة ، وأن مذبحا قد أقيم بالقرب من ذلك الموضع ، وأن ذبائح دنسة تقدم بصفة مستمرة • وحيث أنه من الواضح أن هذه التصرفات لا تتفق مع طبيعة

(١) تك ١٨ : ١

(٢) هل مكاريوس هذا هو يوسابيوس ، أم ان يوسابيوس هو ضمن سائر « اساقفة فلسطين » ؟

(٣) يوتروبيا أم زوجته الامبراطورة فوستار •

عصرنا ، ولا تليق بقداسة المكان نفسه ، أردت أن يحاط علم قداستكم أن الكونت أكاشيوس العظيم صديقنا قد أرسلت اليه التعليمات برسالة منى تتضمن بان كل صنم يوجد فى المكان السابق ذكره يجب أن يحرق بالنار فى الحال ، وأن يهدم الهيكل كلية ، وأن أى واحد يرتكب أى نوع من الارجاس فى هذا المكان بعد أمرنا هذا يجب أن ينزل به القصاص العادل ٠

« أما المكان نفسه فقد أمرنا بان يجمل ببناء مقدس ، أعنى كنيسة ، لكى تكون مكانا مناسبا لإجتماعات القديسين ٠ وفى نفس الوقت ان حدث أى تعد على أوامرنا هذه فيجب أن تعرفونا به من دون أقل ابطاء ، وذلك برسائل منكم لكى نصدر الاوامر بالاقتصاص من المعتدى باشد أنواع العقوبة كمتعد على القانون ٠ لانكم لا تجهلون أن الله العلى ظهر أولا لابرهيم ، وتحدث معه فى ذلك المكان ٠ وهنالك بدىء بحفظ الناموس الالهى أولا ٠ هنالك تنازل المخلص نفسه أولا — برفقة اثنين من الملائكة — بان يعلن لابرهيم حضوره الالهى ٠ هنالك ظهر الله أولا للبشر ٠ هنالك أعطى ابرهيم وعدا من جهة نسله العتيد ، وتمم ذلك الوعد فى الحال ٠ هنالك أنبأه مقدما بانه سيكون ابا لجمهور من الامم ٠

« لاجل هذه الاسباب يبدو لى بان هذا المكان خليق ليس فقط بحفظه طاهرا من كل دنس ، وذلك بفضل رعايتكم ، بل أيضا باعادته لقداسته الاصلية ، لكى لا يحصل هنالك شىء قط من الان فصاعدا سوى تأدية العبادة الخليقة بذاك الذى هو الاله القدير مخلصنا رب الكل ٠ وهذه العبادة يتحتم عليكم أن تبذلوا كل جهدكم فى رعايتها ان أردتم قداستكم (وهذا ما أنا واثق منه) أن تتمموا رغبتى التى تنحصر بصفة خاصة فى عبادة الله ٠ فليحفظكم أيها الاخوة الاحباء » ٠

الفصل الرابع والخمسون

هدم مذابح وتماثيل الاوثان فى كل مكان

كل هذه الامور تممها الامبراطور باجتهاد تعظيما لقوة المسيح المخلصة ، وهكذا جعل غايته الدائمة تمجيد مخلصه الله ٠ ومن الناحية الاخرى استخدم كل وسيلة لتوبيخ ضلالات الوثنيين ٠ لذلك تركت مداخل هياكلهم فى المدن المختلفة مفتوحة ومعرضة للتأثيرات الجوية ، اذ نزعت عنها أبوابها بناء على أمره ٠ ونزع السقف عن هياكل أخرى ٠ وفى الهياكل الاخرى كشفت التماثيل النحاسية العظيمة وأصبحت تعرض أمام نظر الجميع فى كل

الاماكن العامة من العاصمة ، وهكذا كنت تجد هنا « بيثيا » (١) وهناك أبولو مبيد الفيران (٢) يثيران احتقار النـــاظرين ، بينما أودعت ركائز دلفى فى الملاعب وفى أرائك آلهة الجمال فى القصر نفسه ٠

وبالايجاز ان المدينة التى حملت أسمه امتلأت بتماثيل نحاسية بديعة الصنع ، كانت مخصصة للعبادة فى كل الاقطار ، وسبق أن أكرمها ضحايا الجهل باعتبار انها آلهة ، وظلوا فى ضلالهم زمنا طويلا ، وقدموا اليها التقدمات والذبائح التى لا تحصى ، ولو انهم الآن أخيرا نبذوا ضلالتهم عندما عرض الامبراطور موضوع عبادتهم لهزء وسخرية جميع الناظرين ٠

أما التماثيل الذهبية فقد تصرف فيها بكيفية أخرى ٠ لانه حالما علم أن الجماهير الجاهلة كانت تخشى وتفزع بطياشة من هذه الاشـــباح المضـــلة ، المصنوعة من الذهب والفضة ، رأى أنه من المناسب ازالة هذه أيضـــا ، اذ كانت أحجار عثرة فى طريق السالكين فى الظلام ، وبذلك يفتح طريقا ملكيا واضحا ومكشوفا ومفتوحا للجميع ٠ ولما اعتزم هذا رأى أن الحاجة لا تدعو الى جنود أو قوات حربية من أى نوع لازالة الشر ، اذ كان يكفى القليلون من أصدقائه للقيام بهذه الخدمة ، وهؤلاء ارسلهم لزيارة كل قطر مبينا لهم رغبته بمجـــرد كلمات بســـيطة ٠ واذ كانوا تدعمهم الثقة فى نوايا الامبراطور الصالحة ، وتقواهم الشخصية من نحو الله ، جازوا وسط القبائل والشعوب التى لا حصر لها ، وأزالوا هذه الضلالة القديمة من كل مدينة وقطر ٠ وأمروا الكهنة أنفسهم ـ وسط ضحك العامة وسخريتهم ـ أن يأتوا بالهتهم المختبئة فى مكان الظلام الى وضح نور النهار ٠ وبعد ذلك نزعوا عنها زينتها ، وبهذا كشفوا لنظر الجميع الحقيقة المخزية التى كانت تختفى وراء المظاهر الخلابة ٠ وأخيرا نزعوا كل المواد الثمينة وصهروها فى النار لتتبين قيمتها ، وبعد ذلك فرزوا كل ما رأوه صالحا لغايتهم ، وتركوا لعبادها الجهلة كل ما وجد عديم القيمة ، كتذكار لخزيهم ٠

وفى نفس الوقت كان ملكنا العجيب منشغلا فى عمل مماثل لما وصفنا ٠ لانه فى الوقت الذى كانت الاشياء الثمينة تنزع من تماثيل الموتى الثمينة هذه كما قلنا كان هو أيضا يهجم على تلك المصنوعة من نحـــاس ، ويأمر بجرها من أماكنها بحبال ، كأنها كانت تحمل الى السبى ، تلك التى كانت الاساطير القديمة تعتبرها الهة ٠

---

(١) Pythian نسبة الى بيثيا كاهنة ابولو فى دلفى ٠

(٢) Sminthian Apollo كان أبولـو يدعى Smintheus اى مبيد الفيران ٠

الفصل الخامس والخمسون

هدم مذبح للاوثان فى « أفاكه » احدى مدن فينيقية وابطال العادات القبيحة بها

وجه الامبراطور بعد ذلك عنايته لاشعال شعلة وضاءة استطاع بنورها أن يحدق بصره لكل ما حوله لكى يرى ان كانت لا تزال هنـــالك أية بقايا للضلال • وكما يستطيع النسر بحـدة بصره أن يكتشف من علو ارتفـاعه الشاهق كل ما هو على الارض ، هكذا استطاع هو ، اذ كان مقيما فى قصره بمدينته الجميلة ، أن يكتشف ــ كما من برج رقيب مرتفع ــ فخــا قتــالا مختفيا لقنص النفوس فى اقليم فينيقية • كان هذا عبارة عن هيكل ، لا وسط أية مدينة أو مكان عام كما جرت العادة ، بل بعيد عن أى طريق مطروق ، فى مكان يسمى « أفاكه » (Aphaca) على احدى قمم جبل لبنان ، وكان مخصصا للروح الدنس المعروف باسم « الزهرة » • كان مدرسة لتعليم الفجور لكل الذين نذروا أنفسهم للدعارة ، والذين دنسوا أجسادهم بالتخنث • كنت ترى هنا رجالا لا يستحقون اسم الرجال ، نسوا شرف جنسهم ، وصــاروا يستعطفون ذلك الروح الدنس بتصرفاتهم النسوية ، وهناك تجارة قبيحة بالنساء والدعارة والمجون وسائر القبائح تمارس فى هذا الهيكل كما لو كانت فى مكان بعيد عن رقابة القانون •

وفى نفس الوقت ظلت هذه الشرور دون رادع من أى انسان لانه لم يجسر أى واحد من ذوى الاخلاق الطيبة أن يذهب الى ذلك المكان •

على أن هذه القبائح لم تغب عن يقظة امبراطورنا العظيم ، الذى أدركها بنفسه ببعد نظره وحصافة تفكيره ، وحكم بان هيكلا كهذا لا يستحق بان يرى نور السماء ، فاصدر الاوامر بهدم البنـــاء بكل ما فيه • واطاعة لامر الامبراطور هدمت آلات الفساد هذه ، وتطهر المكان على أيدى القوات الحربية •

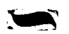
أما من كانوا الى ذلك الوقت يعيشون بلا رادع فقد تعلموا ضـــبط النفس بسبب تهديد الامبراطور لهم بالقصاص • كما أن الامم المدعى الحكمة وجدوا الدليل العملى على جهلهم وحماقتهم •

الفصل السادس والخمسون

هدم مذبح أسكولابيوس (١) فى ايجه (٢)

ونظرا لان مدعى الحكمة أدخلوا فى كيليكية عبادة الشيطان ، الذى كان يوقره آلاف البشر ، متوهمين أنه يملك قوة الشفاء والانقاذ ، وانه يظهر أحيانا لمن يقضـون الليل فى هيكله ، وأنه فى بعض الاحيـان يشفى المرضى من أمراضهم ، مع انه بالعكس كان قتالا للنفوس ، يضل بسهولة عابديه عن المخلص الحقيقى ، لينقلهم الى الضـلالات الدنسة ، فان الامبراطور كعادته ورغبته فى تقدم عبادة ذاك الذى هو اله غيور وهو فى نفس الوقت المخلص الحقيقى ، أمر بهدم هذا الهيكل أيضا من أساسه • واطاعة لهذا الامر بسرعة هدم جماعة من الجنود هذا البناء ، الذى كان موضع اعجاب الفلاسفة ، وهدموا ما كان مختبئا فيه ، الذى لم يكن روحا ولا الها بل مضلا للنفوس ، ظل يخدع البشرية فترة طويلة من الزمن فى أجيال مختلفة • وهكذا رأينا أن ذاك الذى وعد الآخرين بالانقاذ من المصائب والنكبات عجز عن أن يجد وسيلة لانقاذ نفسه ، كما حدث أيضا عندما لفح بضربة البرق كما تقول الاساطير •

وعلى أى حال فان أعمال امبراطورنا الصالحة لم يكن فيها شيء خرافى أو تصنع • ولكنه بفضل قوة مخلصه الظاهرة هدم كلية هذا الهيكل وغيره لكى لا يترك أثرا من الجهالات السابقة •



الفصل السابع والخمسون

كيف نبذ الامم عبادة الاوثان ورجعوا الى معرفة الله

فلما رأى هؤلاء الذين استعبدوا للخرفات افتضاح ضلالهم ، ونظروا الخراب الفعلى الذى حل بالهياكل والتماثيل فى كل مكان ، لجأ البعض الى تعاليم المسيح المخلصة ، أما الآخرون فانهم بالرغم من ترددهم فى اتخاذ هذه الخطوة ، استنكروا الحماقة التى تسلموها من آبائهم ، وهزأوا بتلك التى اعتادوا زمنا طويلا أن يعتبروها آلهة •

وأى شعور آخر كان يمكن أن يتملك عقولهم عنـدما أبصروا النجاسة

---

(١) Aesculapius اله الطب عند اليونانيين •

(٢) Aegae على شاطىء كيليكية •

الكاملة المختبئة وراء المظاهر الجميلة التى بدت فيها الاشياء التى عبدوها ؟ وراء هذه وجدت اما عظام أموات ، او جماجم جافة مزينة بخداع بواسطة فنون السحرة ، أو خرق قذرة مملوءة رجاسة كريهة ، أو حزمة حشيش أو قش • واذ رأوا كل هذه الاشياء مكدسة معا داخل تماثيلهم عديمة الحياة نبذوا حماقة آبائهم المتناهية وحماقتهم هم شخصيا ، سيما عندما لم يجدوا أى نزيل داخل مخابىء تلك الهياكل أو داخل التماثيل نفسها ، لا روح ولا ناطق بالاقوال الحية ، لا اله ولا نبى ، كما كانوا يزعمون من قبل ، كلا ، بل لم يوجد حتى شبح أو خيال •

ولهذا استطاع رسل الامبراطور أن يصلوا بسهولة الى كل مغارة مظلمة وكل مكمن مختبىء ، ووطىء الجنود باقدامهم الغرف السرية التى لم يكن ميسورا الوصول اليها ، ومحاريب الهياكل الداخلية • وهكذا بدا لعيون الجميع بكل وضوح انطماس العقل الذى ظل متسلطا أجيالا طويلة على العالم الوثنى •

الفصل الثامن والخمسون

كيف هدم الامبراطور هيكل الزهرة فى هليوبوليس وبنى أول كنيسة فى تلك المدينة

هذه التصرفات التى وصفتها ، وكذا الاجراءات الحكيمة التى عملها فى كل قطر ، خليقة بأن تعتبر ضمن أجل أعمال الامبراطور • وعلى سبيل المثال نذكر مدينة هليوبوليس الفينيقية التى فيها يعظم البعض الشهوات البهيمية باطلاق لقب ممتاز عليها ، وسمحوا لزوجاتهم وبناتهم بارتكاب الفحشاء بكيفية مخزية •

اما الان فقد صدرت أوامر جديدة من الامبراطور مشبعة بروح الحشمة والوقار تحرم تحريما باتا استمرار تلك التصرفات السابقة • وعلاوة على هذه أرسل اليهم أيضا نصائح كتابية ، كأنه قد أقيم من الله خصيصا من أجل هذه الغاية ، ليعلم جميع البشر مبادىء النزاهة والعفة • ولذلك لم يستنكف من الاتصال كتابة حتى بهؤلاء الناس ، ناصحا اياهم بأن يطلبوا معرفة الله باجتهاد • وفى نفس الوقت تابع أقواله باعمال مماثلة ، وأقام فى نفس هذه المدينة كنيسة عظيمة الاتساع والفخامة • وبهذا تم لاول مرة حدث لم يسمع به من قبل فى أى عصر ، هو أن المدينة التى كانت غارقة بجملتها فى المجون والخرافات نالت الان امتياز بناء كنيسة لله فيها ، بها القسوس والشمامسة ، وأصبح شعبها تحت رعاية أسقف مكرس لخدمة الله العلى • والاكثر من هذا

ان الامبراطور اذ كان يرغب فى ربح أكبر عدد ممكن الى الحق هنا أيضا ، أغدق العطايا على الفقراء ، لعله بهذا أيضا يدفعهم الى طلب تعاليم الخلاص ، كأنه كان يتبع كلمات من قال « سواء بعلة أم بحق ينبغى ان ينادى بالمسيح » (١)

الفصل التاسع والخمسون

الاضطراب الذى حدث فى أنطاكية بسبب يوستاتيوس

فى وسط الاغتباط العام بهذه الحوادث ، وبينما كانت كنيسة الله متقدمة ومزدهرة فى كل أرجاء الامبراطورية ـ فى كل مكان وعلى كل وجه ، أطل برأسه مرة أخرى روح الحسد الذى يسهر بصفة مستمرة لاتلاف كل صلاح ، وبدأ يحارب عظمة تقدمنا • ولعله كان يؤمل بهذا ان يستاء الامبراطور نفسه من ثوراتنا وشغبنا فيتباعد عنا • لهذا أثار جدالا حارا فى أنطاكية ، وجر على الكنيسة فيها سلسلة مصائب مروعة كادت تقلب كل المدينة •

انقسم أعضاء الكنيسة الى حزبين متناقضين ، أما الشعب ، بما فيه الولاة والجيش ، فقد وصلت بهم حدة الجدال الى أنهم كادوا يستعملون السيف لقمع ثورة الجماهير لو لم تتدخل عناية الله الساهرة وخشية غضب الامبراطور •

فى هذه المناسبة أيضا تدخل لامبراطور ، وعمل كمحافظ على النفوس وطبيب لها ، متجلدا بالصبر الكثير ، وقدم علاج الاقناع لمن كانوا فى حاجة اليه ، وبكل رقة استعطف شعبه مرسلا اليهم أحد الاشخاص الامناء الموقرين من بين الذين أكرموا بتلقيبهم بلقب « كونت » • وفى نفس الوقت نصحهم بالرسائل المتكررة للاحتفاظ بروح السلام ، وأرشدهم الى طريق التقوى الحقيقية • واذ نجح بهذا العتاب التمس لهم العذر فى تصرفاتهم وذلك فى رسائله التالية ، قائلا بانه سمع بنفسه تفاصيل الموضوع من الشخص الذى قام الشغب بسببه (٢) •

(١) فى ١ : ١٨ •

(٢) أى يوستاتيوس أسقف انطاكية الذى عزل بسبب تهمة اخلاقية وهذا ادى الى الشغب المذكور هنا • ويقول البعض أن هذا الشغب كان نتيجة دسيسة دبرها يوسابيوس اسقف نيكوميديا لانه كان منافسا له •

أما رسائله هذه المفعمة بالتعاليم السامية فكان يجب اثباتها فى مؤلفى هذا لولا أنها تسجل العار على أخلاق الاشخاص المتهمين • ولذلك سوف أغض الطرف عنها لعدم اثارة ذكريات الماضى الاليمة ، مكتفيا فقط بذكر تلك التى كتبها لاثبات رغبته فى اعادة السلام والوئام بين الباقين •

فى هذه الرسائل حذرهم من اى تفكير فى المطالبة برئيس المنطقة الاخرى الذى بسبب وساطته عاد السلام ، ونصحهم لكى لا يختاروا لهم أسقفا الا من يراه مخلص الجميع لائقا للمركز وذلك حسب عادة الكنيسة • وبناء على هذا وجهت رسالته كما يلى الى كل من الشعب والاساقفة •

الفصل الستون

رسالة قسطنطين الى أهل أنطاكية ناصحا اياهم بعدم سحب يوسابيوس من قيصرية بل ليبحثوا عن شخص آخر

« قسطنطين الظافر ، مكسيموس أوغسطس ، الى شعب انطاكية

« ما أجمل الوئام الكائن بينكم ، وما أحلاه للبشر الحكماء الراشدين • وأنا نفسى أيها الاخوة أرانى مدفوعا لمحبتكم محبة دائمة تبعثها التقوى ويبعثها نوع الحياة التى تحيونها وغيرتكم من نحوى • وان ما يجعلنا قادرين حقيقة على التمتع ببركاتنا هو الفهم المستقيم والفطنة السليمة • وأى شىء أجدى بكم من تلك الفطنة ؟ فلا غرابة اذن ان أكدت بان احتفاظكم بالحق قد أدى الى سلامتكم لا الى بغض الاخرين لكم • والواقع انه لا شىء أكثر كرامة بين الاخوة – الذين يميلون الى السلوك فى طريق الحق بنعمة الله ، والانضمام الى عائلته المقدسة الطاهرة – من أن يسروا بتقدم ورفاهية جميع الناس • سيما وان وصايا الشريعة الالهية تقدم اليكم طريقة أفضل نحو آتمام رغبتكم المقترحة ، ونحن أنفسنا نتمنى أن يدعم رأيكم بالموافقة السديدة •

« ربما تكونون قد اندهشتم وتحيرتم فى فهم ما أقصده من هذه المقدمة لرسالتى هذه • أما السبب اليها فلن أتردد فى شرحه من دون تحفظ • اننى أعترف باننى لدى قراءة رسائلكم أدركت ، مما تحمله من ثناء عظيم وشهادة طيبة ليوسابيوس ، أسقف قيصرية ، الذى أعرفه أنا شخصيا منذ مدة طويلة ، وأقدره بسبب علمه ونزاهته ، وانكم متصلون به اتصالا وثيقا ، وتريدون اتخاذه اسقفا لكم •

وأى فكر تظنون أنه يخامرنى فى هذا الموضوع وأنا أرغب كل الرغبة فى طلب مبادىء العدل والسير بموجبها ؟ ويا للارتباك الذى سببته لى رغبتكم هذه ؟ أيها الايمان المقدس ، الذى تعطينا فى كلمات مخلصنا ووصاياه نموذجا لما يجب أن تكون عليه حياتنا ، كيف هو عسير عليك أن تقاوم خطايا البشر لو كنت لا ترفض أن تسير وراء المكسب . فى رأيى ان من يريد أن يكون غرضه الاول الاحتفاظ بالسلام يظهر بانه أسمى من الانتصار نفسه ، وحيثما وجد طريق مستقيم وكريم متروك لاختيار المرء فمن المؤكد انه لن يتردد أحد فى سلوكه .

« لذلك اسمحوا لى أيها الاخوة بان أتساءل : لماذا نعتزم ايذاء الآخرين بما نختاره ؟ لماذا نطمع فى تلك الامور التى تسىء الى سمعتنا ؟ اننى شخصيا أقدر كل التقدير ذلك الشخص الذى تعتقدون بانه خليق باحترامكم ومحبتكم . ومع ذلك يجب عدم التغاضى عن تلك المبادىء التى ينبغى أن تكون ملزمة وحتمية على الجميع على السواء ، فلا يليق باى واحد أن يكتفى بظروفه ، بينما يتمتع الجميع بامتيازاتهم اللائقة . كذلك ليس من الصواب — لدى مراعاة جانب المنافسين — الاعتقاد بانه لا يوجد ممن يستحقون مقارنتهم مع هذا الشخص سوى شخص واحد ، مع انه قد يوجد الكثيرون . لانه طالما لم تستخدم وسائل العنف لمس كرامة الكنيسة وجب اعتبارهم متساوين معه ، خليقين بنفس الاكرام فى كل مكان .

كذلك ليس من الصواب أن يؤدى التساؤل عن مؤهلات هذا الشخص الى الحط من قدر الباقين ، طالما كانت جميع الكنائس — سواء اعتبرت فى حد ذاتها أعظم أهمية أو أقل — على قدم المساواة فى ممارسة نفس الفرائض الالهية ، وبذا لا تعتبر الواحدة دون الاخرى ، ان أردنا أن نعلن الحق بجسارة من جهة مقياس ممارسة تلك الفرائض التى هى مشاع للجميع . ان كان الامر كذلك وجب علينا القول انكم متهمون لا بالاحتفاظ بهذا الاسقف بل بنقله من مكانه خطأ ، وأن تصرفكم لا يتفق مع العدل ، بل مع العنف ، ومهما كانت أفكار الآخرين فاننى أؤكد بكل جسارة أن هذا التصرف سيكون أساسا لاتهامكم ، وسببا لمشاغبات من أخطر ما يتصور ، لانه حتى البهائم الجبانة تستطيع استخدام قوة أسنانها لما تحرم من رعاية راعيها ، ولما تجد أنها قد حرمت من قيادته المعتادة .

« ان كان الامر كذلك حقا ، وان كنت غير مخدوع فى حكمى فليكن تفكيركم الاول أيها الاخوة — لانه لابد أن تعن لكم أفكار كثيرة فى الحال — هو أن تتساءلوا عما اذا كنتم فى حالة اصراركم على عزمكم تستطيعون الاحتفاظ بتلك المحبة والعواطف المتبادلة (التى ينبغى أن تسود بينكم) من غير نقصان . ومن الناحية الاخرى تذكروا أن ذاك الذى أتى اليكم بقصد تقديم نصيحة غير مغرضة اليكم يتمتع الآن بالجزاء الذى يستحقه فى حكم السماء ،

لانه نال جزاء غير عادى وذلك بالشهادة العظيمة التى شهدتم بها عن أخلاقه الصالحة ·

« واخيرا أظهروا ـ وفق آرائكم السليمة المعتادة ـ اجتهادا لائقـــا فى اختيار الشخص الذى تفتقرون اليه حريصين على أن تتجنبوا كل ضـــجيج يؤدى الى المشاغبات والمنازعات ، لان مثل هذا الضجيج خاطىء دواما ، ومن تصادم عوامل النزاع تتصاعد الشرر والنـار · واننى اذ أريد ارضـــاء الله وارضاءكم ، والتمتع بسعادة تتفق مع تمنياتكم الطيبة ، أســتطيع اقامة الدليل على أننى أحبكم وأحب رقة أخلاقكم ، لانكم قد نبذتم الدنس (١) وقبلتم مكانه فى الحال الاخلاق السليمة والوئام ، وثبتم العلم المقدس فى السفينة التى تسيرها دفة من حديد فى طريقكم الى نور السماء · فاقبلوا على ظهر السفينة اذن تلك البضاعة غير الفاسدة ، طالما كانت كل المياه قد نزحت من قاع السفينة · واحرصوا من الآن فصاعدا على أن تضمنوا التمتع بكل بركاتكم الحاضرة ، لكى لا يظهر فى أى وقت فى المستقبل أنكم قد اتخذتم أية خطوة مدفوعين بغيرة خاطئة ، أو أنكم قد تهورتم فسلكتم طريقا غير ملائم · وليحفظكم الله أيها الاخوة الاحباء » ·

الفصل الحادى والستون

رسالة الامبراطور الى يوسابيوس يمدحه فيها لرفضه أسقفية انطاكية
رسالة الامبراطور الى لدى رفضى أسقفية انطاكية

« قسطنطين الظافر ، مكسيموس أوغسطس ، الى يوسابيوس

« تصفحت بتدقيق رسالتكم ، وتبينت أنكم قد سلكتم بدقة وفق تعليمات الكنيسة · فان التمسك بما يرضى الله ويتفق مع التقاليد الرسولية دليل على التقوى الحقيقية · ويحق لك أن تعتبر نفسك سعيدا لانك حسبت فى رأى كل العالم مستحقا النظارة على أية كنيسة · لان الرغبة التى يبديها الجميع للمطالبة بك أسقفا عليهم لا شك فى أنها ترفع من شأنك · ولكن فطنتكم أدت بكم الى أن تعتزموا مراعاة الفرائض الالهية وقوانين الكنيسة الرسولية ، وحسنا فعلتم اذ رفضـــتم أسقفية كنيسة انطاكية ، وأردتم الاستمرار فى الكنيسة التى تنظرتم عليها أولا بارادة الله · وقد كتبت عن هذا الامر الى

(١) اشـــارة الى خلع يوستاتيوس الذى اتهم بجريمة اخلاقية (انظر الملاحظة فى أسفل صحيفة ١١٥) ·

شعب أنطاكية ، وأيضا الى زملائكم فى الخدمة الذين استشاروني فى الامر . ولدى تصفحكم لهذه الرسائل تتبينون قداستكم بسهولة أنه كما أن العدالة نفسها قاومت طلباتهم فقد كتبت لهم أنا أيضا بارشاد الهى . ومن الضرورى على فطنتكم حضور مؤتمرهم لتصحيح هذا القرار فى كنيسة انطاكية . يحفظكم الله أيها الاخ المحبوب » .

الفصل الثانى والستون

رسالة قسطنطين الى المجمع احتجاجا على نقل يوسابيوس من قيصرية

« قسطنطين الظافر ، مكسيموس أوغسطس ، الى ثيودوتس وثيودورس ونركيسوس وايتيوس وحلفى وسائر الاساقفة الذين فى أنطاكية .

« لقد تصفحت الرسائل التى كتبتها فطنتكم ، وانني أوافق كل الموافقة على ما اعتزمه زميلكم فى الخدمة يوسابيوس . واذ علمت ، علاوة على هذا ، بظروف الموضوع ، أولا من رسائلكم ، ثم من رسائل حبيبنا البارزين أكاشيوس وستراتيجيوس ، وبعد الاستقصاء الكافى كتبت الى شعب انطاكية مقترحا سلوك الطريق الذى يرضى الله ويخدم مصلحة الكنيسة فى نفس الوقت . وقد أمرت بان ترفق صورة من تلك الرسالة بخطابى هذا ، لكى تعرفوا ما رايته مناسبا ان اكتبه لذلك الشعب كمحام يدافع عن الحق ، لاننى وجدت فى خطابكم هذا الاقتراح أن يرأس يوسابيوس ، أسقف قيصرية المبارك ، كنيسة انطاكية وفق اختيار الشعب الذى تدعمه رغبتكم . اما رسائل يوسابيوس نفسه عن هذا الموضوع فيتضح منها أنها تتفق تماما مع الترتيب الذى وضعته الكنيسة . ومع ذلك فاننى أراه مناسبا أن أعلم فطنتكم برأيى أيضا . لاننى علمت أن يوفرونيوس القس الذى من قيصرية كبدوكية وجورجيوس الذى من اريثوسا ، وهو قس أيضا سبق أن رسم على يدى الاسكندر أسقف الاسكندرية ، رجلان محنكان فى الايمان (١) . لذلك كان من اللائق أن أشير على فطنتكم أنكم لدى ترشيح هذين الشخصين وأى أشخاص آخرين ترونهم خليقين بشرف الاسقفية ، يجب أن يكون قراركم فى هذا الامر متفقا مع تقاليد الرسل . لانه فى هذه الحالة يمكن لفطنتكم وفقا

---

(١) كان كلاهما من شيعة أريوس ، ولعل قسطنطين كان يجهل هذا . وقد قال اثناسيوس عن جورجيوس انه « اشر الاريوسيين » .

لقانون الكنيسة والتقليد الرسولى أن توجهوا هذا الاختيار وفقا للطريقة التى ترسمها النظم الكنسية الحقيقية • ليحفظكم الله أيها الاخوة المحبوبون »

الفصل الثالث والستون

كيف أظهر غيرته نحو استئصال الهرطقات

هكذا كانت النصائح التى وجهها الامبراطور لقادة الكنائس ليفعلوا كل ما يؤول الى تقدم الديانة الالهية • واذ استطاع بهذه الوسائل وضع حد للانقسامات ، واعادة الوحدة والوئام الى كنيسة الله ، تقدم بعد ذلك الى واجب آخر لاستئصال نوع آخر من الاشرار كاعداء الداء المجنس البشرى • هؤلاء كانوا بمثابة وبأ للمجتمع ، فاتلفوا مدنا برمتها تحت ثوب خلاب ، هو ثوب اللياقة الدينية ، هم الذين حذر منهم المخلص قائلا عنهم بانهم أنبياء كذبة وذئاب خاطفة « احترزوا من الانبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة • من ثمارهم تعرفونهم (١) » •

بناء على هذا أصدر أمرا الى ولاة الاقطار المختلفة لابعاد مثل هؤلاء الاشخاص المعثرين • وعلاوة على هذا الامر وجه اليهم شخصيا نصيحة شديدة اللهجة يحثهم فيها على التوبة الصادقة لكى يستطيعوا أن يجدوا مرفأ الامان فى كنيسة الله الحقيقية • فاستمع اذن كيف خاطبهم فى هذه الرسالة •

الفصل الرابع والستون

الامر الذى أصدره قسطنطين ضد الهراطقة

« قسطنطين الظافر ، مكسيموس أوغسطس الى الهراطقة

« اعلموا الان من هذا الامر أيها النوفاتيون والفالنتيون والمركيونيون والبولسيون والمونتانيون ، وكل من يدبرون الهرطقات أو يعضدونها بواسطة اجتماعاتكم السرية — اعلموا كيف أن تعاليمكم محبوكة بسلسلة من الاكاذيب والباطل ، بسلسلة من الضلالات الهدامة السامة •

« لهذا تعتل بسببكم النفوس السليمة ، ويصبح الاحياء فريسة للموت الابدى • أنتم يا أعداء الحق والحياة ومبغضوهما ، يا من تحالفتم مع الهلاك

(١) مت ٧ : ١٥و١٦ •

والدمار · ان كل مشوراتكم تقاوم الحق ، بل مقترنة بالاعمـــال المنحطة ، مليئة بالسخافات والاوهام ، وبهذه أنتم تخترعون الاباطيل ، وتضـطهدون الابرياء ، وتمنعون النـــور عن المؤمنين · وتحت ســـتار التقوى ترتكبون التعديات بصفة مستمرة ، وتملأون كل شيء بالدنس ، وتطعنون الضـــمائر الطاهرة السليمة بجروح مميتة ، وتكادون تحجزون نفس نور النهار عن أعين البشر ·

وهل هنالك حاجة للتخصيص مع أننى ان أردت التحدث عن جرائمكم بما تستحقه لاحتاجت الى وقت أطول مما أستطيع ؟ لان قائمة جرائمكم طويلة جدا ، وبغيضة جدا ، وشنيعة جدا ، حتى ان يوما كاملا لا يكفى لتعدادها كلها · والواقع انه خير للمرء أن يحول أذنيه وعينيه عن موضوع كهذا لئلا تتأذى بساطة ايمان المرء بوصف كل نوع من الشر · ولماذا أصبر الى الآن على هذه الشرور المتكاثرة سيما وان طول الاناة هذه قد سببت اصابة بعض الاصحاء بهذا المرض الوبائى ؟ لماذا لا أضرب فى الحال على أصل هذا الشر المستطير باعلان الاستياء علنا ؟

الفصل الخامس والستون

حرمان الهراطقة من أماكن اجتماعاتهم

« ونظرا لانه لم يعد فى الامكان بعد ، احتمال ضلالاتكم الشريرة فاننا بهذا الامر ننذركم أنه لا يجوز لكم أن تجتمعوا معا من الان فصاعدا · ولهذا أمرنا بحرمانكم من جميع البيوت التى اعتدتم عقد اجتماعاتكم فيها · ويمتد أمرنا فى هذا الصدد الى حد حرمانكم من عقد اجتماعاتكم السخيفة ، ليس فى العلانية فقط ، بل حتى فى أى بيت سرى ، أو أى مكان ما · فعلى الذين يريدون منكم اعتناق الديانة الحقيقية النقية أن يسلكوا الطريق الأفضـــل جدا ، طريق الدخول الى الكنيسة الجامعة ، والاتحاد بها فى شركة مقدسة ، وبذلك تستطيعون الوصول الى معرفة الحق · وعلى أى حال فان ضلالة أذهانكم المعتلة يجب أن تكف نهائيا عن الامتزاج بهناء عصرنا الحاضر أو افساده ، أعنى ضلالة الهراطقة والمبتدعين · لانه خليق بالرفاهية التى نتمتع بها الان بنعمة الله أن نحاول رد من كانوا يعيشون فيما سبق فى رجاء الســـعادة العتيدة — ردهم من الاعوجاج والضلال الى الطريق المستقيم ، من الظلام الى النور ، من الباطل الى الحق ، من الموت الى الخلاص · ولامكان تقديم هـــذا العلاج بقوة فعالة أصدرنا الامر كما تقدم لحرمانكم من كل مكان للاجتماع فى اجتماعاتكم السخيفة ، أعنى كل بيوت الصلاة ، ان جاز أن تســـتحق هذا

الاسم ، التى تخص الهراطقة ، وتحويلها من دون ابطاء الى الكنيسة الجامعة ، ومصادرة جميع الاماكن الاخرى وتحويلها الى الخدمة العامة ، وعدم اعطاء أى تسهيل ، أى نوع كان ، للاجتماعات فى المستقبل ، وذلك لكى لا يعقد أى اجتماع من اجتماعاتكم غير الشرعية فى أى مكان عام أو خاص من هذا اليوم فصاعدا • واننا نأمر باذاعة هذا الامر »

الفصل السادس والستون

كيف عاد الكثيرون من الهراطقة الى الكنيسة الجامعة لدى اكتشاف بعض الكتب الممنوعة عندهم

هكذا اقتحمت مخابىء الهراطقة بناء على أمر الامبراطور ، وهربت منها الوحوش الضارية التى تستروا عليها (أعنى مبتدعى تعاليمهم الفاسدة) • ومن بين الذين خدعوا بتعاليمهم تسلل البعض خفية الى الكنيسة اذ خافوا من تهديدات الامبراطور ، ولكنهم أخفوا مشاعرهم الحقيقية • ولأن القانون كان يأمر بالبحث عن كتبهم فقد افتضح أمر الذين كانوا يمارسون الاعمال الشريرة الممنوعة ، وهؤلاء كانوا يتظاهرون باشكال منوعة لينجوا بانفسهم • وكان هنالك آخرون ممن قبلوا من تلقاء أنفسهم ، وباخلاص حقيقى ، اعتناق الرجاء الافضل • وفى نفس الوقت استمر أساقفة الكنائس المختلفة فى البحث باجتهاد ، رافضين رفضا باتا قبول من حاولوا دخول الكنيسة تحت ستار ادعاءات كاذبة ، أما من أتوا باخلاص فى القصد فقد اختبروا بعض الوقت ، وبعد الاختبار الكافى حسبوا ضمن الجماعة •

هكذا كانت معاملة من اتهموا بالهرطقة الشديدة • أما من لم يتمسكوا بتعاليم شريرة ، ولكنهم عزلوا عن الكنيسة بتأثير المشيرين المنشقين فقد قبلوا من دون صعوبة أو ابطاء • وبناء على هذا اعترف الكثيرون بالكنيسة أما لهم بعد أن تغيبوا عنها طويلا ، وعادوا اليها الان بفرح وبهجة وكأنهم قد عادوا الى أوطانهم بعد غيبة طويلة فى بلاد غريبة • وهكذا أصبح أعضاء الجسم الواحد متحدين ، ومندمجين معا فى كتلة واحدة متناسقة ، وأضاءت الكنيسة الواحدة الجامعة بضياء كامل ، متحدة مع نفسها ، ولم يعد يوجد أى هرطوقى أو منشق فى أى مكان • ويرجع الفضل فى كل هذا العمل العظيم الى امبراطورنا المحروس بعناية السماء ، دون أى واحد من كل من سبقوه •

الكتاب الرابع

الفصل الاول

كيف أكرم الامبراطور الكثيرين بالهدايا والترقيات

وبينما كان الامبراطور منشغلا هكذا فى تقدم وانتشار كنيسة الله ومجدها ، وباذلا كل جهد لنشر تعاليم المخلص ، فانه لم يهمل قط الاهتمام بالامور العالمية ولكنه فى هذه الناحية أيضا لم يكل فى اغداق الخيرات من كل نوع وبسرعة على شعب كل قطر . فمن الناحية الواحدة أظهر اهتماما أبويا من أجل مصلحة رعاياه العامة . ومن الناحية الاخرى كان يميز بعض الافراد من معارفه بانواع مختلفة من الاكرام ، مغدقا خيره فى كل مناسبة بروح نبيلة حقا . لم يطلب أى واحد مصلحة من الامبراطور وفشل فى الحصول على أمنيته ، ولم يتوقع أى واحد نعمة منه وخاب رجاؤه . قبل البعض هدايا مالية ، والاخرون قطعا من الاراضى . قبل البعض وظائف ولاة ، والآخرون مراكز فى مجلس الاعيان ، وغيرهم وظائف قنصلية . عين الكثيرون كحكام للاقاليم ، وأعطى الآخرون لقب « كونت » من الدرجة الاولى أو الثانية أو الثالثة . وفى حالات لا حصر لها منح لقب « حضرة صاحب الفخامة » وألقاب أخرى كثيرة ، لان الامبراطور ابتدع ألقابا جديدة لكى يهب علامة رضائه على أكبر عدد .

الفصل الثانى

الاعفاء من ربع الضرائب

أما مدى اهتمامه بالسعادة العامة والرفاهية فيمكن ادراكه من مثل واحد نافع كل النفع وشامل للجميع ، لا يزال يذكره الكل بالشكر والتقدير . ذلك انه أصدر أمرا بالاعفاء من ربع الضرائب السنوية التى كانت تدفع عن الاراضى ، ووهبه لملاك الارض . فاذا حسبنا هذا التخفيض السنوى وجدنا أن المزارعين كانوا يتمتعون بمحصولاتهم خالية من الضرائب مرة كل أربع سنوات . واذ صدر هذا الامتياز بقانون ، وفرض تنفيذه فى المستقبل أعطيت الفرصة ليس فقط للاجيال التى كانت قائمة وقتئذ للتمتع بكرم الامبراطور ، بل أيضا لابنائهم وذريتهم بصفة مستمرة .

الفصل الثالث

المساواة فى دفع الضرائب

واذ تظلم البعض من الأخطاء فى تقدير مساحة أراضيهم التى عملت فى عهد الاباطرة السابقين ، واشتكوا من أن أملاكهم مثقلة ظلما ، تدخل فى هذا الامر أيضا بحسب مبادىء العدل ، وأرسل رسلا لمساواة الضرائب وضمان العدل لمن قدموا هذا المظالم ٠

الفصل الرابع

سخاؤه ماليا من موارده الخاصة على من يخسرون قضاياهم فى المحاكم

وفى حالات التحكيم القضائى كان هو شخصيا يمنح من موارده الخاصة أراض أو أموالا للطرف المنهزم ، لكى لا يخرج الخاسر من حضرته أقل ارتياحا من الرابح ٠ بهذه الكيفية حرص على ان الخاسر اذا مثل فى حضرته يجب ان لا يكون أقل ارتياحا من الرابح ٠ لانه اعتبر أنه يجب أن لا يخرج أى شخص كئيبا أو منكسر الخاطر من حضرة ملك مثله ٠ وهكذا حدث أن كلا الطرفين كانا يخرجان من مشهد المحاكمة بثغور باسمة ووجوه تطفح بشرا وسرورا ، أما سخاء الامبراطور النبيل فقد نال اعجاب الجميع ٠

الفصل الخامس

انهزام السكيثيين أمام علامة مخلصنا

وهل هنالك حاجة تدعو لكى أصف ولو بايجاز كيف أخضع الامم البربرية للسلطة الرومانية ، وكيف كان هو أول من أخضع السكيثيين (١) والقبائل السرماتية (٢) التى لم تعرف الانهزام قطعا ، وألزمهم على الاعتراف رغم أنفهم بسيادة روما ؟ لان الأباطرة الذين سبقوه كانوا فعلا يدفعون جزية للسكيثيين ٠ وكان الرومانيون ، بدفعها سنويا ، يعترفون بانهم عبيد

(١) Scythian لعل المقصود هم الغوط

(٢) Sarmatian

للبرابرة ٠ وهذه مذلة لم يعد امبراطورنا يطيقها ، فرأى أن استمرار دفع الضريبة التى ارتبط بها سلفه لا يتناسب مع انتصاراته ٠ وبناء على ذلك رفع راية الانتصار فى وجه هؤلاء الاعداء أيضا ، واثقا كل الثقة فى مساعدة مخلصه ، وسرعان ما أخضعهم جميعا ، وبقوته الحربية أذل من كانوا يقاومون سلطانه بعنف ، ومن الناحية الاخرى صالح الباقين بواسطة سفراء حكماء ، وأعادهم من حياتهم الهمجية المتوحشة الى حالة النظام والمدنية ٠ وهكذا تعلم السكيثيون أخيرا أن يعترفوا بالخضوع لسلطة روما ٠

الفصل السادس

انتصاره على السرماتيين بسبب تمرد عبيدهم

أما عن السرماتيين فقد أخضعهم الله نفسه لحكم قسطنطين ، وبذلك أذل أمة كانت منتفخة فى كبريائها البربرى ، وذلك على الوجه الاتى ٠ فانهم اذ هجم عليهم الكسيثيون ائتمنوا عبيدهم وأعطوهم أسلحة ليصدوا العدو ٠ لكن هؤلاء العبيد انتصروا أولا على المهاجمين ، وبعد ذلك شرعوا الاسلحة فى وجه سادتهم وشردوهم أجمعين من أوطانهم ٠ وجد هؤلاء السرماتيون المشردون أن أملهم الوحيد فى النجاة هو فى طلب حماية قسطنطين ، وهذا قبلهم أجمعين ، وأودعهم سجون الامبراطورية الرومانية ، اذ كانت عادته انقاذ النفوس (١) ٠ والذين كانوا قادرين على الخدمة ضمهم الى جيشه ، أما الباقون فقد أعطاهم أراض ليفلحوها ويعولوا أنفسهم ٠ وهكذا اعترفوا هم أنفسهم أن المصيبة التى حلت بهم فى الماضى أدت الى نتيجة سارة ، لانهم اصبحوا الآن يتمتعون بالحرية الرومانية بدلا من الوحشية البربرية ٠ بهذه الكيفية أضاف الله الى ملكه الكثير من القبائل البربرية المختلفة ٠

الفصل السابع

السفراء من الامم البربرية المختلفة ينالون هدايا من الامبراطور

والواقع انه كان يأتى سفراء من كل الأمم بصفة مستمرة حاملين اليه معهم أثمن هداياهم راجين أن يتقبلها ٠ حتى اننى أنا شخصيا كنت أقف

(١) يقال ان عددهم كان ثلاثمائة الف ٠ وكان ذلك عام ٣٣٤

أحيانا بجانب مدخل القصر الامبراطورى ، وألاحظ صفا طويلا من البرابرة فى الانتظار ، يختلف بعضهم عن بعض فى الملابس والاوسمة ، وفى شعر رؤوسهم ولحاهم . كان منظرهم مرعبا يدل على الوحشية والشراسة ، وقامتهم هائلة جدا . كانت بشرة البعض تميل الى الحمرة ، وبشرة الاخرين بيضاء كالثلج ، وبشرة غيرهم متوسطة اللون . من بين هؤلاء الذين أشرت اليهم كانت ترى عينات من القبائل البليمية (١) ، ومن الهنود والاثيوبيين ، ذلك الجنس المنقسم انقساما مريعا ، البعيد جدا عن البشرية . قدم جميع هؤلاء ، الواحد عقب الاخر ، تلك الهدايا التى تعتبرها بلادهم كأثمن ما تملك ، فالبعض قدموا تيجانا ذهبية ، والآخرون أكاليل مرصعة بالحجارة الكريمة ، أتى البعض باولاد جميلى الشعر ، والاخرون بملابس مطرزة بالذهب والزهور . ظهر البعض بخيل ، والآخرون بتروس ورماح طويلة ، بقوس وسهام ، وبهذا كانوا يعرضون خدماتهم ومعاهدات الصداقة للامبراطور . أما هذه الهدايا فقد قبلها واحدة بعد الاخرى ، ووضعها جانبا بحرص ، مغدقا على مقدميها بكرم عظيم وسخاء منقطع النظير . كذلك أكرم أفضلهم منعما عليهم بألقاب الشرف الرومانية ، حتى فضل الكثيرون منهم البقاء بيننا عن العودة الى بلادهم .

الفصل الثامن

وكتب أيضا الى ملك الفرس (٢) عن المسيحيين فى مملكته اذ كان قد سبق فارسل اليه سفارة

واذ أبدى ملك الفرس أيضا رغبته فى عقد محالفة مع قسطنطين بارسال سفارة وهدايا تأكيدا للسلام والصداقة ، فان الامبراطور ، لابرام هذه المعاهدة ، تفوق كثيرا على الملك الذى سبق أن اكرمه ، وذلك بالكرم العظيم الذى أظهره ودا لهداياه . واذ علم أيضا أن هنالك كنائس كثيرة لله فى بلاد الفرس ، وأن بها عددا وفيرا منضما لحظيرة المسيح ، امتلأ فرحا بسبب هذه الانباء ، واعتزم أن يمد رعايته لمصلحة هذه البلاد أيضا ، كمن قد جعل همه أن يعنى بالجميع على السواء فى كل أمة .

(١) Blemmyan tribes

(٢) أى سابور الثانى (٣١٠ ـ ٣٨١) وصار فيما بعد من الد اعداء ابناء قسطنطين .

الفصل التاسع

رسالة قسطنطين أوغسطس الى سابور (١)
ملك الفرس متضمنة اعترافا جميلا حقيقيا بالله والمسيح
صورة رسالته لملك الفرس

« بالاحتفاظ بالايمان الالهى جعلت شريكا فى نور الحق ، وها أنا أتقدم فى معرفة الايمان الالهى مسترشدا بنور الحق · لهذا أعترف بالديانة المقدسة كما تدل على ذلك أعمالى نفسها · واننى أعلن بان هذه العبادة هى التى تعلمنى زيادة التعمق فى معرفة الاله الاقدس ، الذى بفضل مساعدة قوته الالهية استطعت أن أبعث روح الطمأنينة فى كل أمة فى العالم مبتدئا من حدود المحيط ، حتى ان من كانوا يرزحون تحت عبودية الطغاة القساة ، خاضعين لظالمهم كل يوم قد عادوا الى حياة سعيدة جدا على يدى · واعترف باننى أكرم هذا الاله بصفة مستمرة وأذكره على الدوام ، وأسر بالتأمل فيه بأفكار طاهرة بلا عيب فى سمو مجده ·

الفصل العاشر

ويعلن كاتب هذا السفر أنه يرفض الاوثان ويمجد الله

« هذا الاله أتوسل اليه جاثيـــا على ركبتى ، متراجعـــا بفزع من دم الذبائح ، من روائحها الكريهة الدنسة ، ومن أعمال السحر الارضية · لان الخرافات الدنسة الماجنة التى زادتها هذه الشعائر دنسا قد طوحت الى الهلاك كثيرين ، بل أمما كاملة فى العالم الوثنى · فرب الكل لا يطيق أن يرى هذه البركات (التى أعلنها لفـــائدة الجميع برحمته وتطلعه الى حاجات البشر) يعكس القصد منها ، ويحول لاشباع شهوات أى انسان · وكل ما يطلبه من البشر هو طهارة العقل وعدم تدنيس الروح ، وبهذا المقيـــاس يزن أعمال الفضيلة والتقوى · لان مسرته هى فى أعمال الاعتدال والرقة : فهو يحب الودعاء ، ويكره الروح المنتفخة ، يسر بالايمان ويؤدب عدم الايمان ، يحطم كل غطرسة ، وينتقم من وقاحة المتكبرين · وبينما يهدم المتغطرسين المنتفخين كلية فانه يغدق على المتواضعين الصفوحين جزاء عادلا · بل انه يكرم جدا المملكة التى تحكم بالعدل ، ويعضدها بمعونة خاصة ، ويحفظ الملك الحصيف فى طمأنينة السلام ·

(١) Sapor

الفصل الحادى عشر

الطغاة والمضطهدون • سبى فالريان

« لذلك لن أعتقد أيها الاخ باننى أخطأت فى الاعتراف بهذا الاله الواحد خالق ومصدر كل الاشياء ، الذى ضـــل عنه الكثيرون من سلفى بجنـــون الضلال ، وتجاسروا على انكاره ، ولكنهم جميعا افتقدوا بضيقات مرعبة جداً ومهلكة حتى اعتقدت كل الاجيال التالية أن مصائبهم أشد انذار لمن يريد من بعدهم أن يقتفى خطواتهم • وأعتقد أن من بين هؤلاء هو ذاك الذى تعقبه انتقام الله ونفاه الى مملكتكم (١) ، والذى زادت هزيمته فى اذاعة انتصاركم العظيم •

الفصل الثانى عشر

وصرح بانه اذ شهد سقوط المضطهدين فانه يسر الآن بالسلام الذى يتمتع به المسيحيون

« ويقينا انها لمناسبة سعيدة ان يعلن على الملأ فى أيامنا قصاص هؤلاء الاشخاص كما ذكرت • لاننى أنا نفسى شهدت نهاية أولئك الذين ضايقوا أخيرا عابدى الله بأوامرهم الشريرة • ومن أجل هذا يليق تقديم الشكر الجزيل لله لانه بعنايته السامية صار جميع الذين يحفظون نواميسه المقدسة يغتبطون الان لتمتعهم بالسلام من جديد • ولذلك فأننى مقتنع كل الاقتناع بان كل شىء صـــار على أحسن الاوضـــاع ، لان الله يتراءف ويجمع الى نفسه كل البشر ، وذلك بتأثير خدمتهم الدينية الطاهرة الامينة ، ووحدة تفكيرهم نحو صفاته الالهية •

الفصل الثالث عشر

وعبر عن محبته واهتمامه بمسيحيى بلاده

« تأمل اذن فى مقدار الفرح العظيم الذى به تلقيت الانباء المتمشية مع رغبتى ، والمتضمنة بان أجمل بقاع الفرس غاصة باولئك الذين اتحدث عنهم وحدهم الآن ، أعنى المسيحيين • لذلك أبتهل الى الله لكى تتمتع أنت وهم

---

(١) يشير الى فالريان Valerian الذى اضطهد المسيحيين والذى انتهى هجومه على الفرس باخذه أسيرا •

بالرفاهية الجزيلة ، ولكى تتساوى بركاتك مع بركاتهم ، لانك بذلك تختبر رحمة ورضا ذلك الاله الذى هو رب الكل وأبو الكل · والان أوصيك بهؤلاء الاشخاص لحمايتهم لان قوتك عظيمة ، وأستودعهم لعنايتك لان تقواك جزيلة· عاملهم بلطفك المعهود وانسانيتك المعتادة ، لانك بدليل الايمان هذا تضمن لنفسك أو لنا ، خيرا جزيلا جدا »

الفصل الرابع عشر

كيف جلبت صلوات قسطنطين الحارة السلام للمسيحيين

وهكذا اذ كانت أمم العالم فى كل مكان تسير فى مجراها كأنها مسترشدة بمهارة ربان واحد ، مذعنة لادارة ذاك الذى كان يحكم كخادم الله ، فان سلام الامبراطورية الرومانية ظل ثابتا ، وصارت كل الطبقات فى رعاياه تتمتع بحياة الهـــدوء والطمانينة · وفى نفس الوقت فان الامبراطور الذى كان مقتنعا بان صلوات الاتقياء ساعدت جدا على تقدم الخير العام ، أحس بانه مضطر لطلب هذه الصلوات · ولم يكتف بان يتوسل هو من أجل مساعدة الله ورحمته ، بل طلب من رؤساء الكنائس لكى يرفعوا التضرعات من أجله ·

الفصل الخامس عشر

ورتب بان تكون صورته على العملة وفى كل الصور فى هيئة الصلاة

أما مقدار عمق تأثر نفسه بقوة الايمان الالهى فيمكن أدراكه من الامر الذى أصدره لجعل صورته على عملة الامبراطورية الذهبية رافعا عينيه الى فوق كأنه فى هيئة الصلاة لله ، وقد تداولت هذه العملة فى سائر أنحاء العالم الرومانى · كذلك وضعت صورته الكاملة على مداخل القصور فى بعض المدن بعينيه مرفوعتين الى السماء ، ويديه مبسوطتين كأنه يصلى ·

الفصل السادس عشر

وأصدر قانونا بمنع اقامة تمثال له فى هياكل الاوثان

بهذه الكيفية صور نفسه حتى بالتصوير الزيتى فى هيئة الصلاة لله · وفى نفس الوقت أصـــدر أوامر صريحة بمنع اقامة تمثال له فى أى هيكل وثنى ، لكى لا تتدنس حتى ملامح وجهه بضلالات تلك الخرافات المحرمة ·

الفصل السابع عشر

صلواته فى القصر الملكى وقراءته للكتاب المقدس

والذين لاحظوا كيف حول نفس قصره الملكى الى كنيسة لله ويمكنهم اقامة دلائل أخرى أقوى على تقواه ، اذ كان هو شخصيا يقدم للمجتمعين فيها أنموذجا للغيرة ، ويتناول الكتاب المقدس فى يده ، ويعكف على دراسة تلك الاقوال الالهية الحية ، وبعد ذلك يقدم الصلوات مع جميع أعضاء حاشيته ٠

الفصل الثامن عشر

كيف أوصى بان يحفظ الجميع يوم الرب ويوم الاستعداد

وأمر كذلك بحفظ يوم للصلاة بصفة خاصة ، أعنى اليوم الذى يعتبر حقا أول الكل ورأس الكل ، أى يوم ربنا ومخلصنا ٠ وقد أوكل أمر العناية المطلقة بأهل بيته للشمامسة وخدام آخرين مكرسين لخدمة الله ومتميزين برزانة الحياة ووقارها وكل فضيلة أخرى ٠ أما حرسه الامبراطورى الامناء ، وكانوا يكنون له كل حب وولاء ، فقد وجدوا فى امبراطورهم معلما للتقوى ، فاكرموا يوم الرب مثله ، ومارسوا فى ذلك اليوم فرائض العبادة التى أحبها ٠ كذلك أوصى هذا الملك المغبوط كل طبقات رعاياه بحفظ هذا اليوم ، اذ كانت رغبته الملحة أن يقود كل البشرية تدريجيا الى عبادة الله ٠ لهذا حتم على جميع رعايا الامبراطورية الرومانية أن يحفظوا يوم للرب كيوم راحة ، وأن يكرموا أيضا اليوم السابق للسبت ، وأعتقد أن ذلك تذكار لما قيل بان مخلص البشرية قد تممه فى ذلك اليوم (١)

ونظرا لانه أراد أن يعلم جميع جيشه اكرام يوم المخلص ، الذى يستمد اسمه من النور ومن الشمس (٢) فقد منح عطلة لمن كان منهم شريكا للايمان الالهى لكى يتمكن من حضور خدمات كنيسة الله ، وبذلك يؤدى عبادته الدينية من دون عائق ٠

---

(١) أى يوم الجمعة بمناسبة صلب المسيح ٠

(٢) Sun-day أى يوم الشمس

الفصل التاسع عشر

كيف أمر حتى جنوده الوثنيين ليصلوا فى يوم الرب

أما عن الذين كانوا لا يزالون وقتئذ بعيدين عن الايمان الالهى فقد أصدر أمرا ثانيا متضمنا بانهم يجب أن يظهروا يوم الرب فى ساحة قرب المدينة ، واذا ما أعطيت اشارة معينة قدموا لله بنفس واحدة صلاة تعلموها من قبل . وقد نصحهم بانهم يجب أن لا يتكلوا على رماحهم أو أسلحتهم أو قوتهم البدنية ، بل يجب أن يعترفوا بالله العلى كمانح لكل خير ، وواهب النصرة نفسها . وهو الذى يجب أن يقدموا اليه الصلوات بانتظام ، رافعين أياديهم نحو السماء ، ورافعين بصيرتهم الروحية الى ما هو أعلى من ذلك ، الى ملك السماء الذى يجب أن يلجأوا اليه كواهب النصرة ، وكحافظهم وحارسهم ومعينهم . وقد وضع الامبراطور نفسه الصلاة التى يجب أن يستخدمها كل جنوده ، وأمرهم بان يرددوا الكلمات التالية باللغة اللاتينية .

الفصل العشرون

صورة الصلاة التى أعطاها قسطنطين لجنوده

« نعترف بانك الاله الواحد ، ونعترف بانك أنت ملكنا ،ونلتمس معونتك . بنعمتك انتصرنا ، وبك نحن أقوى من أعدائنا . نقدم لك الشكر من أجل نعمك الماضية ، ونتكل عليك من أجل البركات المستقبلة . نتضرع اليك ونتوسل طويلا أن تحفظ لنا امبراطورنا قسطنطين وأنجاله الاتقياء سالمين منتصرين »

هكذا كان ما ينبغى أن يؤديه جنوده يوم الاحد ، وهكذا كانت الصلاة التى تعلموا أن يقدموها لله .

الفصل الحادى والعشرون

وأمر بحفر علامة صليب المخلص على دروع جنوده

وليس ذلك فقط لكنه أمر أيضا بحفر علامة الانتصار المباركة على نفس دروع جنوده ، وأمر بان تتقدم راية الصليب فقط قواته المحاربة فى مسيرها ؛ لا التماثيل الذهبية ، كما كان متبعا من قبل .

الفصل الثانى والعشرون

غيرته فى الصلاة ، والاكرام الذى قدمه لعيد القيامة

أما الامبراطور نفسه فانه ، كشريك فى أسرار ديانتنا المقدسة ، كان يختلى يوميا فى ساعة معينة باحدى غرف قصره الداخلية ، وهنالك ، فى خلوة مع الهه ، كان يجثو فى تواضع جم وتضرعات حارة ، متوسلا من أجل البركات التى يحتاج اليها ٠

على أنه كان بنوع خاص يضاعف نشاطه الدينى يوم عيد القيامة المبارك ، مؤديا الطقوس اللازمة بكل نشاط ذهنى وجسمى ، حتى أنه تفوق على كل الباقين فى الاحتفال بهذا العيد بكل غيرة ٠ وقد حول أيضا سهرة العيد المقدسة الى ضياء كنور النهار ، وذلك باضاءة شموع طويلة جدا فى كل المدينة ٠ وعلاوة على هذا أضيئت المشاعل فى كل مكان لكى تضىء تلك الليلة المجيدة أبهى من نور النهار ٠ وحالما بزغ نور النهار فتح يدا سخية ــ اقتداء باعمال مخلصنا الرحيمة ــ لرعاياه فى كل أمة واقليم وشعب ، وأغدق العطايا على الجميع ٠

الفصل الثالث والعشرون

كيف حرم العبادة الوثنية
وأكرم الشهداء والاعياد الكنسية

هكذا كانت تدابيره لخدمة الهه ٠ وفى نفس الوقت وجد رعاياه ، المدنيون والحربيون ، فى كل الامبراطورية ، حاجزا منيعا ضد العبادة الوثنية ، وكل أنواع الذبائح المحرمة ٠ وقد أصدر أيضا أمرا متضمنا حفظ يوم الرب ، وأرسله الى ولاة كل الاقاليم الذين تعهدوا ــ كأمر الامبراطور ــ باحترام الايام التى تخصص لذكرى الشهداء ، وتوقير الاعياد الكنسية ٠ وقد تم كل هذا بما يستريح له الامبراطور وينال رضاءه الكامل ٠

الفصل الرابع والعشرون

ووصف نفسه بانه أسقف عهدت اليه
ادارة شئون الكنيسة الخارجية

وفى احدى المناسبات ، اذ كان يتسامر مع جماعة من الاساقفة ، وجد مبررا لينطق بهذا التصريح بانه هو أيضا أسقف ، مخاطبا اياهم على مسمع

منى بهذه الكلمات : « أنتم أساقفة ودائرة اختصاصكم داخل الكنيسة ، وأنا أيضا أسقف مقام من الله للاشراف على ما هو خارج الكنيسة » • والواقع ان تصرفاته كانت تتفق مع أقواله ، لانه كان يسهر على رعاياه برعاية أسقفية ، مقدما لهم النصائح ، على قدر طاقته ، ليعيشوا حياة نقية •

الفصل الخامس والعشرون

منع الذبائح والطقوس الغريبة والمصارعات وعبادة النيل الخليعة

وتمشيا مع هذه الغيرة أصدر قوانين وأوامر متعاقبة محرما على أى واحد تقديم الذبائح للاوثان ، أو استشارة العرافين ، أو اقامة التماثيل ، أو تدنيس المدن بالمصارعات الدموية • ونظرا لان المصريين ، سيما الاسكندريين ، كانوا قد اعتادوا اكرام نهرهم عن طريق بعض الكهنة الذين كانوا رجالا مخنثين ، فقد أصدر قانونا آخر يقضى باستئصال كل هذه الفئة الاثيمة ، لكى لا يتدنس أحد فيما بعد بهذه الرجاسات • ولأن السكان تسلطت عليهم الخرافات وتوهموا أن النهر سوف يمتنع ــ نتيجة لهذا ــ عن اعطاء فيضانه المعتاد ، فقد أظهر الله نفسه استحسانه للقانون الذى أصدره الامبراطور ، وذلك بان سير كل الامور فى مجرى يخالف ما توقعوه • فالذين كانوا يدنسون المدن باعمالهم القبيحة لم يعودوا يرون فيما بعد • أما النهر فارتفعت مياهه الى منسوب أعلى من أى وقت مضى ــ كأن المملكة التى يجرى فيها قد تطهرت لتستقبله ، وفاضت المياه كاملة فى كل أرجاء البلاد بمجاريها الغنية بالخصب • وهكذا أفلحت نصائحه للشعب الضال لكى يتحولوا عن البشر الدنسين وينسبوا رفاهيتهم الى ذاك الذى يمنح وحده كل الخيرات •

الفصل السادس والعشرون

تعديل القانون السارى الخاص بالاشخاص الذين بلا نسل وقانون الوصية

هكذا تعددت الخيرات التى من هذا القبيل ، والتى أغدقها الامبراطور على كل قطر ، وبذلك كان يقدم مادة مناسبة لاى واحد يرغب فى تسجيلها • من بين هذه نذكر على سبيل المثال تلك القوانين التى عدلها تعديلا كليا ، وصاغها على قاعدة أكثر عدلا • ويمكن توضيح طبيعة هذا التعديل بايجاز وسهولة • فالذين بلا نسل كانوا يعاقبون بموجب القانون القديم بمصادرة أملاكهم التى

ورثوها . وهذا قانون قاس جــدا عاملهم كأنهم مجرمون اكيدا . لـــكن الامبراطور ألغى هذا ، وأمر بان من أصبحوا فى هذه الظروف يجب أن يأخذوا نصيبهم فى الميراث .

وقد عالج الامر بموجب مبادىء العدل والانصاف ، وأمر بان من يصرون على مخالفة أوامره يجب أن توقع عليهم العقوبة التى تستحقها جرائمهم . فالطبيعة نفســـها تحرم الكثيرين من البنين ، مع انهم قد يتوقون الى كثرة النسل ، ولكن آمالهم لا تتحقق بسبب ضعفهم جسمانيا . والآخرون يبقون بلا نسل ، ليس لعدم رغبتهم فى الذرية ، بل لان محبتهم المتقدة للفسلفة (١) جعلتهم ينفرون من الزواج .

كذلك اذ تفرغت النساء لخدمة الله احتفظن بعذراوية طاهرة بلا عيب ، وكرسن ذواتهن ، نفسا وجسدا ، لحياة العفة الكاملة والقداسة . وهل يعتبر هذا التصرف خليقا بالقصاص ، أم بالاحرى بالاعجاب والثناء ؟ لان الرغبة فى هذه الحالة كريمة فى حد ذاتها ، والاستمرار فيها يفوق طاقة الطبيعة البشرية المجردة عن كل معونة خارجية . ويقينا ان الذين يقف ضعفهم الجسمانى حائلا دون تمتعهم بالنسل خليقون بالعطف لا بالقصـــاص ، والذى يكرس نفسه لغاية اسمى لا يستحق التأديب بل الاعجاب . على أساس هذه المبـــادىء والتعليل السليم عدل الامبراطور العيوب التى فى هذا القانون .

أما بخصوص وصية الاشخاص المشرفين على الموت فان القوانين القديمة كانت تنص على أنها يجب أن توضح بكلمات محددة ، حتى فى النفس الاخير ، كما انها حددت الصيغة والتعابير المضبوطة التى يجب أن تستعمل . كانت هذه الاجراءات سببا فى محاولات كثيرة للتدليس والاحتيال بقصـــد منع تنفيذ رغبات الموتى .

وحالما أدرك امبراطورنا هذه الفضائح عدل هذا القانون أيضا ، معلنا بان الشخص المشرف على الموت يجب أن يســـمح له باعلان رغبـــاته الاخيرة فى أقصر كلمات ، وبأية تعبيرات يريدها ، وأن يعطى وصيته بأية صـيغة كتابية ، أو حتى شفويا ، على شرط أن يتم هذا بحضور شهود موثوق بهم يستطيعون أداء المهمة التى أوكلت اليهم بامانة .

---

(١) واضح ان كلمة « الفلسفة » هنا وفى الفصل الثامن والعشرين تعني « البتولية » التي سادت في عصور المسيحية الاولى .

الفصل السابع والعشرون

وبين الاوامر الاخرى أصدر أمرا بانه لا يجوز للمسيحى أن يستعبد ليهودى • ثم أكد صحة قرارات المجامع

وأصدر أيضا قانونا يقضى بانه لا يجوز للمسيحى أن يبقى مستعبدا لسيد يهودى ، على أساس بانه ليس من اللائق أن من افتداهم المخلص يخضعون لنير عبودية الشعب الذى قتل الانبياء والرب نفسه • وان وجد أحد فيما بعد فى هذه الحالة وجب اطلاق سراح العبد وتغريم السيد •

كذلك وافق ـ طبقا لسلطته ـ على قرارات الاساقفة التى أصدروها فى مجامعهم ، وحذر ولاة الاقاليم من الغاء قراراتهم ، لانه اعتبر كهنة الله فى درجة أسمى من أى قاض مهما سما مركزه •

هذه الاجراءات ، وألوف أمثالها ، اتخذها لصلحة رعاياه • ولا يسمح المجال الآن لتقديم وصف دقيق عنها لاعطاء فكرة كاملة عن حكمته السامية فى هذه النواحى • كذلك لست فى حاجة الى التحدث بالتفصيل كيف انه كخادم مكرس لخدمة الله العلى كان يقضى وقته من الصباح الى الليل فى البحث عن النواحى التى يغدق عليها من خيره العميم ، وكيف كان رحيما بالجميع على السواء •

الفصل الثامن والعشرون

هباته للكنائس ومساعداته المالية للعذارى والفقراء

أما سخاؤه فقد تجلى بكيفية أوضح فى كنائس الله • فى بعض الحالات كان يمنح الاراضى ، وفى غيرها كان يقدم الطعام لاعالة الفقراء والىتامى والارامل • وفضلا عن ذلك فقد كان بعنايته الفائقة وبعد تفكيره يقدم كل أنواع الكساء للعرايا والمعوزين •

ومع ذلك ميز الذين كرسوا حياتهم لممارسة الفلسفة الالهية ، وأغدق عليهم فضلا ممتازا • لذلك كان يوقر ويحترم العذارى الطاهرات ، لاعتقاده ان الله الذى كرسن أنفسهن له كان هو نفسه رفيقا لهن •

الفصل التاسع والعشرون

محاضرات قسطنطين وخطبه

وفى بعض الاحيان كان يقضى الليالى فى تزويد عقله بالمعرفة الالهية دون

أن تذوق عينه النوم . وكان يصرف الكثير من وقته فى تحضير المحاضرات التى ألقى الكثير منها علنا . لانه أدرك أنه من المحتم عليه أن يحكم شعبه بالالتجاء الى عقولهم ، وأن يضمن من كل الوجوه طاعتهم المعقولة لسلطانه . لذلك كان فى بعض الاحيان يدعو الى عقد اجتماع ، فكانت تحضره الجموع الكثيرة ليسمعوا امبراطورا يتخذ موقف الفيلسوف . واذا ما سنحت الفرصة أثناء حديثه للمساس بالمواضيع الدينية انتصب فى الحال وغير نغمة الصوت لاظهار منتهى الوقار والاجلال ، لكى يثبت سامعيه فى أسرار التعاليم الالهية . واذا ما حيوه باصوات الاستحسان أشار اليهم ليرفعوا أعينهم الى السماء ، ويوجهوا استحسانهم الى الملك العلى وحده ، ويكرموه بالعبادة والتسبيح .

وكان عادة يقسم مواضيع حديثه ، فكان أولا يهاجم هجوما شنيعا ضلالة تعدد الالهة ، ويبرهن أن خرافات الوثنيين انما هى مجرد خداع وستر للنجاسة . بعد ذلك كان يثبت أن الله هو ذو السلطان الاوحد ، ثم ينتقل الى الحديث عن عنايته ، العامة والخاصة . من ثم يتقدم الى الحديث عن هبة الخلاص ، موضحا لزومه ، ويطبقه على طبيعة الحالة . ويلى ذلك فى الترتيب كلامه عن عقيدة الدينونة الالهية .

وهنا بصفة خاصة كان يلجأ الى ضمائر السامعين بمنتهى القوة ، ويهاجم أولئك الشرهين النهمين الذين استعبدوا لشهوة الربح القبيح . بل كان بعض معارفه الحاضرين يحسون بقسوة كلامه ، ويطرقون باعينهم الى الارض خجلا لشعورهم باثمهم ، وذلك عندما كان يشهد ضدهم باوضح التعابير وأشدها قائلا بانهم سوف يقدمون حسابا لله عن أعمالهم .

كان يذكرهم بأن الله نفسه قد أعطاه حكم العالم الذى أوكل كلا منهم على ادارة جزء منه ، سالكا هذا السبيل وفق نفس المبدأ الالهى . ولكنهم جميعا على السواء سوف يدعون فى الوقت المناسب لتقديم حساب عن تصرفاتهم الى العلى ملك الكل .

هكذا كانت شهادته بصفة مستمرة ، وهكذا كانت نصائحه وتعاليمه . وكان هو نفسه يحس بهذه المشاعر ، وينطق بها بثقة الايمان الحقيقى . أما سامعوه فكانوا قليلى الميل الى التعلم ، يصمون آذانهم عن النصيحة السليمة . صحيح انهم كانوا يتقبلون كلماته بأصوات الاستحسان ، ولكنهم كانوا فعلا مدفوعين بالجشع فى محبة المال ، ولذا كانوا لا يقيمون لها وزنا .

الفصل الثلاثون

كيف رسم أمام رجل طماع حدود قبر وهكذا خجله

وفى احدى المناسبات وجه الحديث شخصيا لاحد جلسائه قائلا « الى أى مدى نستطيع يا صديقى أن نحمل رغباتنا المنحرفة ؟ » ثم رسم حدود شكل الانسان برمح تصادف أن كان فى يده ، وأكمل حديثه : « انك ولو تمكنت من اقتناء كل ثروة هذا العالم ، بل اقتناء العالم نفسه كله ، فانك لا تستطيع أن تحمل معك فى النهاية أكثر من هذا الموضع الذى رسمته ، حتى ولو ضمنت أن يكون لك (١) »

هكذا كانت كلمات وتصرفات هذا الملك المغبوط · وبالرغم من أنه كان يفشل فى بعض الاحيان فى رد بعض الاشخاص عن طرقهم الشريرة الا أن مجرى الحوادث أثبت بوضوح أن نصائحه كانت أقرب الى النبوات الالهية منها الى مجرد كلمات عادية ·

الفصل الحادى والثلاثون

كيف استهزىء به بسبب رقته الزائدة عن الحد

وفى نفس الوقت اذ لم يكن هنالك خوف من قصاص شـــديد لردع الاشرار من ارتكاب الجـــرائم ، لأن الامبراطور نفسه كان يميـل الى الرقة واللطف ، ولأن ولاة الاقليم كانوا لا يقتصون من الجرائم بما تســتحقه من العقاب ، فقد أدى هذا الى توجيه اللوم الشـــديد على الادارة العـــامة فى الامبراطورية · وسواء كان هذا صوابا أم لا فليكن لكل واحد رأيه ، أما أنا فانما أطلب الاذن لتدوين هذه الحقيقة ·

الفصل الثانى والثلاثون

خطاب قسطنطين الذى كتبه الى اجتماع القديسين

وكانت عادة الامبراطور أن يكتب رسائله باللغة اللاتينية ، فتترجم الى اللغة اليونانية بمعرفة مترجمين خصيصين لهذا الغرض · وســـالحق بهذا

(١) وقد اضاف البعض هنا هذه العبارة « لانك لا تضمن ان كنت تدفن فى الارض ، أو تلتهمك النار ، أو تغرق فى البحر ، أو تفترسك الوحوش الضارية » ·

الكتاب احدى هذه الرسائل كعينة ، أقصـــد تلك التى عنونت « الى مجمع القديسين » ، وأهديت الى كنيسة الله ، وذلك لكى لا تكون هنالك حجة لأى واحد للظن بان شهادتى فى هذا الصدد مجرد مدح أجوف ٠

الفصل الثالث والثلاثون

كيف أصغى الى خطاب يوسابيوس عن قبر مخلصنا وهو واقف

ولا يمكننى أن أتغافل هنا عن ذكر حادث تممه فى حضورى هـذا الملك العجيب ٠ ففى احدى المناسبات جرأتنى ثقتى فى تقواه على التماس الاذن منه بان ألقى على مسمع منه محاضرة عن قبر مخلصـــنا ٠ فتكرم باجابة ملتمسى هذا ، وفى وسط عدد كبير من المستمعين داخل القصر نفسه ، وقف وأصغى مع الباقين ٠ وعبثا توسلت اليه أن يجلس على العرش الامبراطورى الذى كان بجانبه ٠ بل ظل مصغيا بكل انتباه يزن فقط محاضرتى ، ثم شهد لصدق التعاليم اللاهوتية التى تضمنتها ٠ وبعـد مضى وقت ـ اذ كانت المحـــاضرة طويلة ـ أردت اختتامها ، لكنه لم يسمح لى بذلك وطلب الى الاستمرار الى نهايتها ٠ وعندما توسلت اليه مرة أخرى ليجلس استاء وقال انه ليس من اللائق الاصغاء بغير اكتراث الى بحث يمت بصلة الى الله ، وهـــذا الوضع نافع له لانه من باب التوقير الوقوف للاصغاء للحقائق المقدسة ٠ وبعد انهاء محاضرتى عدت الى بيتى واستأنفت أعمالى العادية ٠

الفصل الرابع والثلاثون

وكتب الى يوسابيوس عن عيد القيامة وعن نسخ من الكتاب المقدس

واذ كان الامبراطور بصفة مستمرة حريصا على مصـــلحة كنائس الله فقد كتب لى رسالة شخصية عن كيفية الحصول على نسخ من الاقوال الالهية الحية ، وأيضا عن موضوع عيد القيامة الاقدس ٠ لاننى أنا شخصيا أهديته تفسيرا عن المعنى الرمزى لهذا العيد ٠ ويستطيع كل من يقرأ الرسالة التالية أن يدرك كيف أكرمنى بارسال الرد على هذه الهدية ٠

الفصل الخامس والثلاثون

رسالة قسطنطين الى يوسابيوس يمتدح فيها بحثه عن عيد القيامة

« قسطنطين الظافر ، مكسيموس أوغسطس ، الى يوسابيوس

« يقينا انها لمهمة شاقة ، تفوق حدود اللغة نفسها ، معالجة أسرار المسيح ، وتفسير المنازعات المتعلقة بعيد القيامة بكيفية واضحة ، وتوضيح أصله ، وكيف تم بكيفية ثمينة ومضـنية (١) • لانه ليس فى مقدور من يستطيعون فهم الامور الالهية أن يقدموا عنها وصفا صحيحا • ولكننى اذ امتلأت اعجابا بعلمك وغيرتك ، لم أكتف بقراءة مؤلفك بسرور بل أعطيت الاوامر ـ كرغبتك ـ لارساله للكثيرين من أتباع ديانتنا المقدسة • وأنت اذ ترى مقدار سرورنا بتلقى الرسـائل التى من هذا القبيل من فطنتك فانه ليسرك أن تزيد اغتباطنا بمثل هذه التصانيف ، التى ـ باعترافك أنت ـ قد تعودت عليها منذ زمن طويل • ولذلك فاننى أحثك للاستمرار فى نشاطك المعتاد • ويقينا ان اعجابنـا الشـديد لدليل على أن الشخص الذى ترجم رسالتكم الى اللغة اللاتينية قد قام بمهمته بمنتهى الكفاءة ، حتى ولو كان من المستحيل أن تعبر الترجمة عن سمو الاصـل • فليحفظك الله أيهـا الاخ المحبوب »

هكذا كانت رسالته عن هذا الموضوع • أما تلك التى أشـار فيها الى تزويده بنسخ من الكتاب المقدس للقراءة فى الكنائس فكان نصها كما يلى :

الفصل السادس والثلاثون

رسالة قسطنطين الى يوسابيوس لاعداد نسخ من الكتاب المقدس

« قسطنطين الظافر ، مكسيموس أوغسطس ، الى يوسابيوس

« لقد سمحت عناية ورحمة الله مخلصـنا أن يلتف عدد وفير حـول الكنيسة المقدسة فى المدينة التى تدعى باسمى • ونظراً لان المدينة تتقدم بسرعة فى سـائر النواحى الاخرى فيبدو أنه من الضرورى جدا أن يزداد أيضا عدد الكنائس • لذلك أنقل اليكم عزمى فى هذا الصدد • فقد رأيته مناسبا أن أطلب من فطنتكم بان تأمروا بنسخ خمسين نسخة من الكتاب المقدس ، الذى تعرفون أن وجوده نافع وضرورى جدا لتعليم الكنيسة ، على أن تنسخ على رقوق خاصة بعناية خاصة ، وبحجم مناسب سهل الحمل ، وعلى أيدى

(١) أى بآلام المسيح وقيامته •

نساخ أكفاء مدربين فى فنهم • وقد تلقى رئيس الابروشية أيضا تعليمات كتابية من حلمنا لكى يحرص على تقديم كل ما يلزم لاعداد هذه النسخ ، والمطلوب منكم أن تبذلوا عناية خاصة لكى تكمل فى أقصر وقت ممكن • وبمقتضى هذه الرسالة أعطيت لكم السلطة أيضا لاستخدام عربتين من العربات العامة لنقلها ، حتى بعد الانتهاء من كتابة هذه النسخ كتابة جميلة يسهل نقلها وتقديمها الى لاطلع عليها أنا شخصيا • ويمكن تكليف أحد شمامسة كنيستكم بهذه المهمة ، وعند حضوره الى هنا سوف أقدم له مكافأة سخية • ليحفظك الله أيها الاخ المحبوب »

الفصل السابع والثلاثون

كيف أعدت النسخ

هكذا كانت أوامر الامبراطور التى سرعان ما نفذت وبدأ العمل ، وأرسلنا اليه النسخ فى مجلدات مجلدة تجليدا فاخرا ، يحتوى كل مجلد على ثلاث وأربع رزم (١) • وتشهد لصحة هذه الحقيقة رسالة أخرى كتبها الامبراطور اعترافا باستلامها ، وشهد فيها أيضا بفرحة العظيم اذ سمع بان قسطنطيا – احدى مدن بلادنا – التى كان أهلها خاضعين خضوعا أعمى للخرافات ، قد تركت عبادتها الوثنية السالفة مدفوعة باحساس دينى ، واستحسن تصرفاتهم •

الفصل الثامن والثلاثون

كيف دعيت « قرية » غزا « مدينة » لاعترافها بالمسيحية وأطلق عليها اسم قسطنطيا

لان المكان الذى يسمى الآن قسطنطيا فى اقليم فلسطين اذ اعتنق الديانة المخلصة ميزته نعمة الله واكرام خاص من الامبراطور ، فرفع الآن لاول مرة الى درجة مدينة ، ونال الشرف العظيم بان أطلق عليه اسم أخته التقية بدلا من الاسم السابق •

(١) وتحتوى كل رزمة على ثمان صفحات •

الفصل التاسع والثلاثون

كيف ان مكانا آخر فى فينيقية دعى مدينة
وكيف أبطلت العبادة الوثنية فى مدن أخرى وبنيت بها الكنائس

وقد حدث مثل هذا التغيير فى مدن عديدة أخرى ، مثلا فى تلك المدينة فى فينيقية التى استمدت اسمها من اسم الامبراطور ، وطوح أهلها باصنامهم التى لا عدد لها فى النيران ، واعتنقوا بدلها مبادىء الايمان المخلص • وتحول أشخاص كثيرون أيضا فى الاقطار الاخرى ، فى المدن والقرى ، الى طلاب مجدين لمعرفة الله المخلصة ، وحطموا التماثيل التى كانت لديهم من كل نوع ، والتى كانوا يعتبرونها مقدسة ، وأبادوها كاشياء تافهة لا قيمة لها ، وهدموا من تلقاء أنفسهم الهياكل الشامخة والمقاصير التى كانت تضمها • واذ نبذوا مشاعرهم السابقة ، أو بالاحرى ضلالاتهم ، بدأوا يبنون كنائس جديدة وأكملوا بناءها • ونظرا لانه ليس فى استطاعتى اعطاء تفاصيل وافية لاعمال هذا الملك التقى ، لاننى لم أسعد كغيرى بعشرته فى كل الاوقات ، لذلك سأكتفى بتدوين ما وصل الى علمى عن مثل هذه الحوادث بايجاز ، وذلك قبل التقدم الى التحدث عن أواخر أيام حياته •

الفصل الاربعون

وبعد أن أطلق
لقب قيصر على كل من أبنائه الثلاثة ، فى ثلاث
فترات كل فترة عشر سنوات ، كرس كنيسة أورشليم

فى ذلك الوقت كان قد أكمل ثلاثين سنة فى ملكه • وفى غضون هذه المدة صار أبناؤه الثلاثة زملاء له فى الملك فى أوقات مختلفة • فالاول قسطنطينوس ، الذى حمل اسم ابيه ، نال هذا الامتياز حوالى السنة العاشرة من ملكه • أما الثانى ، قسطنطيوس ، نسبة الى جده ، فقد نودى به قيصرا حوالى السنة العشرين • وأما قسطنس ، الثالث ، الذى يدل اسمه على ثبات ومتانة أخلاقه ، فقد نال نفس الامتياز فى الذكرى الثلاثين من ملك أبيه •

واذ ربى نسلا مثلثا ، أى ثالوثا كما يقولون ، من الابناء الاتقياء ، ورقى كل واحد فى ظرف عشر سنوات للاشتراك معه فى الحكم ، اعتبر أن الاحتفال بالذكرى الثلاثين فرصة طيبة لتقديم الشكر للملك الاسمى رب الكل ، معتقدا فى نفس الوقت أن تكريس الكنيسة ، التى أقامتها غيرته العظيمة فى أورشليم ، قد حان أنسب وقت له •

الفصل الحادى والاربعون

وفى نفس الوقت أمر بعقد مجمع فى صور (١) بسبب المنازعات التى قامت فى مصر

وفى نفس الوقت ثار روح الحسد ، عدو كل خير ، كسحابة قاتمة تتخلل أشعة الشمس ، محاولا افساد بهجة هذا الاحتفال ، باثارة المنازعات لتعكير صفو وسلام الكنائس المصرية • لكن أمبراطورنا الممتلىء نعمة من الله عقد مرة أخرى مجمعا من عدة أساقفة ، وحشدهم كجيش مستعد ، وكجنود الله ، ضد هذا الروح الخبيث ، آمرا بان يجتمعوا من كل أرجاء مصر وليبيا ، من أسيا وأوربا ، أولا للبت فى المسائل المتنازع عليها ، ومن ثم لتكريس البناء المقدس السابق الاشارة اليه • وقد أوصاهم ، لتسوية خلافاتهم فى عاصمة فينيقية ، مذكرا اياهم بانهم طالما كانوا يحملون شعور الحقد والبغضة بعضهم نحو البعض فليس لهم الحق فى خدمة الله ، لان شرائعه تمنع بصراحة المتخاصمين من تقديم قرابينهم الا بعد أن يصطلحوا أولا ويكونوا فى سلام بعضهم مع بعض • هكذا كانت الوصايا المباركة التى وضعها الامبراطور بصفة مستمرة نصب عينيه ، والتى بمقتضاها نصحهم بتأدية مهمتهم الحالية بروح الوحدة الكاملة والوئام والسلام برسالة هاك نصها •

الفصل الثانى والاربعون

رسالة قسطنطين الى مجمع صور

« قسطنطين الظافر ، مكسيموس أرغسطس ، الى مجمع صور المقدس

« يقينا انه من الاوفق والاليق لرفاهية أيامنا هذه أن تكون الكنيسة الجامعة غير منقسمة ، وأن يكون خدام المسيح فى هذه اللحظة الحاضرة خالين من كل لوم • ونظرا لانه يوجد بعض ممن قد حملوا بروح المنازعات المؤذية المحزنة (ولست أريد اتهامهم بتعمد سلوك حياة لا تتفق مع دعوتهم) ، ويحاولون أن يخلقوا ذلك الاضطراب العام ، الذى أعتقد أنه أشر كل أنوع

---

(١) تآمر جماعة من الاريوسيين بزعامة يوسابيوس أسقف نيكوميديا ، وأثروا على قسطنطين لعقد مجمع صور هذا • وفيه اتهموا أثناسيوس بتهم دنيئة • لكن العدل الالهى أبى الا أن يبرىء أثناسيوس منها كلها بكيفية أخجلت خصومه • وكان ذلك حوالى سنة ٣٣٥ م

الشرور ، لذلك أقدم اليكم النصيحة ، وقد تقدمتم بعض الشيء فى طريقكم ، لكى تجتمعوا معا من دون أبطاء ،ذلك لكى تدافعوا عمن يحتاجون الى الدفاع ، وتقدموا العلاج لاخوتكم الذين هم فى خطر ، وتعيدوا الاعضاء المنقسمين الى وحدة الرأى ، وتصححوا الاخطاء طالما كانت الفرصة سانحة ، وبهذا تعيدون الى اقطار كثيرة ذلك الوئام الذى بدده كبرياء وشذوذ أفراد قلائل وأعتقد أن الجميع متقنعون بان هذا السبيل يرضى الله القدير (وهذه أيضا هى أقصى أمنية لى) وسوف يعود عليكم بكرامة جزيلة ، ان نجحتم فى اعادة السلام •

« فلا تتباطأوا ، بل عجلوا بغيرة مضاعفة لوضع حد للمنازعات الحالية بطريقة تناسب المقام ، وذلك بان تجتمعوا معا بروح الاخلاص الحقيقى ، والايمان الذى يتطلبه منا المخلص الذى نعبده فى كل المناسبات ، وهذا أقوله بصوت مسموع • ولا اظن انكم فى حاجة لاقامة الدليل على غيرتى • فقد أتممت كل ما وجهتم اليه نظرى برسائلكم • أرسلت لاولئك الاساقفة الذين طلبتم حضورهم ، لكى يشتركوا معكم فى تقديم المشــورة • وأرسلت ديونيسيوس ، القنصل ، لكى يذكر رؤساء الكنائس بواجبهم ، الذين يجب أن يحضروا المجمع معكم ، وسوف يحضر بنفسه ليرأس الجلسات ، ويحفظ النظام بصفة خاصة ،وان تجاسر أحد لكسر أوامرى فى هذه المناسبة ــ وهذا ما استبعده جدا ــ ورفض الحضور ، فسوف يرسل رسول فى الحال لنفى ذلك الشخص بامر ملكى ، ولتعليمه بانه لا يليق به مقــاومة أوامر الامبراطور الصادرة دفاعا عن الحق •

« أما عن الباقين فيليق بقداستكم أن تفكروا فى علاج مناسب ، سواء للاخطاء الايجابية أو الاخطاء العرضية غير المقصــودة ، على أن لا تكونوا مغرضين ولا متأثرين بعوامل العــداوة أو المحبة ، بل كما يليق بالاوامر الكنسية والرسولية ، وذلك لكى تزيلوا عن الكنيسة فى الحال كل عار ، وتنقذونى من حالة الجزع والقلق ، ولكى تنالوا أسمى درجات الكرامة اذ تعيدون بركات السلام للمنقسمين على أنفســهم الآن • ليحفظكم الله أيها الاخوة المحبوبون »

الفصل الثالث والاربعون

أساقفة من كل الاقطار يحضرون تكريس كنيسة أورشليم

لم تكد تنفذ هذه الوصايا حتى وصل رسل آخرون يحملون رسائل من قبل الامبراطور ، مع وصــية عاجلة الى المجمع ليسرعوا فى الذهـاب الى أورشليم من دون ابطاء • وبناء على هذا غادروا اقليم فينيقية الى المكان الذى يقصدونه ، مستخدمين وسائل النقل العامة • وهكذا أصبحت أورشـــليم

ملتقى لابرز رؤساء الكنائس من كل قطر ، واكتظت المدينة بعدد وفير جدا من خدام الله . فارسل المقدونيون أسقف مدينتهم العظيمة (١) ، وأرسل البانيون (٢) والمواسيون (٣) أقدر الشبان بينهم . حضر أيضا أسقف مبارك من بلاد الفرس قدير جدا فى كلمة الله . وشرف المجلس أيضا أساقفة من بيثينية وتراكيا . ولم يتخلف عن الحضور أبرز الاساقفة من كيليكية ، ولا رئيس كبدوكية ، وهو يتميز عن الجميع بالعلم والفصاحة . وبالايجاز لقد حضر أساقفة من سوريا وما بين النهرين ، من فينيقية وبلاد العرب ، من فلسطين ومصر وليبيا وطيبة ، وأشتركوا فى تفخيم مجمع خدام الله ، وكان يتبعهم العدد الوفير من كل قطر ، يحف بهم الحرس الامبراطورى ، وأرسل كذلك ضباط أمناء من القصر الامبراطورى نفسه ، مزودين بتعليمات لتفخيم الاحتفال على نفقة الامبراطور .

الفصل الرابع والاربعون

استقبال ماريانوس (الموثق) لهم ، توزيع مساعدات مالية على الفقراء ، وتقديم هبات للكنيسة

كان قائد ورئيس هؤلاء الضباط شخص من أخلص خدام الامبراطور ، مشهود له بالايمان والتقوى ، خبير بكلمة الله ، وكان قد برز جدا بسبب اعترافاته التقوية أيام بطش الطغاة ، ولذلك أوكلت اليه ادارة الامور الحالية . واطاعة لأوامر الامبراطور باخلاص استقبل الوافدين ، مظهرا كرما عظيما فى اضافتهم ، وأولم لهم الولائم الفخمة . ووزع كذلك مساعدات مالية سخية ، وملابس على العرايا والمعوزين ، ومن يتضورون جوعا من كلا الجنسين المحتاجين الى ضروريات الحياة . وأخيرا رصع الكنيسة نفسها وجملها بتقدمات فى غاية الفخامة . وهكذا قام بالمهمة التى أوكلت اليه خير قيام .

الفصل الخامس والاربعون

المحاضرات المختلفة التى ألقاها الاساقفة المجتمعون وكذا يوسابيوس كاتب هذا السفر التاريخى

وفى نفس الوقت ازداد المهرجان رونقا وبهاء بسبب صلوات ومحاضرات خدام الله الذين مجد البعض منهم تقوى الامبراطور العظيمة وولاءه لمخلص

(١) الاسكندر اسقف تسالونيكى .

(٢) Pannonians

(٣) Moesians

البشرية ، وأطنبوا فى وصف فخامة البنـــاء الذى قدمه ذكرى له • وقدم الآخرون وليمة عقلية لآذان كل الحاضرين ، بالقاء أبحاث تحليلية عامة عن المواضيع المقدسة التى لديانتنا • وفسر الاخرون بعض فقرات من الكتاب المقدس ، وكشفوا عن معانيها الخبيئة •

أما الذين لم يكونوا كفئـــا لهذه الجهـــود ، فقـــدمو ذبيحـــة غير دموية وخدمة جليلة لله عن طريق الصلوات التى رفعوها من أجل الســـلام العام ، ومن أجل كنيسة الله ، ومن أجل الامبراطور نفسه ، الذى استخدمه الرب واسطة لمنح كل تلك البركات ، ومن أجل أبنائه الاتقياء • وأنا أيضا الذى لم أكن مستحقا لهذا الامتياز ألقيت عدة محاضرات عامة اكراما لهذه المناسبة العظيمة ، قدمت فيها تفسيرا كتابيا لتفاصيل وأجزاء هذا البنـــاء العظيم ، ومن الجهة الأخرى حاولت أن أجمع من النبوات بعض ايضـــاحات للرموز التى تضمنها البناء •

هكذا احتفل بمهرجان التدشين بفرح عظيم فى السنة الثلاثين من حكم الامبراطور •

الفصل السادس والاربعون

وبعد ذلك قدم يوسابيوس وصفه لكنيسة المخلص
وألقى خطبة أمام قسطنطين نفسه فى الذكرى الثلاثين

وقد وصفت ــ على قدر استطاعتى من الدقة ــ بناء كنيسة مخلصنا ، وشكل مغارته المقدسة ، وفخامة البناء ، والتقدمات التى لا تحصى التى من ذهب وفضة وحجارة كريمة ، وقدمت هـــذا الوصف فى نبذة مســـتقلة للامبراطور ، سالحقها بهذا الكتاب فى الوقت المناسب • وسالحق به أيضا تلك الخطبة التى ألقيتها فى حضرة الامبراطور بمناســـبة الذكرى الثلاثين عندما سافرت بعد ذلك الى المدينة التى تحمل اسمه •

كانت هذه هى الفرصة الثـــانية التى أتيحت لى لتمجيد الله العلى فى القصر الامبراطورى نفسه • وفى هذه المناسبة أظهر سامعى التقى فرحه العظيم ، كما شهد بذلك فيما بعد لدى استقبال الاساقفة الذين كانوا حاضرين وقتئذ ، ومنحهم رتبا مختلفة •

الفصل السابع والاربعون

عقد مجمع نيقية فى السنة العشرين من حكم قسطنطين ، وتدشين كنيسة أورشليم فى السنة الثلاثين

كان هذا المجمع الثانى الذى عقده الامبراطور فى أورشليم أعظم ما وصل الى علمنا بعد المجمع الأول الذى كان عقدة فى عاصمة بيثينية الشهيرة ، والذى كان اجتماعا ناجحا ، عقد فى السنة العشرين من ملكه ، وكان فرصة مناسبة لتقديم الشكر من أجل الانتصار على أعدائه فى نفس المدينة التى تحمل اسم النصر (١) . أما الاجتماع الحالى فقد زاد فى بهجة الذكرى الثلاثين التى كرس فيها الامبراطور كنسية قبر مخلصنا كتقدمة سلام لله مانح كل الخيرات .

الفصل الثامن والاربعون

واستياء قسطنطين من أحد الذين أفرطوا فى مدحه

والآن ، اذ تمت كل هذه الاحتفالات ، واستمرت صفات الامبراطور الالهية موضع مدح الجميع ، تجرأ أحد خدام الله على أن يدعوه ــ فى حضرته ــ مغبوطا ، على أساس أنه حسب مستحقا أن يعطى ملكوتا مطلقا شاملا فى هذه الحياة ، وأن يشارك ملكوت ابن الله فى الدهر الآتى . لكن قسطنطين سمع هذه الكلمات باستياء شديد ، ومنع المتكلم من الاستمرار فى الكلام بهذه اللهجة ، ناصحا أياه أن يصلى بحرار من أجله بالاحرى ، لكى يوجد مستحقا أن يكون خادما لله سواء فى الحياة الحاضرة أو العتيدة .

الفصل التاسع والاربعون

زواج قسطنطيوس قيصر ابنه

وفى تمام السنة الثلاثين من ملكه احتفل بزواج ابنه الثانى ، اذ كان قد تم زواج ابنه البكر قبل ذلك بوقت طويل . وكانت هذه مناسبة لاقامة الافراح والولائم ، وحضر الامبراطور بنفسه حفلة زفاف ابنه ، وحيا الضيوف من الجنسين ، رجالا ونساء ، وبالغ فى اكرامهم ووزعت الهدايا الفاخرة بسخاء على المدن والشعب .

---

(١) اى نيقية .

الفصل الخمسون

وصول سفراء وهدايا من الهنود

ونحو هذا الوقت وصل سفراء من الهنود – الذين يقطنون الاقاليم البعيدة فى الشرق – حاملين هدايا تحتوى على أحجار كريمة من مختلف الاشكال ، وحيوانات تختلف فى أنواعها عن تلك المألوفة عندنا • وقدموا هذه الهدايا للامبراطور ، وبذلك اعترفوا أن عظمته قد امتدت حتى الى المحيط الهندى ، وأن أمراء بلادهم ، الذين يقدمون له الولاء سواء بالتصوير أو بالتماثيل ، يعترفون بسلطانه الامبراطورى الفائق • وهكذا خضع الهنود الشرقيون لسلطانه ، كما فعل البريطانيون فى المحيط الغربى فى بداية ملكه •

الفصل الحادى والخمسون

وقسم قسطنطين الامبراطورية بين أبنائه الثلاثة الذين دربهم فى الشئون السياسية والروحية

واذ امتد سلطانه الى أقصى العالم قسم كل مملكته بين أبنائه الثلاثة ، كأنه قد ترك ميراثا أبويا لاعز من يعزهم • فخصص للاكبر ما ورثه عن جده ، وللثانى امبراطورية الشرق ، وللثالث الممالك الواقعة بين هذين القسمين • واذ أراد أن يقدم لابنائه ميراثا ثمينا جداً يليق بنفوسهم حرص على أن يغرس فيهم المبادىء الدينية القويمة ، فكان هو أنموذجا لهم فى الاعتراف بالاشياء المقدسة ، كما عين أشخاصا مشهودا لهم بالتقوى كمعلمين لهم • وفى نفس الوقت خصص لهم أقدر المعلمين فى العلوم العالمية ، فتعلموا من البعض الفنون الحربية ، ومن غيرهم الشئون السياسية ، ومن الاخرين العلوم القانونية • وعلاوة على هذا زود كل واحد بحاشية ملكية مكونة من البيادة ، ورجال الحراب ، والحرس الملكى ، مع كل أنواع القوات الحربية ، يقودهم الضباط ، وقواد المئات ، والقواد الذين كان الامبراطور يثق من مهارتهم الحربية وولائهم لابنائه •

الفصل الثانى والخمسون

ولما وصلوا حد الرجولة كان هو مرشدهم فى التقوى

لما كان القياصرة فى سن رخصة كان يساعدهم بعض المستشارين فى ادارة الشئون العامة ، ولكن لما وصلوا سن الرجولة كانت تكفيهم ارشادات أبيهم • ولدى وجوده معهم كان يقدم اليهم قدوته وينصحهم باقتفاء آثاره الطيبة • وعند غيابه عنهم كان يزودهم برسائل يقـــدم اليهم فيها قواعد السلوك التى تتفق مع مركزهم السامى ، وكانت أول وأهم نصيحة هى أن يعتبروا بان معرفة وعبادة رب الكل أهم من الثروة ، بل أهم من الامبراطورية نفسها •

واخيرا سمح لهم بادارة شئون الامبراطورية العامة دون رقابة ، وكانت طلبته الاولى منهم أن يعنوا بمصالح كنيسة الله ، ويعتـــرفوا بجرأة بانهم تلاميذ المسيح • واذ تدرب أبناؤه هكذا ، وانبعثت فيهم روح الطاعة وفق محض رغبتهم فى الفضيلة أكثر مما هو وفق التعاليم التى تلقنوها ، تمموا نصـــائح والدهم الى أقصى حد ، باذلين أقصى جهدهم نحو خـــدمة الله ، ومتممين فرائض الكنيسة حتى فى القصر الملكى نفسه ، مع جميـــع أفراد عائلاتهم • لان والدهم ببعد نظره رتب أن يكون جميع خدم أبنائه مسيحيين • وليس ذلك فقط بل ان القواد الحربيين ، من ذوى المراكز الرفيعة ، ومن أوكلت اليهم ادارة الشئون العامة ، كانوا أيضا مسيحيين ، لأن الامبراطور كان يثق فى أمانة من كرسوا أنفسهم لخدمة الله ، كأنهم مراكز دفاع قوية وأكيدة •

وعندما أكمل امبراطورنا ، المثلث الطوبى ، هذه الترتيبات ، وبذلك ضمن النظام والهدوء فى كل أرجاء الامبراطورية ، رأى واهب كل البركات أن الوقت قد حـــان لينقله الى ميراث أفضل ، ودعاه ليـــوفى دين الطبيعة البشرية •

الفصل الثالث والخمسون

وبعد أن حكم نحو اثنتين وثلاثين سنة ، وعاش أكثر من ستين سنة كان لا يزال سليم الجسم

ولقد دام ملكه اثنتين وثلاثين سنة ، الا شهورا قليلة وبضعة أيام (١) ، وعاش نحو ضعف هذه المدة • وفى هذه السن كان جسمه سليما قويا خاليا من كل وهن ، محتفظا بنشاط أقوى من نشاط الشـــباب ، وطلعة وسيمة

(١) بدأ حكمه سنة ٣٠٦ ومات سنة ٣٣٧

نبيلة ، وقوة شديدة ، حتى انه كان فى قدرته الاشتراك فى التمرينات الحربية ، وركوب الخيل ، وتحمل أعباء السفر ، ونزول ساحات الوغى ، واقامة علامات الظفر على أعدائه المنهزمين ، علاوة على انتصاراته غير الدموية التى اعتاد احرازها على مقاوميه ٠

الفصل الرابع والخمسون

بخصوص أولئك الذين أساءوا استخدام كرمه الزائد وذلك بجشعهم وريائهم

كذلك وصلت مواهبه العقلية الى حد الكمال البشرى ٠ والواقع انه امتاز بسمو صفاته ، سيما أريحيته ، وهذه فضيلة عرضته لانتقاد الكثيرين بسبب انحطاط الاشرار الذين نسبوا جرائمهم الى صبر الامبراطور وقوة احتماله ٠ والواقع اننى شخصيا استطيع تقديم الشهادة عن الشرور الجسيمة التى سادت ذلك العصر ، أعنى مظالم أولئك الجشعين المستهترين الذين سلبوا كل طبقات البشر على السواء ، ورياء من اندسوا فى الكنيسة منتحلين لانفسهم اسم المسيحيين وصفاتهم ٠ فان أريحية الامبراطور وفعله للخير ، وطيبة قلبه ، واخلاصه فى ايمانه ، وحسن أخلاقه ، جعلته يصدق أولئك الذين عرفوا بانهم مسيحيون ، الذين تظاهروا ، بمكر ، بالاخلاص له ومحبته ٠ أما الثقة التى وضعها فى مثل هؤلاء الاشخاص فكانت تدفعه أحيانا الى اتخاذ بعض تصرفات لا تليق بشخصه ، الامر الذى دعا حساده الى تشويه جمال أخلاقه ٠

الفصل الخامس والخمسون

وانشغل قسطنطين فى التأليف فى مختلف النواحى الى نهاية حياته

على أن هؤلاء الاشرار سرعان ما داهمهم التأديب الالهى ٠

والان لنرجع الى امبراطورنا ، فنقول انه قد درب ذهنه تدريبا كاملا فى فن التفكير حتى أنه استمر الى النهاية فى تأليف أبحاث عن مختلف المواضيع ، والقاء محاضرات علنية كثيرة ، وتعليم سامعيه فى المواضيع الروحية ٠ وانشغل كذلك فى سن التشريع فى النواحى السياسية والحربية ٠

وبالايجاز أنه انشغل فى التفكير فى كل ما يعود بالخير على الجنس البشرى ٠

ومما هو جدير بالذكر انه قبل ارتحاله بوقت وجيز جداً ألقى خطبة جنازية أمام سامعيه العديدين تحدث فيها باسهاب عن خلود النفس ، وحالة اولئك الذين عاشوا فى التقوى ، والبركات التى ادخرها الله للذين يحبونه .

ومن الناحية الاخرى بين ، بكل وضوح وجلاء ، وبحجج دامغة ، نهاية من يسلكون طريقاً مضاداً ، ووصف ، بلغة واضحة ، هلاك الاشرار النهائى .

ويبدو أن شهادته القوية عن هذه المواضيع قد أثرت جدا فى ضمائر سامعيه ، حتى ان أحد مدعي الفلسفة لما سأله الامبراطور عن رأيه فيما سمع شهد لصدق كلامه ، وأثنى على الحجج التى بها فضح عبادة آلهة كثيرين . وكأنما قد مهد الامبراطور الطريق ـ بمثل هذه الاحاديث مع أصدقائه قبيل موته ـ لانتقاله الى حياة أفضل .

الفصل السادس والخمسون

كيف أخذ معه بعض الاساقفة فى حملة ضد بلاد الفرس وحمل معه خيمة على شكل كنيسة

ومما هو جدير بالذكر أيضا انه حوالى هذا الوقت الذى أكتب عنه الان ، اذ سمع الامبراطور بحدوث فتنة من البرابرة فى الشرق ، أدرك أنه لا يزال باقيا عليه اخضاع هذا العدو ، ولذلك اعتزم تجريد حملة ضد الفرس . وبناء على هذا شرع حالا في تحريك قواته ، وفى نفس الوقت أخبر الاساقفة الذين تصادف وجودهم في السراى بعزمه على القيام بهذه الحملة ، ورأى أنه من المناسب أن يأخذ بعضهم لمرافقته ومساعدته فى عبادة الله .

أما هم فعبروا عن سرورهم وارتياحهم لمرافقته ، وأظهروا رغبتهم الملحة بان لا يتركوه ، اذ وجدوا أنه من المحتم عليهم أن يحاربوا معه ولاجله ، وذلك برفع التضرعات الى الله من أجله .

واذ امتلأ فرحا باستجابة طلبه كشف لهم عن خطة الدفاع . وبعد ذلك أعد خيمة فخمة جدا تمثل فى شكلها هيئة كنيسة ، لكى يستخدمها فى الحرب التى كانت قريبة على الابواب ، معتزما أن يتحد مع الاساقفة فى الصلاة بها الى الله مصدر كل انتصار .

الفصل السابع والخمسون

كيف استقبل سفارة من الفرس وسهر ليلة عيد القيامة مع آخرين

وفى نفس الوقت لما سمع الفرس باستعدادات الامبراطور للحرب ، وفزعوا من فكرة الاشتباك فى حرب مع قواته ، أرسلوا سفارة يعرضون شروطا للصلح • فقبل الامبراطور هذه الشروط فى الحال اذ كان محبا للسلام ، ودخل فى علاقات ودية مع ذلك الشعب • فى هذا الوقت كان عيد القيامة المجيد على الابواب ، وفيه قدم فريضة الصلاة الى الله ، وقضى الليل كله ساهرا مع الآخرين •

الفصل الثامن والخمسون

بناء كنيسة فى القسطنطينية اكراما للرسل

بعد هذا شرع فى بناء كنيسة تذكارا للرسل فى المدينة التى تحمل اسمه • ورفع هذه الكنيسة الى ارتفاع شاهق ، وجملها بطلائها ببلاط من رخام ذى الوان مختلفة من الاساس الى السقف • كذلك عمل السقف من الداخل بصناعة دقيقة ، وغشاه بالذهب • أما السقف الخارجى ، الذى يحمى البناء من الامطار ، فعمله من النحاس بدل القرميد ، وهذا أيضا زينه بالذهب بشكل رائع جدا ، فكان يعكس أشعة الشمس بكيفية تبهر أنظار كل من يراها عن بعد • وأما القبة فكانت تحيط بها مشبكية دقيقة الصنع مصنوعة من النحاس والذهب •

الفصل التاسع والخمسون

أوصاف أخرى عن نفس الكنيسة

هكذا كانت الفخامة التى سر الامبراطور أن يجمل بها هذه الكنيسة • وكان البناء يحيط به فضاء فسيح جدا تنتهى أربعة جوانبه بقبو كسياج لهذا الفضاء ، بل للكنيسة نفسها • وكان يتصل بالقبو مجموعات من الغرف الفخمة بحمامات ودهاليز ، فضلا عن شقق لاقامة الاشخاص الذين أوكلت اليهم حراسة المكان •

الفصل الستون

واقام أيضا قبره التذكارى فى هذه الكنيسة

كل هذه الابنية شيدهما الامبراطور رغبة منه فى اقامة تذكار دائم لرسل مخلصنا • ومع ذلك كانت له غاية أخرى من تشييدها ، لم تكن معروفة فى بداية الامر ، لكنها أصبحت فيما بعد واضحة للجميع • فانه فى الواقع اختار هذا المكان ليدفن فيه ، اذ أراد بحرارة ايمانه أن يشارك جسده شرف الرسل ، وأن يكون هو نفسه حتى بعد موته شريكا فى الاعجاب والتقدير والتبجيل التى سوف تقدم اليهم فى هذا المكان • من أجل هذا أمر بوضع اثنى عشر تابوتا للموتى فى هذه الكنيسة ، كاعمدة مقدسة اكراما وتذكارا لهذا العدد الرسولى المقدس ، على أن يوضع تابوته فى وسطها ، ستة فى هذا الجانب ، وستة فى الجانب الاخر •

وهكذا — كما قلت أعد ، بحكمته وبعد نظره ، مكانا لاراحة جسده بعد موته • واذ احتفظ بهذه الرغبة سرية لنفسه مدة طويلة ، دشن هذه الكنيسة الآن للرسل ، معتقدا أن هذه الخدمة التى أقامها تذكارا لهم سوف تكون بركة عظيمة لنفسه •

ولم يخيب الله رجاءه الذى تاقت اليه نفسه بشدة • لانه بعد أن تمم أول خدمة لعيد القيامة ، وقضى يوم ربنا المقدس هذا بكيفية جعلته فرصة للفرح والبهجة لنفسه وللجميع ، سرت مشيئة الله — الذى بمساعدته قام بكل هذه الاعمال ، والذى ظل خادما أمينا له الى نهاية حياته — أن ينقله الى حياة أسعد فى وقت سعيد •

الفصل الحادى والستون

مرضه فى هيلينوبوليس (١) وصلواته من أجل معموديته

فى بداية الامر أحس بوعكة بسيطة أعقبها المرض الشديد • ونتيجة لهذا توجه الى حمامات المياه الساخنة فى مدينته ، وبعد ذلك ذهب الى المدينة التى تحمل اسم أمه • وهنا صرف بعض الوقت فى كنيسة الشهداء ، وقدم الصلوات والتضرعات الى الله • واذ اقتنع أخيرا أن نهاية حياته قد دنت أحس بان الوقت قد حان ليطلب التطهير من خطاياه السابقة ، معتقدا تمام الاعتقاد بان أية خطايا ارتكبها كانسان بشرى سوف تتطهر منها نفسه بفاعلية كلمات المعمودية ومائها • تحت تأثير هذه الافكار قدم تضرعاته واعترافاته الى الله ،

(١) Helenopolis

جاثيا على أرضية الكنيسة نفسها التى قبل فيها الآن لاول مرة وضع الايدى بالصلاة (١) . بعد هذا سار حتى الى ضواحى نيكوميديا ، وهنالك استدعى الاساقفة لمقابلته ، وخاطبهم بالكلمات التالية :

الفصل الثانى والستون

التماس قسطنطين الى الاساقفة لكى يعمدوه

لقد حان الوقت الذى طالما تاقت اليه نفسى بشغف شديد وصلوات حارة لكى أنال خلاص الله . حلت الساعة التى فيها أنال أنا أيضا بركة ذلك الختم مانح الخلود ، الساعة التى فيها أتقبل ختم الخلاص . لقد فكرت أن أتمم هذا فى مياه نهر الاردن ، الذى كتب عنه أن مخلصنا اعتمد فيه كمثال لنا ، لكن الله الذى يعلم ما هو مناسب لنا ارتضى بان أتقبل هذه البركة هنا . فاسمحوا اذن باتمامها من دون ابطاء . لانه ان كانت ارادة رب الحياة والموت أن يطول وجودى هنا ، وأن أتيح لى بان أعاشر شعب الله من الان فصاعدا ، وأتحد معهم فى الصلاة كعضو فى كنيسته ، فساتخذ لنفسى سبيلا للحياة يليق بخدمته »

وبعد أن نطق بهذه الكلمات تمم الاساقفة الطقوس المقدسة بالطريقة المعتادة . وبعد أن قدموا اليه التعاليم اللازمة سمحوا له بالاشتراك فى الفريضة المقدسة . وهكذا صار قسطنطين أول الملوك الذين يولدون ولادة جديدة ويتكاملون فى كنيسة مكرسة لشهداء المسيح . واذ وهب ختم المعمودية الالهى فرح فى الروح ، وتجدد ، وامتلأ نورا سماويا ، واغتبطت نفسه بسبب حرارة ايمانه ، ودهشت بسبب استعلان القوة الالهية .

وفى نهاية الخدمة لبس حلة ملوكية براقة ، تضئ كالنور (٢) ، واستراح الى أريكة ناصعة البياض ، وأبى أن يرتدى اللون الارجوانى فيما بعد .

الفصل الثالث والستون

كيف قدم الشكر لله بعد معموديته

بعد هذا رفع صوته ، وتدفقت من فمه عبارات الشكر لله ، التى اعقبتها هذه الكلمات : « الآن أعلم أننى مغبوط حقا . الآن أثق أننى حسبت خليقا بالخلود ، وصرت شريكا للنور الالهى » .

---

(١) تبين هذه الكلمات أن قسطنطين أخر معموديته حتى مرضه الأخير . وقد تقول الكثيرون عن علة هذا التأخير أقوالا شتى .

(٢) كانت العادة ان يلبس من نال المعمودية ملابس بيضاء .

وبعد ذلك عبر عن رثائه للحالة التعسة لاولئك المحـــرومين من تلك البركات التى أصبح يتمتع بها . وعندما مثل بين يديه ضباط جيشه وقادته بانتحاب ودموع لانهم سوف يصبحون يتامى من بعده ، وبصلوات حارة لكى تطول أيامه ، أكد لهم ردا على هذا بانه قد أصبح الآن ينعم بالحياة الحقيقية ، وأنه لن يستطيع أحد ســـواه ادراك قيمة البركات التى نالها ، ولهذا فانه بالاحرى يفضل الاسراع فى ارتحاله الى الله عن تأخير هذا الارتحال .

بعد هذا شرع فى تكملة الترتيبات اللازمة لشئونه ، موصيا بمنح هبة سنوية للرومانيين سكان مدينته ، ومقســـما الامبراطورية بين أبنـائه ، وبالايجاز متمما كل الترتيبات وفق ما استراحت اليه نفسه .

الفصل الرابع والستون

موت قسطنطين ظهر عيد الخمسين

تمت كل هذه الحوادث أثناء عيد فى غاية الاهمية ، أعنى عيد الخمسين الرهيب المبارك ، الذى يتميز بفترة سبعة أسابيع ، ويختم بذلك اليوم الذى شهدت الاسفار المقدسة عنه بان مخلصنا صعد فيه الى السماء ، وبحلول الروح القدس بين الناس . فى أثناء هذا العيـــد نال الامبراطور الامتيازات السابق وصفها ، وفى اليوم الاخر ، الذى يصح تسميته عيد الاعياد ، انتقل الى حضرة الله نحو الظهر ، تاركا بقاياه الفانية لزملائه الفانين ، وحاملا الى الله ذلك الجزء من كيانه القادر على ادراكه ومحبته .

هكذا كانت خاتمة حياة قسطنطين الفانية . ولنتامل الان فى الظروف التى تلت هذا الحادث

الفصل الخامس والستون

نحيب الجند وضباطهم

وللحال مزق الجند الحاضرون والحرس الملكى ثيابهم ، وارتموا على الارض ، ضاربين على رؤوسهم ببكاء وعويل ، صـــارخين نحو سيدهم ومعلمهم ، أو بالاحرى نحو أبيهم كابناء حقيقيين ، بينما وجه اليه الحديث ضباطهم وقواد المئات على أساس أنه حافظهم وحاميهم والمحسن اليهم . كذلك حضر سائر أفراد الجيش كرعية يندبون سوء حظهم لانتقال راعيهم .

أما الشعب فركضوا فى الحال بتهور فى كل أرجاء المدينة • وكان البعض يعبرون عن حزن قلوبهم بصراخ شديد ، وارتبك البعض بسبب شدة الحزن ، وحزن كل واحد على الحادث كمصيبة حلت به شخصيا ، وناح الجميع على موته كأنهم قد أحسوا بحرمانهم من بركة حرم منها كل فرد على السواء •

الفصل السادس والستون

نقل الجسد من نيكوميديا الى القصر الملكى فى القسطنطينية

بعد هذا نقل الجند الجسد من فراشه ، ووضعوه فى تابوت ذهبى لفوه بغطاء قرمزى ، ونقلوه الى المدينة التى تحمل أسمه • وهناك وضعوه فى مكان مرتفع فى غرفة القصر الامبراطورى الرئيسية ، وأحاطوه بشموع مشتعلة ومثبتة فى شمعدانات من ذهب ، فكان منظرا رائعا لم يشهده على الارض انسان تحت نور الشمس منذ بدء العالم • لان جسد الامبراطور وضع فى الجناح الرئيسى من القصر الامبراطورى ، فى مكان مرتفع مرتديا رمزى العظمة والسلطان ، أى التاج والثوب الارجوانى ، ويحيط به عدد وفير من الخدم والاتباع ، الذين كانوا يحرسونه ليلا ونهارا بلا انقطاع •

الفصل السابع والستون

كيف قدم اليه النبلاء والحكام نفس الاكرام الذى كانوا يقدمونه له قبل موته

أما قادة الجيش ، من أعلى الرتب ، والنبلاء ، وجميع الحكام ، الذين اعتادوا الخضوع أمام امبراطورهم من قبل ، فقد استمروا فى تأدية هذا الواجب دون أى تغيير ، وكانوا يدخلون غرفته فى الاوقات المعينة حتى بعد موته ، يخضعون برؤوسهم ويجثون على ركبهم ويحيون ملكهم فى تابوته ، كأنه لا يزال حيا •

بعد ذلك حضر أعضاء مجلس الاعيان ، وجميع أصحاب المناصب الرفيعة ، وقدموا نفس الولاء • بعد هؤلاء جاءت الجماهير من مختلف الطبقات مع زوجاتهم وأولادهم ليشهدوا المنظر •

استمر تقديم هذا الاجلال والاكرام وقتا طويلا ، اذ اعتزم الجند حراسة الجسد حتى يصل أبناؤه ، ويقوموا بأنفسهم باتخاذ اجراءات جنازة أبيهم •

لم يوجد على الارض بشرى مثل هذا الملك المغبوط استمر فى الحكم حتى بعد موته ، واستمر يقبل نفس الولاء الذى كان يقـدم اليه فى حياته • وهكذا كان هو وحده ، دون كل من عاشـوا على الارض ، الذى نال هذا الاجر من الله ، وهو أجر مناسب طالما كان هو وحده دون سائر الملوك قد أكرم الله العلى ومسيحه فى كل تصرفاته ، ولذلك سر الله نفسه أن تحتفظ جثته بالهيبة الامبراطورية بين البشر • وهكذا بدت أمام كل من لم يفقد ادراكه تلك الامبراطورية الخالدة الابدية التى تعين أن تتمتع بها نفسه •

هكذا كانت الحوادث التى تمت وقتئذ •

الفصل الثامن والستون

عزم الجيش على اطلاق لقب أوغسطس على بنيه من الان فصاعدا

وفى نفس الوقت اختار القـادة من فرقهم أولئك الضـباط الذين اشتهروا لدى الامبراطور بالامانة والغيرة ، وأرسلوهم الى القياصرة حاملين نبأ هذا الحادث الاخير • فقاموا بهذه الخدمة فى الحال • وحالما سمع الجيش فى كل الاقطار نبأ موت الامبراطور ، عزم الجميع باجماع الآراء — كأنهم مدفوعون بدافع خارق للطبيعة — أن لا يعترفوا باحد سوى أبنائه كملوك على العـالم الامبراطورى ، كما لو كان امبراطورهم العظيم لا يزال حيا • وبعـد ذلك مباشرة عزموا على أن لا يبقى هؤلاء حاملين لقب قياصرة ، بل يجب ان يطلق لقب أوغسطس على كل منهم ، وهو لقب ينم عن أسمى سلطة امبراطورية •

كانت هذه هى الاجـراءات التى اتخذها الجيش ، وقد أرسلوا هـذه القرارات بالرسـائل بعضهم الى بعض ، وهكذا أصـبحت رغبة الجيش الاجماعية معروفة فى كافة أرجاء الامبراطورية فى وقت واحد •

الفصل التاسع والستون

الحزن على قسطنطين فى روما • وتكريمه هناك بعمل صور له بعد موته

ولدى وصول أنباء موت الامبراطور الى العاصمة أحس مجلس أعيـان الامبراطورية الرومانية والشـعب كأن الخبر وقع عليهم وقع الصـاعقة ، فافرطوا فى الحزن • وأغلقت الحمامات والاسواق ، وتعطلت أماكن الترفيه

التى اعتاد الناس قضاء أوقات فراغهم فيها • والذين كانوا يعيشون حياة الترف والتنعم ساروا فى الشوارع منقبضى الصدور مكتئبين ، واتحد الجميع فى تمجيد اسم الراحل العزيز جدا عند الله ، والخليق بكل اجلال وتعظيم • ولم يقفوا عند حد التعبير عن حزنهم بالكلام ، بل شرعوا أيضا فى تكريمه باقامة الصور التذكارية له بنفس الاحترام الذى اعتادوا تقديمه له قبـــل موته • كان تصميم هذه الصور يمثل السماء نفسها والامبراطور مستريح فى مسكن اثيرى فوق قبة السماء •

كذلك أعلنوا بان أبناءه وحدهم هم الاباطرة ، وأن كلا منهم أوغسطس ، كما رجوا بالحاح أن يسمح لهم باخذ جسد امبرآطورهم واقامة جنازته فى عاصمة الامبراطورية •

الفصل السبعون

دفنه فى القسطنطينية بمعرفة ابنه قسطنطيوس

هكذا أعلنوا هناك احترامهم لذكرى من أكرمه الله • على أن ابنه الثانى الذى وصل فى ذلك الوقت شرع فى اقامة جنازة أبيه فى المدينة التى تحمل اسمه ، وكان هو يرأس بنفسه الاحتفال الذى كان يتقدمه الجنود بملابسهم الحربية ، يتبعهم جموع مختلفة • أما الجثة فكان يحيط بها جماعة من حاملى الحراب والبيادة المسلحين تسليحا ثقيلا • ولدى وصول الموكب الى الكنيسة المكرسة باسم رسل مخلصنا أودع التابوت هناك فى القبر المعد لهذا الغرض • وهكذا كرم الامبراطور الشاب قسطنطيوس أباه فى موته ، سواء بحضوره شخصيا أو باقامة هذا الاحتفال المقدس اللائق بمقامه •

الفصل الحادى والسبعون

اقامة خدمة مقدسة فى كنيسة الرسل
بمناسبة جنازة قسطنطين

وحالما انسحب قسطنطيوس مع القوات الحربية تقدم خدام الله مع كل جماعة المؤمنين ، وأدوا واجب العبادة الالهية بالصـــلاة • وفى نفس الوقت امتدحوا صفات هذا الملك المغبوط الذى أودع جثمانه مكانا مرتفعا بارزا ، واشترك كل الجمهور مع كهنة الله فى تقديم الصلاة عن نفسه بدموع غزيرة ، وبكاء شديد ، وهكذا تمموا رغبة الراحل التقى (١) • وفى هذه النـــاحية

---

(١) اى رغبته نحو دفنه فى كنيسة الرسل (ف ٦٠) •

أيضا تجلت رحمة الله نحو عبده ، ليس فقط لانه ترك خلافة الامبراطورية لابنائه المحبوبين ، بل أيضا لان الخيمة الارضية التى لنفسه المثلثة الطوبى قد سمح لها بمشاركة ذكريات الرسل وفق أمنية قلبه ، ومشاركة الاكرام الذى يقدم لاسمهم ولشعب الله ، وأكرمت باقامة هذه الخدمة الجليلة والطقوس المقدسة لها ، وتمتعت بالاشتراك فى صلوات القديسين • وهكذا استمر أيضا فى سلطانه الملكى حتى بعد الموت ، وهو سلطان عام شامل ، واستمر محتفظا بلقبه « مكسيموس الظافر ، أوغسطس » ، وهو يدل على عظمة السلطان فى العالم الرومانى (١)

الفصل الثانى والسبعون

العنقاء (٢)

ونحن لا يمكن أن نشبهه بالطير المصرى ، وهو الوحيد من نوعه كما يقولون ، الذى يموت مضحيا بذاته وسط رائحة عطرية ، ويقوم من رماده فى حياة جديدة ، ويحلق فى الفضاء كما كان من قبل • لكنه بالاحرى يشبه مخلصه الذى قدم ببركة الله ثمارا غزيرة جدا ، كالحنطة التى تتكاثر من حبة واحدة اذا زرعت ، وملأ كل العالم بثماره • هكذا تكاثر ملكنا المثلث الطوبى بخلافة بنيه له • فان تمثاله قد أقيم مع تماثيلهم فى كل قطر ، وأصبح الجميع يعترفون باسم قسطنطين ويبجلونه حتى بعد نهاية حياته على الارض •

الفصل الثالث والسبعون

كيف رسم قسطنطين على العملة صاعدا الى السماء

وضربت أيضا عملة تحمل التصميم الآتى • ظهرت على أحد الوجهين صورة ملكنا المبارك ورأسه مغطى بحجاب ، أما الوجه الآخر فقد صوره

---

(١) يبدو أنه حدثت فترة نحو ثلاثة شهور كان الكرسى الامبرطورى فيها شاغرا فاستمرت القوانين والاوامر تصدر باسم قسطنطين كما كان الحال قبل موته •

(٢) ورد عن هذا الطائر (واسمه بالانكليزية Phoenix) فى القاموس العصرى انه طائر خرافى رمز للخلود • وفى قاموس اكسفورد الانكليزى أنه طائر خرافى وحيد فى نوعه عاش فى صحراء العرب خمسة أو ستة قرون وبعد ذلك حرق نفسه ثم قام من رماده مجددا شبابه ليعيش حلقة أخرى •

جالسا على مركبة تجرها أربعة جياد ، وقد امتدت يد من أعلى الى أسفل لكى تقبله الى السماء .

الفصل الرابع والسبعون

واذ أكرم الله استحق أن يكرمه الله

هكذا كانت الادلة التى بها برهن لنا الله العلى ـ فى شخص قسطنطين الذى اعترف وحده علنا بالايمان المسيحى دون سائر الملوك ـ مقدار الفارق العظيم الذى يراه بين من يعبدونه ويعبدون مسيحه وبين من اختاروا الطريق المضاد ، الذين أثاروا عداوته بتجاسرهم على الهجوم على كنيسته ، والذين دلت نهايتهم المحزنة ، فى كل المناسبات ، على شدة غضبه ، كما حمل موت قسطنطين لكل الناس البرهان القاطع على محبته الالهية .

الفصل الخامس والسبعون

وقد فاق كل الاباطرة السابقين فى عبادة الله

واذ كان هو الفريد ، بين كل أباطرة الرومان ، فى عبادة الله ، الوحيد الذى أذاع تعاليم المسيح لكل البشر بكل جرأة ، الوحيد الذى أكرم كنيسته ، الامر الذى لم يعمله أحد قبله ، الوحيد الذى أباد ضلالة تعدد الالهة ابادة كاملة ، وأزال العبادة الوثنية بكل صورها ، فانه كذلك أصبح الوحيد بينهم ـ سواء فى الحياة أو بعد الموت ـ الذى اعتبر خليقا باكرام لم ينله احد من قبل ، حتى أنه لم يوجد أحد قط ، يونانى أو بربرى ، بل من قدماء الرومان أنفسهم ، خليق بالمقارنة معه

أديس أبابا ١٩٥١/٥/٩

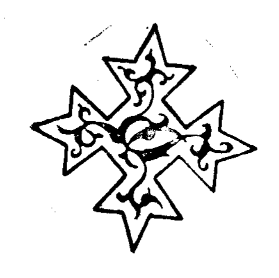
محتويات الكتاب

الكتاب الأول

الكتاب الثانى

الكتاب الثالث

الكتاب الرابع



لنفس المعرب

تفسير انجيل متى – انجيل مرقس – انجيل لوقا – انجيل يوحنا – رسالة رومية – رسالة فيلبى – رسالة تيموثاوس الأولى – رسالة تيموثاوس الثانية – بطرس الأولى – سفر الجامعة – نشيد الانشاد – نحميا – استير – هوشع – يوئيل – عاموس – عوبديا – يونان – ميخا – أيوب – المزامير ·

حياة ابراهيم – يعقوب – يوسف – موسى – يشوع – صموئيل – اشعياء – داود – ايليا – ارميا – زكريا – يوحنا المعمدان – بطرس – بولس ·

تأملات هادئة فى سفر التكوين

تجسد الكلمة	لاثناسيوس الرسولى
رسالة ضد الوثنيين	» »
حياة انطونيوس	» »
رسائل عن الروح القدس	» »
رسائل فصحية	» »
تاريخ الكنيسة	ليوسابيوس القيصرى
حياة قسطنطين	» »
الرد على كلسوس	لاوريجانوس
اسرار الكنيسة	باللغة الانكليزية

قداسات الكنيسة الأثيوبية باللغتين الانكليزية والعربية ·

تفسير قداس الكنيسة القبطية ·

الاستعداد للتناول من الأسرار المقدسة ·

القراءات اليومية فى الأسفار الالهية ·

كيف تدرس الكتاب المقدس – الصلاة الربانية – امثلة المسيح – حياة المسيح حسب انجيل مرقس – مزمور الراعى – اسرار الحياة المسيحية – مخدع الصلاة – اضواء الحياة اليومية – الحياة المباركة – الرب قريب – حياة الذات – خمسة التزامات – سر الارشاد – الصلاة المقتدرة – سر القوة – المحبة الفائقة المعرفة – الحياة الغالية – المؤمن الساجد – المال – الزرع والحصاد – الطريق الى الله ·

رقم الايداع بدار الكتب ٤٦٠٢/٧٥

مطبعة دار العالم العربى

٢٣ شارع الظاهر – تليفون ٩٠٦٧٠٦